صفات الزوج الصالح والزوجة الصالحة

إمام الدعاة فضيلة الشيخ
محمد متولي الشعراوي

أعده وعلق عليه وقدم له
عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي

المكتبة التوفيقية

صفات الزوج الصالح والزوجة الصالحة

لفضيلة الإمام

محمد متولي الشعراوي

أعده وعلق عليه وقدم له

عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي

المكتبة التوفيقية

أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقـــوق الملكية الأدبية والفنية محفوظـــة **لمكتبة التوفيقية (القاهرة-مصر)** ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضـــيد الكتاب كامـــلا أو مجزءًا أو تسجيله على أشرطة كاسيت او إدخاله على الكمبـــيوتر أو برمجته على اســطوانات ضوئيـــة إلا بموافقة الناشر خطيًا .

Copyright ©
All Rights reserved

Exclusive rights by Al **Tawfikia Bookshop (Cairo-Egypt)** No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

التجهيزات الفنية
دار التوفيقية للطباعة

المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo-Egypt

Add.: In Fornt of the Green Door Of El Hussen
Tel : (٠٠٢٠٢) ٥٩٠٤١٧٥ _ ٥٩٢٢٤١٠
Fax : ٦٨٤٧٩٥٧

إشراف
توفيق شعلان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد....

فيقول الإمام/ محمد متولي الشعراوي - بلل الله ثراه، وجعل الجنة مثواه:-

«الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نبني حياة الأسرة على طهر، وعلى أمن ملكات، فأنت تجد الرجل حين يكون بين أهله لا يجد غضاضة في أن يغلق عليها الباب، لكن تصور وجوده مع امرأة دون زواج، فالملكات النفسية تتصارع فيه، ويتربص، ويمكننا أن ننظر رجفته إذا سمع أي شيء، لأن ملكاته ليست منسجمة، هو سيمتع ملكة واحدة. لكن الملكات النفسية الباقية ملكات مفزعة، مما يدل على أن ما يفعله ليس أمرًا طبيعيًّا، وما دام ليس أمرًا طبيعيًّا فالملكات النفسية تناقضه، الحق سبحانه وتعالى يريد أن تُبنى الأسرة على طهر وعلى أمن، وهذا الأمن النفسي يعطي لكل ملكات النفس متعة.

وقلنا من قبل: إن الإنسان إذا كان له بنت ثم رأى شابًّا يمر كثيراً على البيت ويلتفت كثيرًا إلى الشرفة، ثم يقع بصر والد البنت عليه، ماذا يكون موقفه؟ تهيج كل جوارحه، فإذا ما جاء الولد أو أبوه وطرق الباب وقال: يا فلان أنا أريد أن أخطب ابنتك لنفسي، أو أريد ابنتك لابني. ماذا يكون موقف والد الفتاة؟ إنه السرور والانشراح وتصبح الملكات راضية والنفس مطمئنة، ويتم إعلان البهجة وهو الذي يدعو الناس ويقيم فرحًا؛ لأن الذي خلق الزوجين

الذكر والأنثى حينما شرع الالتقاء، أعطى في النفس البشرية وفي ذراتها رضا بهذا الحكم بالالتقاء ولذلك رُوي: «**جَدَعَ الحَلالُ أَنْفُ الغَيْرة**».

أي أن من يغار على ابنته هو الذي يوجه الدعوات لزواجها، فكأن الغيرة فيها حمية، وإن طُلب عرض عن غير طريق خالق الأعراض فلا بد أن تهيج النفس، فإن طلبها علـى وفق ما شرع خالق الأعراض تطمئن النفس. وهذه عملية قد يكون من الصعب تصورها، فما الذي يسبب الرضا، ومن الذي يدفع في القلب الحمية والغضب والثورة؟ إنه - سبحانه - هو الذي يفعل ذلك.

والإنسان عليه أن يلتفت إلى أن كلاً منا مكون من ملكات متعددة، فعقد الزواج وقول: «زوجني» و«زوجتك» وحضور الشهود، ماذا يعمل في ذرات تكوين النفس لكي تُسر؟ إنها إرادة الحق. وهذا شيء معروف، وأنت حين يكون لك إنسان تعرفه فقط، والإلف السيال بينك وبينه ما زال في أوله، يكفي عندما تقابله أن تلقي عليه السلام وينتهي الأمر، لكن هناك إنسان آخر لا يكفي هذا السيال الودي بينك وبينه، بل لابد أن تسلم عليه بيدك؛ لأن هناك جاذبية ومودة ولكل منهما تأثير.

إذن فعملية الود والولاء أمر يصنع تغييرًا كيماويًّا في النفس، ويكون التنافر إذا ما جاء اللقاء عن طريق ما حرم الله، والذي يأتي عن طريق ما شرع الله يحقق التجاذب. والشاعر عندما خاطب من يحبه قال:

بأبي من وددته فافترقنا ... وقضى الله بعد ذاك اجتماعًا

وتمنيته فلما التقينا ... كان تسليمه علي وداعًا

كأن الشاعر يريد تطويل أمد التسليم ومسافته كي يغذي ما عنده من الود، وكأنه يريد أن يقول: أنا التقيت مع من أوده فاختفى في واختفيت فيه، وهذا ناشيء من الامتزاج.

إذن فالتكوين العاطفي أو السيال أوجده الله كسيال التقاء. هذا إذا ما كان على شرع الله، أما في الحالة الأخرى فهو سيال كراهية. وما الذي يسبب ذلك؟ إنه عطاء من الله وهو خالق الرجل وخالق المرأة، فساعة يجيء اللقاء على وفق ما شرع الله فلا تستبعد أن يعدل الخالق الذرات، فعندما يحدث الامتزاج فلا بد أن الوفاء يأتي كنتيجة طبيعية وكذلك الولاء، ويتحقق الانسجام هذا إيجاب، أما إذا كان اللقاء على غير طريق الله فلا انسجام فيه وهذا سلب.

إذن فالحق سبحانه وتعالى يبني الأسرة على هذا المعنى. وأنتم تعلمون أن الالتقاءات التي تحدث عن غير طريق الله إنما تحدث في الخفاء، ومنكورة الثمرة، فإن جاء منها أثر وحمل فسيلقي الوليد في الشارع ويكون لقيطًا وقد يميتونه، إنما الثمرة التي تأتي بالحل فالكل يفرح بها.

فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾ والاستمتاع أشياء كثيرة وجاء الشيعة في قوله: ﴿**فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾. وقالوا: هذا نكاح المتعة بدليل أنه سبحانه سمى ما أخذ في نظير ذلك أجراً ونقول: كلمة «أجر» هذه واردة في الزواج، فسيدنا شعيب عندما جاءه سيدنا موسى عليه السلام قال له: أعطني أجر ثماني حجج. وسيأتي في الآية نفسها التي يتقولون بها ويقول: ﴿**وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾. فسمى المهر «أجرًا» أيضًا، فلماذا تأخذون هذا المعني. هم يقولون: نكاح المتعة حدث، ونقول لهم: نكاح المتعة حدث ولننظر إلى أسبابه.

إن هذا النكاح قد حصل على يد مشرع وله حكمة، ولكن ماذا بعد أن أنهى المشرع هذا الحكم وانتقل إلى الرفيق الأعلى؟ لقد أنهى الحكم، إن الرسول ﷺ أحل زواج المتعة في فترة وجيزة حينما كانوا في غزوة من الغزوات، وذهب قوم إلى رسول الله ﷺ؛ لأنهم يريدون أن يبنوا حركة حياتهم على الإيمان

الناصع: كان من الممكن أن يواروا هذه المسألة عن الرسول ﷺ، إنهم قالوا له: يا رسول الله أنستخصي؟ أي نخصي أنفسنا؟ فما دام الجهاد يطلب منا أن نكون في هذا الموقع بعيدًا عن أهلنا فلنستخص حتى لا يكون عندنا رغبة. فأباح لهم رسول الله ﷺ زواج المتعة؛ ولكنه أنهاه، والدليل على أنه أنهاه، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأنتم تعلمون منزلته رضي الله عنه من التشريع في أحكام الله، إنه كان يقترح الاقتراح فينزل القرآن موافقًا له، يقول عمر: ما يجيء واحد ليستمتع إلى أجل إلا رجمته.

إذن فانتهت المسألة. وسيدنا علي- كرم الله وجهه- أقر نهي سيدنا عمر، وقالوا: إن ابن عباس قال به. لكنه قال: إنني كنت قد أخطأت فيه، ونعلم أن صحابة رسول الله ﷺ لم يجلسوا في فصول تعليمية لسماع الوحي، بل كان كل منهم يذهب إلى رسول الله بعد أن يفرغ من عمله، فهذا سمع وذلك لم يسمع. وهذا هو السبب في أن هذا يروي وذاك لم يرو، فسيدنا ابن عباس قال: إنني كنت أعرف مسألة المتعة، ولم يصح عندي خبر منعها إلا في آخر حياتي.

إذن فقول الشيعة: إن المتعة موجودة هو نتيجة استدلال خاطئ، فقوله سبحانه: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ علينا أن نقرنه بقوله أيضًا في المهور في الآية التالية: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ لأن هناك فرقًا بين الثمن وبين الأجر؛ فالثمن للعين، والأجر للمنفعة من العين، ولم يملك الرجل بمهره المرأة، إنما ملك الانتفاع بالمرأة، وما دام هو ملك انتفاع فيقال له أجر أيضًا.

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي إن الذي فرض ذلك هو ربنا. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ ونلحظ هنا أن هناك فرقًا بين أن يشرع الحق لحق، وأن يترك باب الفضل مفتوحًا، فمن حقها أنها تأخذ المهر. لكن ماذا إن تراضت المرأة مع الرجل في

ألا تأخذ المهـر وتتنازل له عنه؟ أو أن يعطيهـا أكثر من المهـر؟ هذا ما يدخل في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ فلا لوم ولا تثريب فـيما يتراضى به الزوجان من بعد الفريضة، وكلمة «تراضيتم» تدخل في قوله سبحانه:

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾[النساء: ٤].

وفي عصرنا نجد أن المرأة تأخذ مهرها من الرجل وتجهز منه أثاث البيت، مع أن المفروض أن يجـهز الرجل لزوجتـه البيت وأن يبـقى المهر كامـلاً لها، ولكن التعاون هو الذي يعطي العطف والتكاتف» ا.هـ.

أخي الكريم:

والزواج الذي تقـام دعائمـه على الطُّهر بعـد تقوى الله تعـالى، هو الزواج الذي يثمـر السعادة، وسـعادته لا تنتهـي بانتهاء الأجل، بل تمتـد إلى الآخرة، هناك:

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[القمر: ٥٤، ٥٥].

وها هو الحق- سبحانه - يقول بعد ذكر صفات أولى الألباب:

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[الرعد: ٢٢-٢٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: **«إن الله ليرفع ذرية المؤمـن إليه في درجتـه، وإن كانوا دونه في العمل، لتقر بهم عينه»** ثم قرأ:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾[الطور: ٢١]، ثم قال:

«وما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين» حديث صحيح: رواه البزار، وغيره.

أخي:

ولئن سألت: وكيف السبيل لبناء هذا البيت؟

أجابك الإمام الشعراوي - رحمه الله - من خلال هذا الكتاب: «صفات الزوج الصالح والزوجة الصالحة» بأحلى بيان، وأيسر عبارة.

هذا، وقد كان عملنا فيه: جمع مادته العلمية من خلال خواطر الإمام -رحمه الله - ثم ترتيبها، وتقريبها للقارئ الكريم. وما أضفناه ميزناه عن كلامه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي

* * *

الباب الأول

مدخل مهم إلى موضوع الكتاب

من أهداف الزواج في الإسلام

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله -:

وهناك لون آخر من الاستبقاء، هو استبقاء النوع، لأن للإنسان عمراً محدوداً في الحياة وسينتهي؛ لذلك يجب أن يستبقى الإنسان النوع في غيره، كيف؟ نحن نتزوج كي يرزقنا الله بالذرية والبنين والحفدة وتستمر حلقات، وهذا استبقاء للنوع الإنساني.

والحق يريد أن يكون الاستبقاء للنوع كريمًا؛ لذلك يأمرنا الحق - سبحانه - أن نستبقى النوع بأن نختار له الوعاء الطاهر، فإياك أن تستبقى نوعًا من وعاءٍ خبيثٍ نجس، اختلطت فيه مياه أناس متعددين، فلا يدري أحد لمن ينسب الولد فيصير مضيعًا في الكون، مجهول النسب فأوضح الله للإنسان أن يختار لنفسه الوعاء النظيف ليستبقى النوع بكرامة.

والحصول على الأوعية النظيفة يكون بالزواج. فيختار الرجل أنثى عفيفة ذات دين وترضى به زوجًا أمام أعين الناس جميعًا، ويصير معروفًا للجميع أن هذه امرأة هذا، وهذا زوجها، دخوله وخروجه غير ممقوت أو موقوت. وما ينشأ من الذرية بعد ذلك يكون قطعًا منسوبًا إليه. ويخجل الإنسان أن يكون ابنه مهينًا أو عاريًا أو جائعًا أو غير معترف به؛ لذلك يحاول الأب أن يجعل من ابنه إنسانًا مستوفيًا لكل حقوقه مرفوع الرأس غير مهين، لا يقدحه واحد فيسبه وينال منه قائلاً: جئت من أين؟ أو من أبوك؟ فلا يعيش الطفل كسير الجناح ذليلاً طوال عمره. فأراد سبحانه استبقاء النوع برابطة تكون على عين الجميع، وأن تكون هذه الرابطة على الطريق الشرعي.

ومن العجيب أننا نجد هذه المسألة ذات آثار واضحة في الكون، فالتي تحاول

أن تزيل أثر جريمتها يجبرها الحنان الطبيعي كأم ألا تلقي ابنها الوليد في البحر بل أمام مسجد؛ فالطفل مربوط بحنان أمه ولكن الحنان غير شرعي ولذلك ترمي الأم الزانية بطفلها أمام المسجد حتى يلتقطه واحد من الناس الطيبين، فالزانية نفسها تعرف أنه لا يدخل المسجد إلا إنسان طيب قد يحن على الوليد ويأخذ هذا الطفل ويصير مأمونًا عليه.

وهي لا تلقي بوليدها عند خمارة أو دار سينما، ولكن دائمًا تضعه عند أبواب المساجد، فالحنان يدفعها إلى وضع الطفل غير الشرعي في مثل هذا المكان؛ لأنها تخاف عليه، لذلك تلفه وتضعه في أحلى الملابس، وإن كانت غنية فإنها تضع معه بعضًا من المال؛ لأن الحنان يدفعها إلى ذلك، والحياء من الذنب هو الذي يجعلها تتخلص من هذا الطفل.

إنها - كما قلنا-: تحتاط بأن تضعه في مكان يدخله أناس طيبون فيعثر عليه رجل طيب، يأخذه ويكون مأمونًا عليه. إذن فحتى الفاسق المنحرف عن دين الله يحتمي في دين الله؛ وهذا شيء عجيب.

والله يريد أن يبني بقاء النوع على النظافة والطهر والعفاف ولا يريد لجراثيم المفاسد أن توجد في البيوت ؛ لذلك يشرع العلاقة بين الرجل والمرأة لتكون زواجًا أمام أعين الناس، ويأخذ الرجل المرأة بكلمة الله.

وأضرب هذا المثل: نحن نجد الرجل الذي يحيا في بيت مطل على الشارع وله ابنة وسيمة والشباب يدورون حولها، ولو عرف الرجل أن شابًّا يجيء ويتعمد لينظر إلى ابنته فماذا يكون موقف الرجل من الشاب؟ إن الرجل قد يسلط عليه من يضربه أو يبلغ ضده الشرطة ويغلي الرجل بالغيظ والغيرة.

وما موقف الرجل نفسه عندما تدق الباب أسرة شاب طيب يطلبون الزواج من ابنته؟ يفرح الرجل ويسأل الابنة عن رأيها، ويبارك للأم ويأتي بالمشروبات ويوجه الدعوات لحفل عقد القران، فما الفرق بين الموقفين؟

لماذا يغضب الأب من الشاب الذي يتلصص؟ لأن هذا الشاب يريد أن يأخذ البنت بغير حق الله، أما الشاب الذي جاء ليأخذ الابنة زوجة بحق الله وبكلمة الله فالأب يفرح به وينزل الأمر عليه بردًا وسلامًا. وبعد ذلك يتسامى الأمر، ويتم الزفاف ويزور الأب ابنته صباح الزفاف ويرغب أن يرى السعادة على وجهها.

إن الفارق بين الموقفين هو ما قاله الرسول ﷺ: «**الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون، الله الله في النساء فإنهن عوانٍ في أيديكم**(١) **أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»(٢).

وما دام الله هو الذي خلق الرجل والمرأة وشرع أن يجتمعا وتكون كلمة الشاب: «أريد أن أتزوج ابنتك» بردًا وسلامًا على قلب الأب، ويكون الفرح والاحتفال الكبير؛ لأن هذه مسألة عفاف وطهر. والله يريد أن يجعل استبقاء النوع الإنساني استبقاءً نظيفًا لا يخجل أن تجيء منه ولادة، ولا يخجل منه المولود نفسه، ولا يُذم في المجتمع أبدًا، إذا استبقينا النوع بهذا الشكل؛ فهذا هو الاستبقاء الجميل للنوع. واستبقاء النوع هو الذي تأتي من أجله العملية الجنسية وأراد الله أن يشرعها حلالاً على علم الناس ويعرفها الجميع.

وقد سألني سائل وأنا في الجزائر: لماذا تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة على كلمات نحو: «زوجتك موكلتي، أو تقول هي: زوجتك نفسي» ويقبل الرجل، وتنكسر العلاقة بكلمة «أنت طالق»؟ وأجبته: لماذا يستبيح الرجل لنفسه أن يمتلك بضع الزوجة بكلمتين؟ ويستكثر أن تخرج من عصمته بكلمتين؟ فكما جاءت بكلمة تذهب بكلمة.

---

(١) عوان: أسيرات.

(٢) رواه النسائي وابن ماجه.

إن الحق سبحانه وتعالى كما استبقى الحياة بالعناصر التي تقدمت، يريد أن يستبقى النوع بالعناصر التي تأتي، وأوضح لنا أن كل كائن يتكاثر لابد له من إخصاب، والإخصاب يعني أن يأتي الحيوان المنوي من الذكر لبويضة الأنثى كي ينشأ التكاثر، والتكاثر في غير الإنسان يتم بعملية قسرية.

ففي الحيوانات نرى الأنثى وهي تجأر بالصوت العالي عندما تنزل البويضة في رحمها كالبقرة مثلاً، وحتى يقول الناس جميعًا: إن البقرة تطلب الإخصاب، وعندما يذهب بها صاحبها إلى الفحل ليخصبها تهدأ، ولا تمكن فحلاً آخر منها من بعد ذلك، وهكذا يتم حفظ النوع في الحيوانات.

أما في النباتات ؛ فالأنثى يتم تلقيحها ولو على بعد أميال، ونحن نعرف بعضًا من ذكور النبات وإناثها مثل ذكر النخل والجميز، لكننا لا نعرف التفريق بين ذكورة وأنوثة بعض النباتات، وقد يعرفها المتخصصون فقط، وبعض النباتات تكون الذكورة والأنوثة في عود واحد كالذرة مثلاً؛ فالأنوثة توجد في «الشراشيب» التي توجد في «كوز» الذرة، وعناصر الذكورة توجد في السنبلة التي يحركها الهواء كي تنزل لتخصب الأنوثة . وكذلك القمح . وهناك أنواع من النباتات لا نعرف ذكورتها ! بالله أيوجد أحدٌ عنده ذكر مانجو أو ذكر برتقال؟

إذن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها، لكن لابد من أن تتلاقح إخصابًا لينشأ التكاثر، فيوضح ربنا: اطمئنوا أنا جعلت الرياح حاملة لوسائل اللقاح، يأخذ الريح اللواقح إلى النباتات، والنبات الذي يكون تحت مستوى الريح يسخر الله له أنواعًا من الحشرات غذاؤها في مكانٍ مخصوصٍ من النبات وله لون يجذبها، حشرة يجذبها اللون الأحمر، وحشرة يجذبها اللون الأبيض؛ لأن الحشرة تذهب للذكورة فيعلق بها حيوان الذكورة، فتذهب إلى الأنثى المتبرجة بالزينة، وهذه العملية تحدث ولا ندري عنها شيئًا.

من الذي يلقح؟ من الذي يعلمها؟ إنه الله القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، فاستبقى لنا الأنواع غريزيًّا وقسريًّا، بدون أن نعرف عن الكثير منها شيئًا، حتى المطر لا يمكن أن ينزل إلا إذا حدثت عملية تلقيح. ولذلك يقول الحق:

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢].

إذن الحق قد استبقى لك أيها الإنسان أنواع مقومات حياتك بما لا تدريه، وجعل هذه المسائل قسرية بحيث يؤدي كل كائن وظيفته وتنتهي المسألة، لكن حين كان لك اختيار، وتوجد مشقات كثيرة في الإنجاب وحفظ النوع، فقد قرن- سبحانه- حفظ النوع بالمتعة، وإياك أن تعزل حفظ النوع من المتعة، فإن أخذت المتعة وحدها فقد أخذت الفرع وتركت الأصل، فلا بد أن تفعلها لحفظ النوع المحسوب عليك.

إذن فإياك أن تلقي حيوانك المنوي إلا في وعاء نظيف، محسوب لك وحدك كي لا تنشأ أمراض خبيثة تفتك بك وبغيرك، ولكيلا ينشأ جيل مطموس النسب، ولكيلا يكون مهينًا ولا مدنسًا في حياته ؛ فإياكم أن تأخذوا قضية حفظ النوع منفصلة عن المتعة فيها.

ولذلك- فسبحانه - سيتكلم عن المرأة عندما تتصل بامرأة بالسحاق، أو الرجل يكتفي بالرجل باللواط للمتعة، أو رجل ينتفع بامرأة على غير ما شرع الله. فعندما تنتفع امرأة مع امرأة، وينتفع الرجل بالرجل للاستمتاع، نقول لها: أنت أيتها المرأة أخذت المتعة وتركت حفظ النوع، وأنت يا رجل أخذت المتعة وتركت حفظ النوع، والحق يريد لك أن تأخذ المتعة وحفظ النوع معًا، فيوضح سبحانه أنه لابد أن تكون المتعة في ضوء منهج الله.

❊ ❊ ❊

العفة .. تاج المؤمنين

يقول الحق سبحانه:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١) .

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله -:

في حالة إذا لم ننكح الأيامى، ولم نُعنهم على الزواج، ولم يقدروا هم على القيام بنفقاته يصف لهم الحق - سبحانه وتعالى - العلاج المناسب، وهو الاستعفاف، وقد طلب الله تعالى من المجتمع الإسلامي سواء - تمثل في أولياء الأمور أو في المجتمع العام- أن ينهض بمسألة الأيامى، وأن يعينهم على الزواج، فإن لم يقم المجتمع بدوره، ولم يكن لهؤلاء الأيامى قدرة ذاتية على الزواج، فليستعفف كل منهم حتى يغنيهم الله، مما يدل على أن التشريع يبنى أحكامه، ويُراعي كل الأحوال، سواء أطاعوا جميعًا أو عصوا جميعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ..﴾ [النور: ٣٣] يعني: يحاول العفاف ويطلبه ويبحث عن أسبابه، يجاهد أن يكون عفيفًا، وأول أسباب العفاف أن يغض بصره حين يرى، فلا يوجد له مُهيج ومثير، فإن وجد في نفسه فُتوة وقوة فعلية أن يُلجمها ويُضعفها بالوسائل الشرعية كما قال النبي ﷺ: «يا معشر

(١) [النور: ٣٣].

الشباب من استطاع منكم الباءة - يعني: نفقات الحياة الزوجية- **فليتزوج، ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وجاء[(١)]»[(٢)].**

والصوم يعمل على انكسار هذه الشهوة ويُهدئ من شراسة الغريزة؛ ذلك لأنه يأكل فقط ما يقيم أوده، ولا يبقى في بدنه ما يثير الشهوة، كما جاء في الحديث الشريف: «**بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه...**»[(٣)].

أو: أن يُفرغ الشاب نفسه للعمل النافع المفيد الذي يشغله ويستنفد جهده وطاقته، التي إن لم تصرف في الخير صرفت في الشر، وبالعمل يثبت الشاب ذاته، ويثق بنفسه، ويكتسب الحلال الذي يشجعه مع الأيام على الزواج وتحمل مسئولياته.

لذلك قال تعالى: ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ..**﴾ [النور: ٣٣] ولم يقُل: وليعف، فالمعنى ليسلك سبيل الإعفاف لنفسه وليسع إليه، بأن يمنع المهيج بالنظر ويُهدئ شراسة الغريزة بالصوم، أو بالعمل فيشغل وقته ويعود آخر النهار متعبًا يريد أن ينام ليقوم في الصباح لعمله نشيطًا، وهكذا لا يجد فرصة لشيء مما يغضب الله.

ومعنى: ﴿**الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا..**﴾ [النور: ٣٣] أي: بذواتهم قدرة أو بمجتمعهم معونة.

وقوله تعالى: ﴿**حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ..**﴾ [النور: ٣٣] يدل على أن الاستعفاف وسيلة من وسائل الغنى؛ لأن الاستعفاف إنما نشأ من إرادة التقوى، وقد قال تعالى في قضية قرآنية: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾ [الطلاق: ٢، ٣] فمن هذا الباب يأتيه غنى الله.

---

(١) وجاء: خصاء.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).

(٣) حديث صحيح: رواه أحمد (٤/ ١٣٢)، والترمذي (٢٣٨٠).

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ..﴾ [النور: ٣٣].

الكتاب: معروف أنه اجتماع عدة أشياء مكتوبة في ورق، والمراد هنا المكاتبة، وهي أن تكتب عقدًا بينك وبين العبد المملوك، تشترط فيه أن يعمل لك كذا وكذا بعدها يكون حرًّا، إن أدى ما ذكر في عقد المكاتبة.

﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:٣٣] يعني: إن كانت حريتهم ستؤدي إلى خير كأن ترفع عنهم ذلة العبودية، وتجعلهم ينشطون في الحياة نشاطًا يناسب مواهبهم.

لذلك جعل الحق- سبحانه وتعالى- هذه المكاتبة مصرفًا من مصارف الزكاة، فقال تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ..﴾ [البقرة: ١٧٧] يعني: المماليك الذين نريد أن نفك رقابهم من أسر العبودية وذلها بالعتق، وإن كان مال الزكاة يدفع للفقراء والمساكين .. إلخ ففي الرقاب يدفع المال للسيد ليعتق عبده.

كما جعل الإسلام عتق الرقاب كفارة لبعض الذنوب بين العبد وبين ربه؛ ذلك لأن الله تعالى يريد أن يُنهي هذه المسألة.

﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ..﴾ [النور: ٣٣].

الحق - تبارك وتعالى- هو الرازق، والمال في الحقيقة مال الله، لكن إن ملكك وطلب منك أن تعطي أخاك الفقير يحترم ملكيتك، ولا يعود سبحانه في هبته لك؛ لذلك يأخذ منك الصدقة على أنها قرض لا يرده الفقير، إنما يتولى ربك عز وجل رده، فيقول: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا..﴾ [البقرة: ٢٤٥] ولم يقل سبحانه: يقرض فلانًا، وإنما يُقرض الله لأنه تعالى هو الخالق، ومن حق عبده الذي استدعاه للوجود أن يرزقه ويتكفل له بقُوته.

واحترام الملكية يجعل الإنسان مطمئنًا على آثار حركة حياته وثمرة جهده، وأنها ستعود عليه، وإلا فما الداعي للعمل ولبذل المجهود إن ضاعت ثمرته وحُرم منها صاحبها؟ عندها ستتعطل مصالح كثيرة وسيعمل الفرد على قدر حاجته فحسب، فلا يفيض عنه شيء للصدقة.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

يُقال للمملوك: فتى، وللمملوكة: فتاة، فقد نهى النبي ﷺ أن يقول الرجل: عبدي وأمتي إنما يقول: فتاي وفتاتي، فهذه التسمية(١) أكرم لهؤلاء وأرفع، فالفتى من الفُتوة والقوة كأنك تقول: هذا قوتي الذي يساعدني ويعينني على مسائل الحياة، فالنبي ﷺ يريد أن يرفع من شأنهم.

ومن هؤلاء جماعة المماليك الذين حكموا مصر في يوم من الأيام، وكانوا من أبناء الملوك والسلاطين والأعيان.

والبغاء ظاهرة جاء الإسلام فوجدها منتشرة، فكان الرجل الذي يملك مجموعة من الإماء ينصب لهن راية تدل عليهن، ويأتيهن الشباب ويقبض هو الثمن، ومن هؤلاء عبد الله بن أبي ابن سلول رأس النفاق، وكان عنده (مسيكة، ومعاذة) وفيه نزلت هذه الآية(٢) .

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضيء ربك. وليقل: سيدي مولاي. ولا يقل أحدكم: عبدي، أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي» أخرجه البخاري في صحيحه (٢٥٥٢)، ومسلم في صحيحه (٢٢٤٩).

(٢) قال الزهري: كانت جارية لعبد الله ابن أبي بن سلول يقال لها معاذة يُكرهها على الزنا، فلما جاء الإسلام نزلت ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ [النور: ٣٣]، أخرجه البزار في مسنده (أورده ابن كثير في تفسيره ٣/ ٢٨٨) وعن جابر قال: نزلت في أمة لعبد الله ابن أبي بن سلول يقال لها مسيكة، كان يكرهها على الفجور وكانت لا بأس بها فتأبى فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ [النور: ٣٣] قاله الأعمش.

وتأويل الآية: لا تُكرهوا الإماء على البغاء، وقد كن يبكين، ويرفضن هذا الفعل، وكُن يؤذين ويتعرضن للغمز واللمز، ويتجرأ عليهن الناس، وكان من هؤلاء الإماء بنات ذوات أصول طيبة شريفة، لكن ساقتهن الأقدار إلى السبي في الحروب أو خلافه، في حين أن الحرة العفيفة تسير لا يتعرض لها أحد بسوء.

ومعنى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا..﴾ [النور: ٣٣] يتكلم القرآن هنا عن الواقع بحيث إن لم يُردن تحصنًا فلا تُكرهوهُن ﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴾ [النور: ٣٣] طلبًا للقليل من المال الزائل ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣] لأنهن في حالة الإكراه على البغاء يفقد شرط الاختيار، فلا يتحملن ذنب هذه الجريمة، عملاً بالحديث النبوي الشريف: **«رفُع عن أمتي: الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه»**[1].

لذلك يُطمئِن الحق ـ تبارك وتعالى ـ هؤلاء اللاتي يُرِدْنَ التحصُّن والعفاف، لكن يكرههن سيدهن على البغاء، ويُرغمهن بأيٍّ وسيلة: اطمئن فلا ذنب لكن في هذه الحالة، وسوف يُغفر لكن والله غفور رحيم.

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الدارقطني (٤/ ١٧٠)، والحاكم في «مستدركه» (٢/ ١٩٨)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وغيرهما، ولفظه: **«إن الله تجاوز عن أمتي: الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»**.

الأولاد بقدر الله تعالى

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله -:

إننا كثيرًا ما نجد رجلاً كان يتزوج امرأة ولا تلد ويشاع عنها أنها عقيم، ويذهب الاثنان إلى معامل التحليل، ويقال أحيانًا: المرأة هي السبب في عدم النسل، أو: الرجل هو السبب في عدم النسل، ويفترق الاثنان ويتزوج كل منهما بآخر، فتلد المرأة من الزوج الجديد، ويولد للرجل من الزوجة الجديدة؛ لأن المسألة كلها مرادات الله، وليست أمور الحياة مجرد اكتمال أسباب تُفرض على الله بل هو المسبب دائمًا فهو القائل:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

كم صورة إذن عندنا لمثل هذا الموقف؟ يهب لمن يشاء إناثًا، ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانًا وإناثًا، ويجعل من يشاء عقيمًا، هي بأربعة مقادير تجري على الرجل والمرأة، وعندما يهب الله المؤمن الإناث يكون سعيدًا. وكذلك عندما يهبه الذكور، وعندما يهب الله لأسرة أبناء من الذكور فقط. فالزوجة تحن أن يكون لها ابنة. وإن وهب الحق لأسرة ذرية من الإناث فقط، فالمرأة والرجل يتمنيان الابن، وإن أعطاهما الله الذكور والإناث نجدهما قد وصلا إلى الحالة التي تقر بها العيون عادة. والحالة التي تقر بها العيون عادة مؤخرة.

إن الحالة التي تزهد النفس فيها فالحق يقربها إلى أوليات الهبة، فقال أولاً: «يخلق ما يشاء»، وبعد ذلك: «يهب لمن يشاء إناثًا» ثم ذكر عطاء الذكور، ثم يأتي بالحالة التي يكون العطاء فيها في القمة: «أو يزوجهم ذكرانًا وإناثًا» وأخيرًا

يأتي بالقدر الرابع الذي يجريه على بعض خلقه وهو: «ويجعل من يشاء عقيمًا».

ولماذا يُسر الإنسان بقدر الله حينما يهبه الله الإناث أو الذكور، ويزداد السرور بقدر الله حينما يهبه - سبحانه - الذكور والإناث. ولماذا لا تُسر إذن أيها الإنسان بقدر الله حينما يجعلك عقيمًا؟ أتعتقد أنك تأخذ القدر الذي تهواه، وترد القدر الذي ليس على هواك؟ إن المواقف الأربعة هي قدر من الله.

ولو نظر الإنسان إلى كل أمر من الأمور الأربعة لرضي بها.

إنه سبحانه يخلق ما يشاء ويجعل من يشاء عقيمًا، إن قالها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر الله فالله قد يقر عينه كما أقر عيون الآخرين بالإناث أو بالذكور، أو بالذكور والإناث معًا. وأقسم لكم لو أن إنسانًا- أو زوجين- أخذا قدر الله في العقم كما أخذاه في غيره من المواقف السابقة برضا إلا رزقهم الله، لا أقول ببنين وبنات يرهقونهم في الحمل والتربية وغيرها، بل يرزقهم بأناس يخدمونهم، وقد رباهم غيرهم، والذي يجعل الأزواج المفتقدين للإنجاب يعيشون في ضيق، هو أنهم في حياتهم ساخطون على قدر الله- والعياذ بالله- فيجعل الله حياتهم سخطًا.

* * *

قوامة الرجل صيانة للمرأة

سُئل الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى -:

تشعر بعض السيدات بعدم الراحة من ذكر القوامة التي جعلها الله للرجل على المرأة كما نصت بذلك الآية الكريمة: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤] فماذا يقول الدين لهؤلاء النسوة؟

فأجاب:

القوامة تكليف من الله عز وجل للرجل، ولا يعني ذلك تفضيلاً من الله للرجل على المرأة كما يعتقد الناس، ولو أراد الله هذا المعنى لقال: الرجال قوامون على النساء بما فضل الله الرجال على النساء ولكنه قال: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ فالرجال مكلفون برعاية النساء والسعي من أجلهن وخدمتهن، إلى كل ما تفرض القوامة من تكليفات.

إن القوامة تحتاج إلى زيادة مجهود وحركة وكدح من ناحية الرجل ليأتي بالأموال، يقابلها فضل من ناحية أخرى، وهو أن للمرأة مهمة لا يقدر عليها الرجل، فهي مفضلة عليه فيها، فالرجل لا يحمل ولا يلد ولا تعتريه أعذار النساء المعروفة.

ولذلك جاء بكلمة «بعض» هنا ليكون البعض مفضلاً في ناحية ومفضولاً عليه من ناحية أخرى، ولا يمكن أن نقيم مقارنة بين فردين لكل منهما مهمة تختلف عن الآخر، لكن إذا نظرنا إلى المهمتين معًا سنجد أنهما متكاملتان، فالرجل فضل بالسعي والكدح، أما الحنان والرعاية والعطف فهي ناحية مفقودة عند الرجل لانشغاله بمتطلبات القوامة، ولذلك فإن الله عز وجل يحفظ المرأة

لتقوم بمهمتها، ولا يحملها قوامة بتكليفاتها لكي تفرغ وقتها للعمل الشاق الآخر الذي خلقت من أجله. اهـ.

وعقب قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾(١) قال الإمام الشعراوي- رحمه الله-:

«الرجال قوامون على النساء»، أول ما نلتفت إليه أن بعضهم لم يفسروا الآية إلا على الرجل وزوجته على الرغم من أن الآية تكلمت عن مطلق رجال ومطلق نساء، فليست الآية مقصورة على الرجل وزوجه، فالأب قوام على البنات، والأخ على أخواته. ولنفهم أولاً «الرجال قوامون» وماذا تعني؟ وننظر أهذه تعطي النساء التفوق والمركز أم تعطيهن التعب. والحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم قضية كونية، فهو الخالق الذي أحسن كل شيء خلقه وأوضح القضية الإيمانية «الرجال قوامون على النساء» والذي يخالف فيها عليه أن يوضح - إن وجد - ما يؤدي إلى المخالفة، والمرأة التي تخاف من هذه الآية، نجد أنها لو لم ترزق بولد ذكر لغضبت، وإذا سألناها: لماذا إذن؟ تقول: أريد ابنًا ليحمينا. كيف وأنت تعارضين في هذا الأمر؟.

ولنفهم ما معنى «قوام»، القوام هو المبالغ في القيام. وجاء الحق هنا بالقيام الذي فيه تعب، وعندما تقول: فلان يقوم على القوم؛ أي لا يرتاح أبدًا. إذن فلماذا تأخذ «قوامون على النساء» على أنه كتم أنفاس؟ لماذا لا تأخذها على أنه سعى في مصالحهن؟ فالرجل مكلف بمهمة القيام على النساء، أي أن يقوم بأداء ما يصلح الأمر. ونجد أن الحق جاء بكلمة «الرجال» على عمومها، وكلمة «النساء» على عمومها، وشيء واحد تكلم فيه بعد ذلك في قوله: «بما فضل الله بعضهم على بعض» فما وجه التفضيل؟.

(١) [النساء: ٣٤].

إن وجه التفضيل أن الرجل له الكدح وله الضرب في الأرض وله السعي على المعاش، وذلك حتى يكفل للمرأة سبل الحياة اللائقة عندما يقوم برعايتها.

وفي قصة آدم عليه السلام لنا المثل، حين حذر الحق سبحانه آدم وزوجته من الشيطان، إبليس الذي دُعي إلى السجود مع الملائكة لآدم فأبى، وبذلك عرفنا العداوة المسبقة من إبليس لآدم، وحيثيتها:

﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

وأوضح الحق لآدم: إذا هبطت إلى الأرض فاذكر هذه العداوة. واعلم أنه لن يتركك، وسيظل يغويك ويغريك؛ لأنه لا يريد أن يكون عاصيًا بمفرده، بل يريد أن يضم إليه آخرين من الجنس الذي أبى أن يسجد هو لأبيهم آدم يريد أن يغويهم، كما حاول إغواء آدم:

﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١١٧].

وهل قال الحق بعدها: فتشقيا أو فتشقى؟ قال سبحانه: ﴿فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].

فساعة جاء الشقاء في الأرض والكفاح ستر المرأة وكان الخطاب للرجل. وهذا يدل على أن القوامة تحتاج إلى تعب، وإلى جهد، وإلى سعي، وهذه المهمة تكون للرجل.

ونلحظ أنه ساعة التفضيل قال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ لقد جاء بـ «بعضهم» لأنه ساعة فضل الرجل لأنه قوام فضل المرأة أيضًا لشيء آخر وهو كونها السكن حين يستريح عندها الرجل وتقوم بمهمتها.

ثم تأتي حيثية القوامة: ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾. والمال يأتي نتيجة الحركة ونتيجة التعب، فالذي يتعب نقول له: أنت قوام، إذن فالمرأة يجب أن تفرح بذلك؛ لأنه سبحانه أعطى المشقة وأعطى التعب للجنس المؤهل لذلك.

ولكن مهمتها وإن كانت مهمة عظيمة إلا أنها تتناسب والخصلة المطلوبة أولاً فيها: الرقة والحنان والعطف والوداعة . فلم يأت بمثل هذا ناحية الرجل؛ لأن الكسب لا يريد هذه الأمور، بل يحتاج إلى القوة والعزم والشدة، فقول الله: «قوامون» يعني مبالغين في القيام على أمور النساء.

ويوضح للنساء: لا تذكرن فقط أنها حكاية زوج وزوجة. قدرن أن القيام يكون على أمر البنات والأخوات والأمهات. فلا يصح أن تأخذ «قوام» على أنها السيطرة؛ لأن مهمة القيام جاءت للرجل بمشقة، وهي مهمة صعبة عليه أن يبالغ في القيام على أمر من يتولى شئونهن.

«وبما أنفقوا من أموالهم» فإذا كان الزواج متعة للأنثى وللذكر. والاثنان يستمتعان ويريدان استبقاء النوع في الذرية، فما دامت المتعة مشتركة وطلب الذرية أيضًا مشتركًا فالتبعات التي تترتب على ذلك لم تقع على كل منهما، ولكنها جاءت على الرجل فقط . . . صداقًا ونفقة حتى ولو كانت المرأة غنية لا يفرض عليها الشرع حتى أن تقرض زوجها.

إذن فقوامة الرجال جاءت للنساء براحة ومنعت عنهن المتاعب. فلماذا تحزن المرأة منها؟ فـ «الرجال قوامون على النساء» أي قائمون إقامة دائمة؛ لأنه لا يقال قوّام لمطلق قائم، فالقائم يؤدي مهمة لمرة واحدة، لكن «قوام» تعني أنه مستمر في القوامة.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ وما دمنا نكدح ونتعب للمرأة فلا بد أن تكون للمرأة مهمة توازي ذلك وهي أن تكون سكنًا له، وهذه فيها تفضيل أيضًا.

لقد قدم الحق سبحانه وتعالى في صدر الآية مقدمة بحكم يجب أن يلتزم به، لأنه حكم الخالق الذي أحسن كل شيء خلقه، فأوضح القضية الإيمانية: «الرجال قوامون على النساء» ثم جاء بالحيثيات فقال: «بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم».

صلاح الآباء ينفع الأبناء

العمل الصالح يمتد أثره إلى ذرية الإنسان!! ونشير - هنا - إلى قصتين:

القصة الأولى: قصة موسى مع الخضر - عليهما السلام -:

ونسوقها بتمامها لأهميتها:

قال الحق - سبحانه -:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن

يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾(١).

قال الإمام الشعراوي ـ رحمه الله ـ في مختصره:

وقد تكلمنا مرة عن العبد الصالح الذي ذهب إليه موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٦٦ ـ ٧١].

لقد جرب العبد الصالح موسى في خرق السفينة- كما توضح الآيات- فقال العبد الصالح:

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ [الكهف: ٧٢، ٧٣].

ثم ما كان من أمر الغلام الذي قتله العبد الصالح وقول موسى له: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾.

---

(١) [الكهف: ٦٠-٨٢].

ثم جاءا إلى أهل قرية فطلبا منهم الطعام، وحين يطلب منك ابن سبيل طعامًا فاعلم أنها الحاجة الملحة؛ لأنه لو طلب منك مالاً فقد تظن أنه يكتنز المال، ولكن إن طلب لقمة يأكلها فهذا أمر واجب عليك.

فماذا فعل أهل القرية حين طلب العبد الصالح[1] وموسى طعامًا لهما؟.

يقول الحق:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧].

إنها قرية لئيمة، ووجد العبد الصالح في القرية جداراً يريد أن يسقط وينقض فأقامه، واعترض موسى؛ لأن عنده حفيظة على أهل القرية فقد طلبا منهم طعامًا فلم يطعموهما، وقال سيدنا موسى: إنك لو شئت لاتخذت عليه أجرًا؛ لأن أهل القرية لئام، وما كان يصح أن تقيم لهم الجدار إلا إذا أخذت منهم أجراً.

لقد غاب عن موسى ما لم يُغَيِّبُ الله سبحانه عن العبد الصالح، فبالله لو أن الجدار وقع وهم لئان لا يطعمون من استطعمهم، ثم رأوا الكنز المتروك لليتامى المساكين، فلا بد أنهم سيغتصبون الكنز. إذن فعندما رأيت الجدار سيقع أقمته حتى أواري الكنز عن هؤلاء اللئام. ويقول الحق سبحانه:

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

---

(١) قال الإمام القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٩١): «والخضر نبي عند الجمهور... والآية تشهد بنبوته» ا.هـ. قلت: الآية: قوله تعالى - حكاية عنه -: «وما فعلته عن أمري».

إذن فالعلة في هذه العملية هي الحماية لليتيمين، ولنلق بالاً ولنهتم بملاحظ النص، لابد أن العبد الصالح قد أقام الجدار بأسلوب جدد عمراً افتراضيًّا للجدار بحيث إذا بلغ اليتيمان الرشد وقع الجدار أمامهما؛ ليرى كلاهما الكنز، لقد تم بناء الجدار على مثال القنبلة الموقوتة بحيث إذا بلغا الرشد ينهار الجدار وليأخذا الكنز، إنه توقيت إلهي أراده الله؛ لأن والد اليتيمين كان صالحًا(١)، اتقى الله فيما تحت يده فأرسل الله له جنوداً لا يعلمهم ولم يرتبهم ليحموا الكنز لولديه اليتيمين، لذلك فلنفهم جيداً في معاملتنا، قول الحق:

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩].

لماذا؟ لأن الإنسان عندما يكون شابًّا فذاتيته تكون هي الموجودة. لكن كلما تقدم الإنسان في السن تقدمت ذاتية أولاده عنده، ويحرم نفسه ليعطي أولاده، وعندما يرى أن عياله ما زالوا ضعافًا، وجاءت له مقدمات الموت فهو يحزن على مفارقة هؤلاء الضعاف، فيوضح الحق لكل عبد طريق الأمان: إنك تستطيع وأنت موجود أن تعطي للضعاف قوة، قوة مستمدة من الالتحام بمنهج الله وخاصة رعاية ما تحت يدك من يتامى، بذلك تؤمن حياة أولادك من بعدك وتموت وأنت مطمئن عليهم.

والقول السديد من الأوصياء: ألا يؤذوا اليتامى، وأن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب ويدعوهم بقولهم يا بني ويا ولدي.

وحين يتقي المؤمن الله فيما بين يديه يرزقه الله بمن يتقي الله في أولاده.

---

(١) قيل: كان الأب العاشر!! قال الإمام القرطبي في «تفسيره» (٤١١/١٠): «فيه ما يدل على أن الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بعدوا عنه» ا.هـ.

القصة الثانية: قصة بقرة بني إسرائيل:

قال الحق - سبحانه -:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله- في تفسيره لهذه الآيات:

ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى أتى بحرف: «وإذ» . . يعني واذكروا: «وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» . . ولم يقل لماذا أمرهم بأن يذبحوا البقرة. . ولا بد أن نقرأ الآيات إلى آخر القصة لنعرف السبب في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣].

(١) [سورة البقرة ٦٧ ـ ٧٤].

والمفروض في كل الأمور أن الأمر تسبقه علته . . ولكن هذه عظمة القرآن الكريم. . لأن السؤال عن العلة أولاً معناه أن الأمر صادر من مساو لك. . فإذا قال لك إنسان افعل كذا. . تسأله لماذا حتى أطيع الأمر وأنفذه. . إذن الأمر من المساوي هو الذي تسأل عن علته . . ولكن الأمر من غير المساوي. . كأمر الأب لابنه والطبيب لمريضه والقائد لجنوده. . مثل هذا الأمر لا يسأل عن علته قبل تنفيذه. . لأن الذي أصدره الحكم من الذي صدر إليه الأمر. . ولو أن كل مكلف من الله أقبل على الأمر يسأل عن علته أولاً. . فيكون قد فعل الأمر بعلته فكأنه قد فعله من أجل العلة. . ومن هنا يزول الإيمان . . ويستوي أن يكون الإنسان مؤمنًا أو غير مؤمن. . ويكون تنفيذ الأمر بلا ثواب من الله. .

إن الإيمان يجعل المؤمن يتلقى الأمر من الله طائعًا. . عرف علته أو لم يعرف. . ويقوم بتنفيذه لأنه صادر من الله. .ولذلك فإن تنفيذ أي أمر إيماني يتم لأن الأمر صادر من الله . . وكل تكليف يأتي. . علة حدوثه هي الإيمان بالله . . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يبدأ كل تكليف بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنو». . أي ما من آمنت بالله ربًا وإلهًا وخالقًا. . خذ عن الله وافعل لأنك آمنت بمن أمرك.

في هذه الآيات التي نحن بصددها أراد الله تعالى أن يبين لنا ذلك. فجاء بالأمر بذبح البقرة أولاً. . وبالعلة في الآيات التي روت لنا علة القصة. . وأنت حين تعبد الله فكل ما تفعله هو طاعة لله سبحانه وتعالى. . سواء عرفت العلة أو لم تعرفها. . فأنت تؤدي الصلاة لأن الله تبارك وتعالى أمرك بأن تصلي. . فلو أديت الصلاة على أنها رياضة أو أنها وسيلة للاستيقاظ المبكر. . أو أنها حركات لازمة لليونة المفاصل فإن صلاتك تكون بلا ثواب ولا أجر. . إن أردت الرياضة فاذهب إلى أحد النوادي وليدربك أحد المدربين لتكون الرياضة على أصولها. . وإن أردت اللياقة البدنية فهناك ألف طريقة لذلك. . وإن أردت عبادة

الله كما أمرك الله فلتكن صلاتك التي فرضها الله عليك لأن الله فرضها.. وكذلك كل العبادات الأخرى.

الصوم ليس شعوراً بإحساس الجائع.. ولا هو طريقة لعمل الرجيم ولكنه عبادة .. إن لم تصم تنفيذاً لأمر الله بالصوم فلا ثواب لك .. وإن جعلت للصيام أي سبب إلا العبادة فإنه صيام لا يقبله الله .. والله أغنى الشركاء عن الشرك .. فمن أشرك معه أحداً ترك الله عملك لمن أشركته .. وكذلك كل العبادات.

هذا هو المفهوم الإيماني الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إليه في قصة بقرة بني إسرائيل.. ولذلك لم يأت بالعلة أو السبب أولاً.. بل أتى بالقصة ثم أخبرنا سبحانه في آخرها عن السبب.. وسواء أخبرنا الله عن السبب أو لم يخبرنا فهذا لا يغير في إيماننا بحقيقة ما حدث.. وإن القصة لها حكمة وإن خفيت علينا فهي موجودة.

قوله تعالى: «إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة».. أعطى الله تبارك وتعالى الأمر أولاً ليختبر قوة إيمان بني إسرائيل. ومدى قيامهم بتنفيذ التكليف دون تلكؤ أو تمهل.. ولكنهم بدلاً من أن يفعلوا ذلك أخذوا في المساواة والتباطؤ: «وإذ قال موسى لقومه» .. كلمة قوم تطلق على الرجال فقط.. ولذلك يقول القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

إذن قوم هم الرجال.. لأنهم يقومون على شئون أسرهم ونسائهم.. ولذلك يقول الشاعر العربي:

وما أدري ولست أخال أدري ... أقوم آل حصنٍ أم نساءُ

فالقوامة للرجال.. والمرأة حياتها مبنية على الستر في بيتها.. والرجال يقومون لها بما تحتاجه من شئون .. والمفروض أن المرأة سكن لزوجها وبيتها وأولادها.. وهي في هذا لها مهمة أكبر من مهمة الرجال.. قوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم﴾. الأمر طلب فعل. وإذا كان الآمر أعلى من المأمور نسميه أمرًا. وإذا كان مساويًا له نسميه التماسًا.. وإذا كان إلى أعلى نسميه رجاء ودعاء.. على أننا لابد أن نلتفت إلى قوله تعالى على لسان زكريا:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨].

هل هذا أمر من زكريا؟ طبعًا لا. لأنه دعاء والدعاء رجاء من الأدنى إلى الأعلى.. قوله تعالى: ﴿الله يأمركم﴾. لو أن إنسانًا يعقل أدنى عقل ثم يطلب منه أن يذبح بقرة .. أهذه تحتاج إلى إيضاح؟ لو كانوا ذبحوا بقرة لكان كل شيء قد تم دون أي جهد .. فما دام الله قد طلب منهم أن يذبحوا بقرة.. فكل ما عليهم هو التنفيذ..

ولكن انظر إلى الغباء حتى في السؤال .. إنهم يريدون أن يفعلوا أي شيء لإبطال التكليف.. لقد قالوا لموسى نبيهم إنك تهزأ بنا.. أي إنهم استنكروا أن يكلفهم الله تبارك وتعالى بذبح بقرة على إطلاقها دون تحديد.. فاتهموا موسى إنه يهزأ بهم.. كأنهم يرون أن المسألة صعبة على الله سبحانه وتعالى .. لا يمكن أن تحل بمجرد ذبح بقرة.. وعندما سمع موسى كلامهم ذهل.. فهل هناك نبي يهزأ بتكليف من تكليفات الله تبارك وتعالى. أينقل نبي الله لهم أمرًا من أوامر الله جل جلاله على سبيل الهزل؟

هنا عرف موسى أن هؤلاء اليهود هم جاهلون.. جاهلون بربهم وبرسولهم وجاهلون بآخرتهم.. وأنهم يحاولون أن يأخذوا كل شيء بمقاييسهم وليس بمقاييس الله سبحانه وتعالى .. فاتجه إلى السماء يستعيذ بالله من هؤلاء

الجاهلين.. الذين يأتيهم اليسر فيريدونه عسراً ويأتيهم السهل فيريدونه صعبًا.. ويطلبون من الله أن يعنتهم وأن يشدد عليهم وأن يجعل كل شيء في حياتهم صعبًا وشاقًا.

﴿ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ ﴾

وكان سؤالهم يبين نقص درجة الإيمان عندهم.. لم يقولوا ادع لنا ربنا.. بل قالوا ادع لنا ربك، وكأنه رب موسى وحده.. ولقد تكررت هذه الطريقة في كلام بني إسرائيل عدة مرات.. حتى إنهم قالوا كما يروي لنا القرآن الكريم:

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤].

ولقد استمر الحوار بينهم وبين موسى فترة طويلة.. يوجهون السؤال لموسى فيدعو الله فيأتيه الجواب من الله تبارك وتعالى.. فبدلاً من أن ينفذوا الأمر وتنتهي المسألة يوجهون سؤالاً آخر.. فيدعو موسى ربه فيأتيه الجواب، ويؤدي الجواب إلى سؤال في غير محله منهم.. ثم يقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم أسباب الجدل.. بأن يعطيهم أوصافًا لبقرة لا تنطبق إلا على بقرة واحدة فقط.. فكأنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم..

نأتي إلى أسئلة بني إسرائيل.. يقول الحق سبحانه وتعالى: «قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي».. سؤال لا معنى له ولا محل.. لأن الله تبارك وتعالى قال لهم إنها بقرة.. ولم يقل مثلاً إنها حيوان على إطلاقه فلم يكن هناك محل للسؤال.. فجاء الحق تبارك وتعالى يقول لهم: «إنها بقرة لا فارض ولا بكر».. الفارض في اللغة هو الواسع والمراد به بقرة غير مسنة.. ولكن ما العلاقة بين سن البقرة وبين الواسع؟ البقرة تتعرض للحمل كثيراً وأساسًا هي للبن وللإنجاب.. وما دامت قد تعرضت للحمل كثيراً يكون مكان اللبن فيها في

اتساع.. أي إن بطنها تزداد اتساعًا مع كل حمل جديد.. وعندما تكون البقرة بطنها واسعة يعرف عنها أنها مسنة وولدت كثيرًا وصارت فارضًا.

وكلمة «بكر» لها معان متعددة منها أنه لم يطأها فحل.. ومنها أنها بكر ولدت مرة واحدة.. ومنها أنها ولدت مرارًا ولكن لم يظهر ذلك عليها لأنها صغيرة السن..

وقوله تعالى: «عوان بين ذلك».. يعني وسط بين هذه الأوصاف كلها.. الحق بعد ذلك يقرعهم فيقول: «فافعلوا ما تؤمرون».. يعني كفاكم مجادلة ونفذوا أمر الله واذبحوا البقرة.. ولكنهم لم يسكنوا أنهم يريدون أن يحاوروا.. ولذلك غيروا صيغة السؤال.

﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾

بحثوا عن سؤال آخر ما هو لونها؟ كأن الله تبارك وتعالى حين حدثهم عن السن فتحوا الأبواب ليسألوا ما لونها؟ مع أنه سبحانه وتعالى قال لهم: ﴿فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ﴾. فلم يفعلوا بل سألوا ما لونها؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾ والصفرة لون من الألوان.. ثم قال جل جلاله: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾.. يعني صفرة شديدة.. ثم قال: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾.. يعني أن كل من ينظر إليها يُسر لنضارتها ونظافتها وحسن مظهرها وتناسق جسدها.

وصف البقرة بأنها صفراء هذا لون معروف.. وفي الألوان لا يمكن أن تحدد لونًا إلا برؤيته.. ولذلك فإن المحسات في الألوان لابد أن تسبق معرفتها وبعد ذلك تأتي باللون المطلوب.. لذلك لا يقال صفراء فقط لأنك لا تستطيع تحديده.. لأن اللون الأصفر له درجات لا نهاية لها.. ومزج الألوان يعطيك عددًا لا نهائيًا من درجاتها.. ولذلك فإن المشتغلين بدهان المنازل لا يستطيعون

أن يقوموا بدهان شقة بلون إلا إذا قام بعمل مزيج اللون كله مرة واحدة.. حتى يخرج الدهان كله بدرجة واحدة من اللون.. ولكن إذا طلبت منه أن يدهن الشقة بنفس اللون.. بشرط أن يدهن حجرة واحدة كل يوم فإنه لا يستطيع.. فإذا سمعت صفراء يأتي اللون الأصفر إلى ذهنك.. فإذا سمعت فاقع فكل لون من الألوان له وصف يناسبه يعطينا دقة اللون المطلوب.. فاقع أي شديد الصفرة..

أظن إن المسألة قد أصبحت واضحة .. إنها بقرة لونها أصفر فاقع تسر الناظرين.. وكان من المفروض أن يكتفي بنو إسرائيل بذلك ولكنهم عادوا إلى السؤال مرة أخرى.

﴿ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾.

ورغم أن ما قيل لبني إسرائيل.. واضح تمام الوضوح عن البقرة.. وعمرها وشكلها ولونها ومنظرها.. فإن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤدبهم فجعلهم ينظرون إلى البقر.. وهذا يقول هذه هي والآخر يقول لا بل هي في مكان كذا.. والثالث يقول لا بل هي في موقع كذا.. وعادوا إلى موسى يسألونه أن يعود إلى ربه ليبين لهم لأن البقر تشابه عليهم.. وهنا ذكروا الله الذي نسوه ولم ينفذوا أمره منذ أن قال لهم اذبحوا بقرة ثم قال لهم: ﴿ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ ﴾... فطلبوا منه الهداية بعد أن تاهوا وضاعوا بسبب عنادهم وجدلهم.. وجاء الجواب من الله سبحانه وتعالى:

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾.

﴿ بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ ﴾.. البقرة الذلول هي البقرة المروضة المرنة تؤدي مهمتها بلا تعب.. تمامًا مثل الخيل المروضة التي لا تتعب راكبها لأنها تم ترويضها..

وسيدنا إسماعيل هو أول من روض الخيل وساسها. . وقال الله سبحانه وتعالى لهم أول وصف للبقرة أنها ليست مروضة . . لا أحد قادها ولا قامت بعمل . . إنها انطلقت على طبيعتها وعلى سجيتها في الحقول بدون قائد . . ﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ أي لم تستخدم في حراثة الأرض أو فلاحتها. ﴿وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ﴾. . أي لم تستخدم في إدارة السواقي لسقية الزرع . . ﴿مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾ أي خالية من العيوب لا أذنها مثقوبة. ولا فيها أي علامة من العلامات التي يميز الناس أبقارهم بها. . ولا رجلها عرجاء، خالية من البقع والألوان غير اللون الأصفر الفاقع. . وكلمة ﴿لاشِيَةَ فِيهَا﴾. . أي لا شيء فيها.

والمتأمل في وصف البقرة كما جاء في الآيات يرى الصعوبة والتشدد في اختيار أوصافها. . كأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يجازيهم على أعمالهم. . ولم يجد بنو إسرائيل إلا بقرة واحدة تنطبق عليها هذه المواصفات فقالوا ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ كأن ما قاله موسى قبل ذلك كان خارجًا عن نطاق الحق. وذبحوا البقرة ولكن عن كره منهم. . لأنهم كانوا حريصين على ألا يذبحوها، حرصهم على عدم تنفيذ المنهج. هم يريدون أن يماطلوا الله سبحانه وتعالى . . والله يقول لنا أن سمة المؤمنين أن يسارعوا إلى تنفيذ تكاليفه. . واقرأ قوله تعالى:

﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] .

وهذه السرعة من المؤمنين في تنفيذ التكاليف. . دليل على عشق التكليف. . لأنك تسارع لتفعل ما يطلبه منك من تحبه. . وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾. . يدلنا على أنهم حاولوا الإبطاء في التنفيذ والتلكؤ.

إننا لابد أن نلتفت إلى أن تباطؤ بني إسرائيل في التنفيذ خدم قضية إيمانية أخرى. . فالبقرة التي طلبها الله منهم بسبب عدم قيامهم بتنفيذ الأمر فور صدوره لهم بقرة نادرة لا تتكرر. . والمواصفات التي أعطيت لهم في النهاية . .

لم تكن تنطبق إلا على بقرة واحدة ليتحكم صاحبها في ثمنها ويبيعها بأغلى الأسعار . .

والقصة أنه كان هناك في بني إسرائيل رجل صالح . . يتحرى الحلال في الرزق والصدق في القول والإيمان الحقيقي بالله . وعندما حضرته الوفاة كان عنده عجلة وكان له زوجة وابنهما الصغير . . ماذا يفعل وهو لا يملك سوى العجلة .

اتجه إلى الله وقال: اللهم إني استودعك هذه العجلة لولدي، ثم أطلقها في المراعي . . لم يوص عليها أحدًا ولكن استودعها الله . استودعها يد الله الأمينة على كل شيء . . ثم قال لامرأته إني لا أملك إلا هذه العجلة ولا آمن عليها إلا الله . . ولقد اطلقتها في المراعي . .

وعندما كبر الولد قالت له أمه: إن أباك قد ترك لك وديعة عند الله وهي عجلة . . فقال يا أمي وأين أجدها؟ . . قالت كن كأبيك هو توكل واستودع، وأنت توكل واسترد . . فقال الولد: اللهم رب إبراهيم ورب موسى . . رد إلى ما استودعه أبي عندك . . فإذا بالعجلة تأتي إليه وقد أصبحت بقرة فأخذها ليريها لأمه . . وبينما هو سائر رآه بنو إسرائيل. فقالوا إن هذه البقرة هي التي طلبها الرب . . وذهبوا إلى صاحب البقرة وطلبوا شراءها فقال بكم . . قالوا بثلاثة دنانير . . فذهب ليستشير أمه فخافوا أن ترفض وعرضوا عليه ستة دنانير . . قالت أمه لا . . لا تباع . . فقال الابن لن أبيعها إلا بملء جلدها ذهبًا، فدفعوا له ما أراد . . وهكذا نجد صلاح الأب يجعل الله حفيظًا على أولاده يرعاهم وييسر لهم أمورهم.

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

قصة القتيل هي أن رجلاً ثريًا من بني إسرائيل لم يكن له ولد يرثه . . وكان له أقارب كل منهم يريد أن يستأثر بأموال هذا الرجل . . والمال والذهب هما

حياة بني إسرائيل.. فتآمر على هذا الرجل الثري ابن أخيه فقتله ليرثه ويستولي على أمواله.. ولكنه أراد أن يبعد التهمة عن نفسه فحمل الجثة وألقاها على باب قرية مجاورة ليتهم أهلها بقتل الثري.. وفي الصباح قام أهل القرية ووجدوا جثة الثري أمام قريتهم.. ووجدوه غريبًا عن القرية فسألوا من هو؟ حتى وصلوا إلى ابن أخيه.. فتجمع أهل القتيل واتهموهم بقتله.. وكان أشدهم تحمسًا في الاتهام القاتل ابن أخيه.

وقوله تعالى ﴿ادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ الدرأ هو الشيء حين يجيء إليك وكل واحد ينفيه عن نفسه.. إدارأتم أي أن كلاً منكم يريد أن يدفع الجريمة عن نفسه فكل واحد يقول لست أنا..

وليس من الضروري أن يتهم أحدًا آخر غيره.. المهم أن يدفعها عن نفسه.

ولقد حاول أهل القريتين.. قرية القتيل، والقرية التي وجدت أمامها الجثة. أن يدفع كل منهما شبهة الجريمة عن نفسه وربما يتهم بها الآخر.. ولم يكن هناك دليل دامغ يرجح اتهامًا محددًا. بل كانت الأدلة ضائعة ولذلك استحال توجيه اتهام لشخص دون آخر أو لقرية دون أخرى.

وكان التشريع في ذلك الوقت ينص على أنه إذا وجد قتيل على باب قرية ولم يستدل على قاتله.. فإن قرية القتيل وأهله يأخذون خمسين رجلاً من أعيان القرية التي وجدت بجوارها الجثة.. فيلقوا اليمين بأنهم ما قتلوه.. ولا علموا قاتله.. وإذا كان الأعيان والأكابر أقل من خمسين رجلاً. تكررت الأيمان حتى تصير خمسين يمينًا.. فيحلفون أنهم ما قتلوه ولا يعرفون قاتله.. عندها يتحمل بيت المال دية القتيل..

ولكن الله كان يريد شيئًا آخر.. يريد أن يرد بهذه الجريمة على جحود بني إسرائيل باليوم الآخر.. ويجعل الميت يقف أمامهم وينطق اسم قاتله..

ويجعلهم يرون البعث وهم أحياء. ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. أي إن بني إسرائيل أو أولئك الذين ارتكبوا الجريمة دبروها على أن تبقى في طي الكتمان فلا يعلم أحد عنها شيئًا.. ولذلك جاء الشاب وقتل عمه دون أن يراه أحد .. ثم حمل الجثة خفية في ظلام الليل وخرج بها فلم يلتفت أحد إليه.. ثم ذهب إلى قرية مجاورة وألقى بالجثة على باب القرية وأهلها نائمون وانصرف عائدًا.

كانت كل هذه الخطوات في رأيه ستجعل الجريمة غامضة لا تنكشف أبدًا ولا يعرف سرها أحد. ولكن الله تبارك وتعالى أراد غير ذلك.. أراد أن يكشف الجريمة بطريقة لا تحتمل الجدل، وفي نفس الوقت يرد على جحود بني إسرائيل للبعث.. بأن يريهم البعث وهم أحياء.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

احتدم الخلاف بين بني إسرائيل وكادت تحدث فتنة كبيرة.. فقرروا أن يلجأوا إلى موسى عليه السلام ليطلب من الله تبارك وتعالى أن يكشف لهم لغز هذه الجريمة ويدلهم على القاتل.. وجاء الأمر من الله سبحانه وتعالى أن اذبحوا البقرة ولو ذبحوا بقرة أية بقرة لانتهت المشكلة.. ولكنهم ظلوا يقولون ما لونها وما شكلها إلى آخر ما رويناه.. حتى وصلوا إلى البقرة التي كان قد استودعها الرجل الصالح عند الله حتى يكبر ابنه فاشتروها وذبحوها.. فأمرهم الله أن يضربوه ببعضها. أي أن يضربوا القتيل بجزء من البقرة المذبوحة بعد أن سال دمها وماتت.

وانظر إلى العظمة في القصة، جزء من ميت يُضرب به ميت فيحيا.. إذن المسألة أعدها الحق بصورة لا تجعلهم يشكون أبدًا.. فلو أن الله أحياه بدون أن يضرب بجزء من البقرة. لقالوا لم يكن قد مات، كانت فيه حياة ثم أفاق بعد

إغمـاءه . ولكن الله أمرهـم أن يذبحوا بقـرة حتى تموت ليعطيـهم درسًا إيمانيًا بقـدرة الله وهم الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالماديـات. . وأن يأخذوا جـزءًا أو أجزاء منهـا وأن يضربـوا بـه الـقتيل فـيحـيا وينطق باسم قـاتله ويميتـه الله بعد ذلك. .

يقول الحق جل جلاله. . ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ليرى بنو إسرائيل وهم على قيد الحياة كيف يحيى الله الموتى وليعرفوا أن الإنسان لا يـبقى حيًّـا بأسبـاب الحياة. . ولكن بـإرادة مُسبب الحـياة في أن يقول: «كن فيكون» ا. هـ

هذا، ومما ينفع الأولاد: تقوى الوالدين وصدق حديثهم:

قال الحق - سبحانه -:

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴾(1).

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله تعالى-:

والإنسان حين يتـرك ذرية ضعيـفة يتركـها وهو خائـف عليهم أن يضيـعهم الزمان.

فإن كـان عندك أيها المؤمن ذرية ضـعيفـة وتخاف عليـها فسـاعة ترى ذرية ضعـيفة تركـها غيـرك فلتعطف عليهـا، وذلك حتى يعطف الغـير على ذريتك الضعيفة إن تركتها. واعلم أن ربنا رقـيب وقيوم ولا يترك الخير الذي فعلته دون أن يرده إلى ذريتك. وقلنا ذات مرة: إن معـاوية وعمرو بن العاص اجتـمعا في أواخر حياتهما، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين ماذا بقى لك من حظ الدنيا؟ وكان معـاوية قد صار أميرًا للمؤمنين ورئيس دولة قـوية غنية، فقال

---

(1) [النساء: ٩].

معاوية: أما الطعام فقد مللت أطيبه، وأما اللباس فقد سئمت ألينه، وحظى الآن في شربة ماء بارد في ظل شجرة في يوم صائف.

وصمت معاوية قليلاً وسأل عمراً: وأنت يا عمرو ماذا بقى لك من متع الدنيا؟.

وكان سيدنا عمرو بن العاص صاحب عبقرية تجارية فقال: أنا حظى عين خرارة في أرض خوارة تدر على حياتي ولولدي بعد مماتي.

إنه يطلب عين ماء مستمر في أرض فيها أنعام وزروع تعطي الخير.

وكان هناك خادم يخدمهما، يقدم لهما المشروبات، فنظر معاوية إلى الخادم وأحب أن يداعبه ليشركه معهما في الحديث.

فقال للخادم: وأنت يا «وردان» ماذا بقى لك من متاع الدنيا؟ أجاب الخادم: بقى لي من متع الدنيا يا أمير المؤمنين صنيعة معروف أضعها في أعناق قومٍ كرام لا يؤدونها إلى طول حياتي حتى تكون لعقبى في عقبهم. لقد فهم الخادم عن الله قوله:

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ [النساء: ٩].

فالذين يتقون الله في الذرية الضعيفة يضمنون أن الله سيرزقهم بمن يتقي الله في ذريتهم الضعيفة.

* * *

دور المرأة المسلمة في المجتمع

قال الشيخ الشعراوي - رحمه الله -:

المرأة: تمثل النوع الثاني للجنس الإنساني، فالجنس لفظ عام، وبعد ذلك ينقسم اللفظ العام إلى مدلولين: الرجل والمرأة. إذن فالرجل نوع من الجنس والمرأة نوع من الجنس، وما دام الجنس- يشملهما، أي يشمل الرجل والمرأة، فلابد من وجود خصائص مشتركة يشترك فيها الرجل والمرأة شركة لا تمييز فيها. وإذا انقسم الجنس إلى نوعين، أي إلى رجل وامرأة، فلا بد أن توجد سمات أو يوجد مجال للرجل، وأن يوجد مجال للمرأة. ولو كان المجال واحدًا، لاكتفى الحق بأن يجعل الجنس واحدًا، ولكنه- سبحانه- حين قسم الجنس إلى نوعين، أشار بذلك إلى أن الجنس يجمع بينهما بخصائصه وأوصافه ومتطلباته، وأن النوع يفرق بينهما في الخصائص والمرادات والمتطلبات. فمن يريد أن يجعل الرجل والمرأة مجرد أفراد للجنس بدون انقسام إلى نوع، فقد أحال فيما خلق الله.

ومن أراد أن يعزل الرجل عن نوع المرأة في متطلباتها وفي خصوصياتها مطلقًا، دون أن يوجد قدرًا مشتركًا بينهما، فقد أحال فيما خلق الله . إذن فلابد أن نقبل حكم الله بجمع الرجل مع المرأة في جنس، ثم نقبل حكم الله أيضًا في تفريق النوع إلى رجل وامرأة، فما هي هذه السمات المشتركة في الجنس بين الرجل والمرأة؟

السمات المشتركة: الكرامة الإنسانية أولاً، وأصل الخلقة ثانيًا.

أما الكرامة الإنسانية، فلأن الحق سبحانه وتعالى جعل المرأة مسئولة في الحياة، وجعلها مجزاة على عملها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. ثم جمع بينهما أيضًا فيما يسمى طبيعة التكون. أي إن الله لم يخلق الرجل من جوهر خاص.

ويخلق المرأة من جوهر خاص، وإنما خلقهما معًا من جوهر واحد إذن فلا تميز في طبيعة التكوين للرجل عن المرأة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء﴾[1].

إذن فأصل التكون الطبيعي للرجل والمرأة سواء، فلم يخلق الرجل من جوهر والمرأة من جوهر آخر وإنما خلقنا جميعًا من جوهر واحد هو التراب والطين والصلصال، إذن فلا وجه أن يتميز الرجل على المرأة. أو تتميز المرأة على الرجل في طبيعة التكوين الأصلي، وبعد ذلك ننظر لنقارن بين وجهة نظر الإسلام في طبيعة المرأة وطبيعة الرجل، وبين ما تقوله المذاهب الأخرى وضعية أو دينية.

الإسلام يقول: خلقناكم جميعًا من طين، ولكن المذاهب الحديثة أو الديانات القديمة كانت تنظر إلى أن المرأة خلقت من طبيعة وضيعة عن طبيعة الرجل. أي إن الرجل خلق من عنصر مكرم، والمرأة من عنصر وضيع. إذن فالإسلام أول ما كرم المرأة وجعلها متحدة مع الرجل في أصل الطبيعة، وبعد ذلك ننظر إلى مذاهب أخرى، ترى أن المرأة خلقت من رجس، أو أن المرأة خلقت من عمل الشيطان أو إله الشر. فكأن إله الخير خلق الرجل، وإله الشر خلق المرأة.

فالإسلام يقول: لا . الإله واحد، والخالق واحد والطبيعة الكونية واحدة، وبعد ذلك ارتقى بالمرأة إلى أن جعلها مثل الرجل تمامًا، وعاء للإنسان البشري، لأنها تشترك مع الرجل حتى في ميلاد الرجل نفسه. ولو أن الرجل من طبيعة خاصة والمرأة من طبيعة خاصة، لكان مقتضى ذلك أن يخلق الرجل من شيء، ثم يوجد هو صنف الرجال، وأن تخلق المرأة من شيء، ثم توجد هي صنف النساء، ولكن المشاهد أن الرجل والمرأة بالميلاد يلتقيان عندما يوجدان أيضًا من رجل وامرأة

---

(١) [النساء: ١].

إذن فهما الأداتان، أو هما العنصران المتعاونان المتكافلان على إنجاب الجنس الإنساني رجلاً كان أو امرأة، وبعد ذلك يضح الحق - سبحانه وتعالى- ميزانًا للجنس كله مجتمعًا في الرجل والمرأة هو وحدتهما في المسئولية، ووحدتهما في العمل المطلق، فيقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

إذن فالمرأة مثل الرجل تمامًا، كما أنها مثله أيضًا في الكرامة الإنسانية وفي المسئولية وتوقيع الجزاء ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾[2].

إذن فالمرأة مثل الرجل تمامًا في أنها مسئولة عن عملها الذي أنيط بها ومجزاة عليه إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر. ثم بعد ذلك جاء الإسلام لينظر في حقوق المرأة المدنية، ومعنى الحقوق المدنية: تصرفات المرأة، ومعنى التصرفات: أن تبيع وأن تشتري، أن تملك وأن تؤجر وأن ترهن، أن تتصرف في ملكها بأي تصرف، ملكها الذي يؤول إليها بالميراث أو الهبة. فما موقف الإسلام منها؟ أما موقف الديانات الأخرى أو المذاهب الوضعية، فإذا نظرنا إلى الديانة اليهودية- مثلاً- فإنها تجعل المرأة تابعة لأبيها أو لولي أمرها قبل أن تتزوج فلا تتصرف إلا به، هو الذي يتصرف يبيع لها ويؤجر لها، ويملك ويرهن فلا تصرف لها أبدًا ما دامت ولايتها له. فإذا ما انتقلت ولايتها إلى زوجها انتقلت الحقوق إلى الزوج بدون أي حق للمرأة في أي تصرف من التصرفات حتى إن بعض هذه القوانين جعلت لولي أمرها من أب أو ولي أمر أو زوج بعد أن تتزوج حق الحياة لها أو حق الموت إن شاء أحياها وإن شاء أبقاها، وأظنكم تعلمون ما كان يصيب المرأة حين توأد وهي حية.

(١) [النحل: ٩٧].

(٢) [الأنبياء: ٩٤].

وأيضًا يجعل لولي أمرها أن يبيعها ليأخذ ثمنها ليفرج عن نفسه كربة مالية. إذن فالمرأة عندهم مجرد متاع لا كرامة لها ولا وزن ولا قيمة ولا حرية لها في أي تصرف من التصرفات.

أما الإسلام فجاء ليعطي المرأة حقها الطبيعي في الحياة وأحقيتها في التصرف، فلها أن تبيع ما شاءت، ولها أن تملك، ولها أن تهب، ولها أن ترهن ولماذا نذهب بعيدًا؟.. إن الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية، لم تخرج عما قالته اليهودية أيضًا في أن المرأة ليس لها حرية التصرف في أي شيء من الأشياء وما بالنا نذهب بعيدًا إلى الحضارة اليونانية أو الحضارة الرومانية فلننظر إلى فرنسا أم الحرية الآن: فرنسا في القرن السابع عشر، ماذا كان موقفها؟ إنها نصت في قانونها ٢١٧، في الدستور الذي تسير عليه: إن المرأة إذا تزوجت فليس لها أن تتصرف في شيء من ملكها ولو اشترطت ذلك التصرف عند العقد أي عند الزواج، فلا أن يكون زوجها هو المتصرف فبعد أن كان الحجر لها من أبيها أو وليها، أصبح الحجر لها من زوجها. ولو اشترطت ساعة العقد أو ساعة الزواج أن تكون حرة التصرف في مالها، ارجعوا إلى المادة ٢١٧ من القانون الفرنسي.

ولماذا أيضًا نذهب بعيدًا؟ في القرن التاسع عشر، عندما أراد بعض الناس أن يعطوا المرأة بعضًا من الحقوق ولو بسيطة، ماذا كان موقف الفلاسفة والشعراء؟ إنهم وقفوا في وجه «فينلور» الفيلسوف وتندروا عليه واستهزأوا به، وقالوا إن هذا يريد أن يعطي المرأة فوق حقوقها، ويريد أن يسلم كيان التصرفات لها والطبيعة لم تزودها بأي استعداد عقلي، وقامت الضجة كما قامت الضجة أيضًا على «أفلاطون».

«سقراط» حينما نادى وقال: إن الطبيعة لم تهب المرأة أي استعداد عقلي ولذلك ليس لها إلا أن تعرف شأن الأمومة وشأن الحضانة وشأن تدبير المنزل وبعد ذلك يجب أن تعزل عن بقية التصرفات.

أما «أفلاطون» فكان يرى في مدينته الفاضلة أن تعطي المرأة بعض الحقوق التي من حقها، فكان يقول: لماذا تجعلون التعليم خاصًا بالرجال ولا بالرجال، مطلقًا، بل بالرجال الأحرار؟ يريد أن يعطيها أيضًا للمرأة. فماذا كان الموقف؟ أفلاطون الفيلسوف صاحب الجمهورية، صاحب المدينة الفاضلة التي وضعها نموذج الإنسان ماذا كان الموقف من الفلاسفة آنذاك؟

قام «أرستوفان»- وأرستوفان هذا هو أمير الشعراء آنذاك- بوضع تمثيلية هزلية على أفلاطون يتندر بها على المرأة، حينما تعطي هذه حقوق وبعد ذلك وضع الرواية أو التمثيلية بعنوان «برلمان النساء» ووضع القصة على البرلمان النسائي، وبعد ذلك تهكم بوضع المرأة، وتهكم بتصرفات المرأة.

وأيضًا يحدثنا التاريخ ولكم أن ترجعوا إلى تاريخ وفيات الأعيان لابن خلكان - ماذا يقول؟ . يقول ابن خلكان: إنه كان في مصر واحدة اسمها «نفيسة» ونفيسة هذه من سلالة أهل النبي ﷺ، عالمة، وكان مجلسها في العلم يؤمه العلماء، ويؤمه الشعراء، ويؤمه من يريدون طلب الحديث، والشافعي ﷺ وهو الإمام المجتهد العظيم، كان يذهب إلى مجلسها ليتعلم منها الحديث.

وأيضًا يحكى أن أبا حيان، وأبو حيان هذا علم من أعلام الإسلام يحكى عن أبي حيان نفسه أنه قال: إن لي من الأساتذة ليس فقط من الرجال بل لي من الأساتذة نساء قد تتلمذت عليهن منهن مؤنسة الأيوبية بنت السلطان عادل، أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي وشافية التيمية وزينب البغدادية بنت الطبيب عبد اللطيف البغدادي، كل هؤلاء الثلاث كن أستاذات لأبي حيان، وهو علم من أعلام الإسلام وعلم من أعلام التاريخ.

إذن فالإسلام يقف من هذه المسألة موقفًا يفرض فيه على المرأة أن تتعلم أيضًا. حينما يعرض الإسلام موقع المرأة من الوجود كله يقول فيها إنها في الحق مهيأة لأداء مهمات ثلاث: المهمة الأولى أنها خلقت لتكون سكنًا للرجل ومعنى

السكن هو الراحة، هو الطمأنينة ومعنى الراحة والطمأنينة أن الرجل الذي يجهد في الحياة تعبًا وبحثًا عن الرزق وضربًا في الأرض، يجب حين يرجع إلى بيته أن يجد مصدرًا من مصادر الحنان والعطف والرقة، هي زوجته لتمسح ببسمة منها عناء يومه، وتذهب عنه كسافة باله مما يلقي في المجتمع فإذا ما وجد نظرة حانية، وبسمة رحيمة وكلمة رضية استطاع أن ينفض عن نفسه كل أعباء الجهاد الذي كان يقاسيه ساعة كان خارج المنزل، وبعد ذلك يستأنف في الغد نشاطه في قوة وفي سعادة وفي سرور. ومعنى أنها سكن ومعنى سكن تصرف عندما تقول: إن فلانًا له سكن- إلى مكان خاص يرتاح فيه الإنسان ويخلع فيه مثلاً ملابسه، ويكون فيه بحريته فالراحة التي فقدها في الخارج لأنه متحفظ في ملابسه وفي مشيته وفي كلامه، يجد بيتًا له خاصًا مستقلاً يستريح ويلبس بذلته أي اللباس الذي يخرج فيه في الشارع فأخذت المرأة لتكون سكنًا أي محل الراحة له.

هذه هي المهمة الأولى كما يقولها الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾[1].

إذن فالسكن إلى المرأة أول مهمة للمرأة في الحياة، وبعد ذلك قال ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فالمرأة إذن هي مصدر المودة وهي مصدر الرحمة إذن فعليها حين يكون زوجها خارج المنزل أن تعد له برنامجًا وتظهر فيه المودة له، وتظهر فيه الرحمة له أي أن تعيش فيما تعده له لتستقبله به.

وبعد ذلك جاءت المهمة الثالثة: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾[2]. إذن فها هي مهمة أيضًا وهي أن ترعى أولادها، وأن تدير شئون بيتها. ولكن: هل تدبير شئون البيت والمودة والرحمة يتطلب جاهلة، أم يتطلب امرأة عالمة بحق الزوج، وواجب البيت

(١) [الروم: ٢١].
(٢) [النحل: ٧٢].

وواجب تربيـة الأولاد؟ وتربية الأولاد أمـر يتطلب من المرأة أن تكون مـجمـعًا علمـيًّا، لأنها لابـد أن تعرف القراءة والـكتابة لتـعين وليدها على مـهمـته في واجباته المنزلية وأيضًا يجب عليهـا أن تكون عارفة بقواعد الدين حتى تغرس في نفسه خـصائص الدين قبل أن يكبر لأنه إذا كبر وصـارت له شخصية استـقلالية أصبحت له آراء وربما تكون شاذة.

فإذا ما حكمت نفسه أولاً وهو صغيـر بالمبادئ يتلقاها، وبالسلوك يتعلم فيه، فإن ذلك يهون المهـمة ويجعلها سهلة على المدرسـة وعلى المجتمع وعلى الأب. إذن فالمرأة بهذه الخصائص مطلوب منها مهمـة. مهمتها أن تكون كما أرادها الله. أرادها الله إنسانًا، فلها حقوق الإنسان، ولذلك نجد أن القرآن الكريم يعرض علينا أن المرأة لها حـرية أن تعتـقد ما تشـاء، ويضرب القرآن لنـا مثلاً رائعًـا في امرأة فـرعون الذي ادعى الألوهيـة، ومعنى ادعـاء الألوهيـة: أنه استـخف كل الناس رجالاً ونسـاءً استـخف عقولهـم، وادعى أنه إله بجبروت الآله، وعـظمة الآله، وسـيطرة الآله، ولكن امرأتـه «آسيـا» كمـا يقـولون: «لم تأكل من هذا الكلام» وظلت بعقيدتها الحرة صافية للتوحيد، ولم تستمع له، ولم يقدر على أن يرغمها على أن تعتـقد فيه الألوهـية. فماذا قـال القرآن في ذلك؟ ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾(١)، موقف لم يقفه إلا رجل واحد وهو مؤمن من آل فـرعون، فمن الرجـولة أن يقف في وجه فـرعون ولكنه يقف بلباقة أما هذه فتقف موقفًا صارمًا لا هوادة فيه فتقول: ﴿**رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**﴾ لفتت الناس، ولفتت نفـسها، ولفتت زوجها إلى أن ألوهيـته كاذبة، والجنة في الآخرة لا يملكها إلا الله ولذلك فأنا لـم أطلبها منك دائمًا أطلب الجنة من الله ﴿**رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ**﴾(٢). كان

---

(١) [التحريم: ١١].

(٢) [التحريم: ١١].

يكفي أن تقول هذا ويكون ذلك تعريضًا بموقف فرعون ولكنها خصته أيضًا ﴿ونجني من فرعون وعمله﴾ وهي لا تطلب النجاة من فرعون وعمله إلا إذا كان فرعون وعمله عملاً خاسراً، وعملاً ظالمًا وعملاً كافراً.

ذلك هو موقف المرأة كيف وقفت في وجه طغيان فرعون وكيف سلمت بعقيدتها، ولم يستطع الرجل بما أوتي من قوة وسلطان قهر بهما الرجال جميعًا، لم يستطع أن يقهر امرأة تحت قوته، وتحت سلطته وتحت إمرته في بيته، ذلك هو موقف المرأة.

وأيضًا يعرض التاريخ لنا مثلاً من الأمثلة الرائعة في أن المرأة لها بعد أن تقف لعقيدتها ما تشاء، وهو أنها من الممكن أن تشير على الرجل مشورة مجدية، مشورة نافعة تخرج الرجل من أزمته ومن ورطته برأي سديد ومشورة جيدة- ماذا عرض لنا الإسلام؟ ومع من عرض؟ عرض من امرأة مسلمة ومع من؟ مع محمد رسول الله ﷺ الذي أرسله الله ليكمل الناس صلتهم بالله، ويكمل للناس دينهم ومع ذلك فامرأة وقفت منه هذا الموقف.

هذه هي أم سلمة ورسول الله ﷺ حينما اشتاق هو وأصحابه إلى المدينة بعد أن تركوا مكة وتركوا البيت فهم قد نووا أن يذهبوا إلى البيت ليعتمروا، فلما ذهبوا ليعتمروا على بعد عشرين كيلو متراً من مكة وقف الكفار ليصدوهم عن الذهاب للعمرة حصلت مفاوضات يدخلون أو لا يدخلون، وبعد ذلك انتهى الموقف إلى أن أقام رسول الله معهم معاهدة تنص على أن يرجع هذه السنة بدون دخول مكة، حتى لا يقال: إن المسلمين دخلوا مكة عنوة وقهراً عنها، فيكون عليهم العودة هذا العام على أن تقبل قريش في العام القادم بالدخول إلى البيت بأمرها، وفعلاً اقتنع رسول الله وأتم معهم العهد، لكن المسلمين حزنوا، فقالوا «يا رسول الله، كيف تقبل الدنية على ديننا لابد أن ندخل» يقول رسول الله ﷺ: «**أنا رسول الله**»، فيقولون: «**لا بد أن ندخل**» فيقول «**أنا رسول الله**»

فغضب الصحابة جميعًا، فكيف يقفون من الكفار هذا الموقف وخاصة أن من بنود الاتفاق أن من أسلم من الكفار وذهب إلى محمد، فعلى محمد أن يرجعه إلى الكفار، ومن كفر بمحمد، فليس عليهم أن يردوه، فعز على المسلمين هذا الشرط ولم يقبلوا، لكن رسول الله كان يتلقى أوامر ربه، وأوامر الرب قد تكون فوق مستوى إدراكهم، وربما لأن الإله لم يخبر الرسول بالسبب الأصيل، بما أنه قبل الهدنة أو قبل المعاهدة، وبعد ذلك ذهب رسول الله إلى خبائه وهو مهموم، فلقيته امرأته أم سلمة، فقال لها: «**يا أم سلمة هلك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا**». الرسول يتكلم ويقول لامرأته فلم يمتثلوا، فماذا يكون موقف امرأته من ذلك؟ لأن رسول الله ﷺ هو الذي قال . . . ولكنها أشارت بالرأي الجميل السليم. قالت: يا رسول الله إنهم جاءوا على أمل أن يدخلوا المسجد الحرام مقصرين، ثم منعوا وهم على بعد بسيط منه فهم مضطرون فاعذرهم يا رسول الله في هذا الموقف، ولكن اخرج فاعمل بما أمرك الله، فإذا ما رأوك قد فعلت، علموا أن الأمر عزيمة وجد لا هزل فيه، فيصنعون كما تصنع، وفعلاً استمع رسول الله إلى مشورة أم سلمة وخرج وصنع ما أمره الله به من الهدي والنحر، وبعد ذلك رأى المسلمين جميعًا رسول الله يفعل، فعلموا أن الأمر جد، ولم يتكلم رسول الله، فخرجوا كلهم، وفعلوا ما فعله رسول الله ﷺ وهدأت العاصفة وانتهت الزوبعة واستقر الأمر كما كان[1].

بموقف من؟

بموقف امرأة لها رأي سديد. وبعد ذلك قبل أن يذهبوا إلى المدينة، ينزل الله عليهم السبب في أنهم قبلوا ذلك وعادوا، وينزل عليهم السبب في أنهم إذا كان الكفار قد منعوهم، فلماذا يحاربون وينتصرون عليهم ويدخلون عنوة فيقول الله لهم: أنا لو أردت أن تدخلوا على الكفار وتقتلوهم لكنت فعلت لكن مع

---

(١) حديث صحيح: رواه البخاري وغيره.

الكفار في مكة أناسًا مسلمين، يكتمون إيمانهم لأنهم ضعاف وهم منتشرون في مكة وأنت لا تعرفونهم فإذا ما ذهبت للحرب فستكون مكة كلها في جانب وأنتم في جانب، فمن تلقونه ستقتلونه، فربما قتلتم أخًا مؤمنًا لكم، وأنتم لا تعلمون. ولذلك يقول: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

إذن الذي منعني، هو أن هناك مخالفة بين مؤمنين وبين كفار، وأنتم إذا دخلتم الحرب لن تميزوا، وإذا لم تميزوا فستقتلون أخًا مؤمنًا لكم، وبعد ذلك تحزنون، لهذه الحكمة قد منعتكم من القتال، ولكن الناس لم يتسع فهمهم إلى ما بين محمد ﷺ وربه.

ولذلك كانت المسألة في العصر الإسلامي الزاهر، أن الرجل لا يبت في أمر إلا حين يرى زوجه ويقول لها كذا وكذا، وبعد ذلك يأتي في كل شيء وهو الزواج فيقول عمر: آمروا النساء في بناتهن. أي أن الرجل لا يعقد الصفقة في بنته ويزوجها دون أن يكون لأمها رأى، فأمها هي الأنثى وهي التي تعلم روح ابنتها، وهي التي تعلم آمالها، وهي التي تفتح البنت أسرارها لها، إذن لابد أن تؤامرها فيمن تتزوج ابنتها، إذن فالمرأة أيضًا لها مشورة.

إن الخطأ كل الخطأ: أن يراد من المرأة، أو يراد لها، أن تأخذ موقفًا من المواقف لم تهيأ ولم تخلص له. لماذا؟ قالوا: لأن خصوم الإسلام الذين يكيدون له عجزوا عن قهره عسكريًا، وعجزوا عن قهرة سياسيًا، فماذا يصنعون؟ سلطوا المستشرقين والمفكرين ليسمموا الأفكار المسلمة بأفكار مسمومة

(١) [الفتح: ٢٥].

مستـوردة فوجدوا أن موضوع المرأة مـوضوع مهم جداً، لماذا؟ لأنهم قالوا: إننا جعلناها تـتمرد على دينهـا في المجتمع الإسـلامي، فإذا ما تمـردت على دينها، وأعطيناها شعـارات الحرية والكرامة، وذهبنا بها تنطلق في الشـوارع كما تحب، متزينة متبرجة، فسيؤدي بنا إلى أن ننجح في ثلاثة ميادين:

الميدان الأول: إننا سنشـغلها بالخارج فـتهمل أمر البـيت. وبذلك نكون قد كسبنا أن هناك روحًا ليست مسيطرة على روح تكوين أبنائها، ربما أسلمتها لخادم أو لخادمة، وهب أن الخادمة استطاعت أن تـقوم بمتطلبات الطفل كلها، أتستطيع الخادمة أن تـأخذ قلب أم، حنان أم، عاطفة أم، لا يمكن، إذن من هذه النـاحية تكون قـد نجحنا في مـيدان الـطفولة، وسلمنا الطـفل إلى من لا نثق في حبـه وحنانه وعطفه عليه.

الميدان الثاني: إذا خرجت متبرجة في الشارع، فما معنى ذلك؟ معنى ذلك: أنها ستبدي مفاتنها، وإذا أبدت مفاتنها فماذا يكون موقف المجتمع منها؟ موقف المجتـمع أنه سيتلفت. والمجـتمع مكون من: إما رجـال متزوجين أو شـبان لم يتزوجوا بعد، لأنهم لم يسلموا أنفسهم بعد من متطلبات الحياة أي إنهم ما زالوا يتعلمون ولم يجـدوا عملاً. وماذا يكون الموقف؟ إنه شـباب في دور المراهقة لا ينقصه إلا أن تلهب غـرائزه. حسبه ما فيـه. كان المطلوب أن نأتي بشيء يلطف غرائزه ويبردها، أما أن نأتي له في هذا السن بأشياء تلهب غرائزه وتهيجه فمعنى ذلك أننا نأتي بكرباج ونضـرب غرائزه وهو في حـاجة إلى أن نخـفف عنه هذه الغرائز، فـإذا ما رأى هؤلاء الفتيات، ورأى التـبرج والزينة، فقد جـاء عامل له على سلوكـه، وهو الآن لم ينتـه من أن يكون مـعـداً للحـياة، فـمـاذا يكون؟ سيحاول أن ينفس عن نفسه بأي شكل من الأشكال، وبذلك يتدنس المجتمع.

الميدان الثـالث: وأما أن يكون الرجـال متـزوجين، أي أن يكون الرجل في سن الأربعين ومـتـزوجًا امـرأة في سن أقل من سنـه عشـر سنوات، وبالحـمل

والولادة وشؤون البيت لا شك أن جمالها يذبل وبعد ذلك يترك واحدة في سن الأربعين أو الخامسة والأربعين ويخرج إلى الشارع فيجد فتاة في سن الرابعة عشرة وفي أكمل زينتها، وفي أنضر أنوثتها، فماذا يكون موقفه؟ لا شك أن المقارنة ستأتي بين ما يراه هنا وما يراه بالمنزل ويوجد أيضًا فساد . إذن فالإسلام حينما أراد حجابًا للمرأة وسترًا، أراد أيضًا أن يؤمن حياتها، لماذا؟ لأنه حين يمنع التبرج والزينة في الشارع يجعل المرء لا يعرف إلا وجه امرأته، ولا يصنع مقارنة بين جمال هنا في الشارع وبين جمال هناك، لا يصنع مقارنة بين شابة لا تزال في نضارة حياتها، وامرأة تغضن وجهها، وتكسر جبينها، وربما أبيض شعرها، لا يعقد هذه المقارنة، لأنه لا يرى شيئًا من ذلك.

إذن فالإسلام رحيم بالمرأة، لأنه يريد أن يؤمن لها حياتها، وإلا فلو تركها من سن الرابعة عشرة إلى سن العشرين تصنع ما شاءت، فساعة تكون هي في سن الأربعين وليست بها نضارة، وحينئذ يكون الفساد في المجتمع، والإسلام حين فعل ذلك، إنما يريد أن يؤمن حياتها.

❋ ❋ ❋

الغاية من الولد عند الصالحين

لم يطلب الأنبياء الصالحون الولد لذات الولد، ولكن لأمور:

الأول: أن يكون عبداً لله وحده:

قال الحق سبحانه - حكاية عن امرأة عمران -:

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآيات:

وعندما تقرأ «إذ» فلتعلم أنها ظرف ويُقدر لها في اللغة «اذكر»، ويقال «إذ جئتك» أي «اذكر أني جئتك». وعندما يقول الحق: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ﴾ فبعض الناس من أهل الفتح والفهم يرون أن الحق سبحانه سميع عليم وقت أن قالت امرأة عمران: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي ﴾، وهم يحاولون أن يربطوا هذه الآية بما جاء قبلها، بأن الله سميع وعليم. ونقف عند قول امرأة عمران: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾.

إننا عندما نسمع كلمة «محرراً» فمعناها أنه غير مملوك لأحد فإذا قلنا:

(١) [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

«حررت العبد» يعني ينصرف دون قيد عليه. أو «حررت الكتاب» أصلحت ما فيه. إن تحرير أي أمر، هو إصلاح ما فيه من فساد أو إطلاقه من أي ارتباط أو قيد. أما قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ هو مناجاة لله، فما الدافع إلى هذه المناجاة لله؟

إن امرأة عمران موجودة في بيئة ترى الناس تعتز بأولادها، وأولاد الناس- كما نعلم- يحكمون حركة الناس، والناس تحكم حركة أولادهم، ويكد الناس من أجل أن يكون الأبناء عزوة، وقرة عين، ويتقدم المجتمع بذلك التواصل المادي، ولم تعجب امرأة عمران بذلك، لقد أرادت ما في بطنها محرراً من كل ذلك، إنها تريده محرراً منها، وهي محررة منه. وهذا يعني أنها ترغب في أن يكون ما في بطنها غير مرتبط بشيء أو بحب أو برعاية.

لماذا؟ لأن الإنسان مهما وصل إلى مرتبة اليقين، فإن المسائل التي تتصل بالناس وبه، تمر عليه، وتشغله، لذلك أرادت امرأة عمران أن يكون ما في بطنها محرراً من كل ذلك، وقد يقال: إن امرأة عمران إنما تتحكم بهذا النذر في ذات إنسانية كذاتها، ونرد على ذلك بما يلي:

لقد كانوا قديمًا عندما ينذرون ابنًا للبيت المقدس فهذا النذر يستمر ما دامت لهم الولاية عليه، ويظل كما أرادوا إلى أن يبلغ سن الرشد، وعند بلوغ سن الرشد فإن للابن أن يختار بين أن يظل كما أراد والداه أو أن يحيا حياته كما يريد.

إن بلوغ سن الرشد هو اعتراف بذاتية الإنسان في اتخاذ القرار المناسب لحياته، كانت امرأة عمران لا تريد مما في بطنها أن يكون قرة عين، أو أن يكون معها، إنها تريده محرراً لخدمة البيت المقدس، وكان يستلزم ذلك في التصور البشري أن يكون المولود ذكراً؛ لأن الذي كان يقوم بخدمة البيت هم الذكران.

ونحن نعرف أن كلـمة «الولد» يطلق أيضًا على البـنت، ولكن الاستعـمال الشائع، هو أن يطلق الناس كلمة «ولد» على الذكر. لكن معنى الولد لغويًّا هو المولود سواء أكان ذكرًا أم أنثى. وعندما نسـمع كلمة «نذر» فلنفهم أنها أمر أريد به الطاعة فوق تكليف المكلف من جنس ما كلفه به الله.

إن الله قد فـرض علينا خمس صلوات، فإذا نذر إنسـان أن يصلي عددًا من الركعات فوق ذلك، فإن الإنسان يكون قد ألزم نفسه بأمر أكثر مما ألزمه به الله، وهو من جنس ما كلف الله وهو الصـلاة. والله قد فرض صيام شهـر رمضان، فإذا ما نذر إنـسان أن يصوم يومي الاثنين والخمـيس أو صيام شهريـن فالإنسان حر، ولكنه يختار نذرًا من جنس مـا فرض الله من تكاليف،و هو الصيام. والله فـرض زكاة قـدرها باثنين ونصف بالمائة، ولكن الإنسـان قد ينذر فـوق ذلك، كمقدار عشرة بالمائة أو حتى خمسين بالمائة.

إن الإنسان حر، ولكنه يختـار نذرًا من جنس ما فرض الله من تكاليف، إن النذر هو زيادة عمـا كلف المكلف من جنس ما كلف سبحـانه. وكلمة «نذرت» من ضمن معـانيها هو أن امرأة عمران سـيدة تقية وورعة ولم تكن مـجبرة على النذر، ولكنها فعلت ذلك، وهو أمر زائد من أجل خدمة بيت الله.

والنذر كما نعلم يعبر عن عشق العبـد لتكاليف الله، فيلزم نفسه بالكثير من بعـضهـا. ودعت امرأة عـمران الله من بعـد ذلك بقبـول ذلك النذر فقـالت: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾. «والتقـبل» هو أخذ الشيء برضا؛ لأنك قـد تأخذ بكره، أو تأخذ على مضض، أما أن «تتقبل» فذلك يعني الأخـذ بقبول وبرضا. واستجابة لهذا الدعاء جاء قول الحق:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾[آل عمران: ٣٧].

ونلاحظ أن امرأة عمران قـالت في أول ما قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا

فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ولم تقل: «يا الله» وهذا لنعلم أن الرب هو المتولي التربية، فساعة ينادي «ربي» فالمفهوم فيها التربية. وساعة يُنادي بـ «الله» فالمفهوم فيها التكليف. إن «الله» نداء للمعبود الذي يطاع فيما يكلف به، أما «رب» فهو المتولي التربية.

قالت امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. هذا هو الدعاء، وهكذا كانت الاستجابة: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ وبعد ذلك تكلم الحق عن الأشياء التي تكون من جهة التربية، ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا .... وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾. كل ذلك متعلق بالتربية وبالربوبية، فساعة نادت امرأة عمران عرفت كيف تنادي ونذرت ما في بطنها. وبعد ذلك جاء الجواب من جنس ما دعت بقمة القبول وهو الأخذ برضا. ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

فالحسن هنا هو زيادة في الرضا، لأن كلمة «قبول» تعطينا معنى الأخذ بالرضا، وكلمة «حسن» توضح أن هناك زيادة في الرضا، وذلك مما يدل على أن الله قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا، و بشيء حسن، وهذا دليل على أن الناس ستلمح في تربيتها شيئًا فوق الرضا، إنه ليس قبولاً عاديًا، إنه قبول حسن. ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾. مما يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين نذرت ما في بطنها، ألا تربى ما في بطنها إلى العمر الذي يستطيع فيه المولود أن يخدم في بيت الله. ولكنها نذرت ما في بطنها من اللحظة الأولى للميلاد. إنها لن تتنعم بالمولود، ولذلك قال الحق: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، وزكريا هو زوج خالة السيدة مريم. وبعد دعاء امرأة عمران، يجيء القول الحكيم: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

لقد جاء هذا القول منها، لأنها كانت قد قالت: إنها نذرت ما في بطنها

محرراً لخدمة البيت، وقولها: ﴿ محرراً ﴾ تعني أنها أرادت ذكراً لخدمة البيت، لكن المولود جاء أنثى. فكأنها قد قالت: إن لم أُمكن من الوفاء بالنذر، فلأن قدرك سبق، لقد جاءت المولودة أنثى. لكن الحق يقول بعد ذلك: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ . وهذا يعني أنها لا تريد إخبار الله، ولكنها تريد أن تظهر التحسر، لأن الغاية من نذرها لم تتحقق وبعد ذلك يقول الحل: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى ﴾ ، فهل هذا من كلامها، أم من كلام الله؟

قد قالت: ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾ وقال الله: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى ﴾ .

إن الحق يقول لها: لا تظني أن الذكر الذي كنت تتمنينه سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى، إن هذه الأنثى لها شأن عظيم. أو أن القول من تمام كلامها: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾ ويكون قول الحق: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ هو جملة اعتراضية ويكون تمام كلامها ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى ﴾ . أي أنها قالت: يا رب إن الذكر ليس كالأنثى، إنها لا تصلح لخدمة البيت.

وليأخذ المؤمن المعنى الذي يحبه، وسنجد أن المعنى الأول فيه إشراق أكثر، إنه تصور أن الحق قد قال: أنت تريدين ذكراً بمفهومك في الوفاء بالنذر، وليكون في خدمة البيت، ولقد وهبت لك المولود أنثى، ولكني سأعطي فيها آية أكبر من خدمة البيت، وأنا أريد بالآية التي سأعطيها لهذه الأنثى مساندة عقائد، لا مجرد خدمة رقعة تقام فيها شعائر.

إنني سأجعل من هذه الآية مواصلة لمسيرة العقائد في الدنيا إلى أن تقوم الساعة ولأنني أنا الخالق، سأوجد في هذه الأنثى آية لا توجد في غيرها، وهي آية تثبت طلاقة قدرة الحق، ولقد قلت من قبل: إن طلاقة القدرة تختلف عن القدرة العادية، إن القدرة تخلق بأسباب، ولكن من أين الأسباب؟ إن الحق هو خالق الأسباب أيضاً.

إذن فما دام الخالق للأسباب أراد خلقًا بالأسباب فهذه إرادته. ولذلك أعطانا الحق القدرة على رؤية طلاقة قدرته؛ لأنها عقائد إيمانية، يجب أن تظل في بؤرة الشعور الإيماني، وعلى بال المؤمن دائمًا. لقد خلق الله بعضًا من الخلق بالأسباب كما خلقنا نحن، وجمهرة الخلق عن طريق التناسل بين أب وأم، أما خلق الحق لآدم عليه السلام فقد خلقه بلا أسباب. ونحن نعلم أن الشيء الدائر بين اثنين له قسمة عقلية ومنطقية، فما دام هناك أب وأم، ذكر وأنثى، فسيجيء منهما تكاثر..

إن الحق يقول:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وعندما يجتمع الزوجان، فهذه هي الصورة الكاملة، وهذه الأولى في القسمة المنطقية والتصور العقلي، وإما أن ينعدم الزوجان فهذه هي الثانية في القسمة المنطقية والتصور العقلي. أو أن ينعدم الزوج الأول ويبقى الطرف الثاني، وهذه هي الثالثة في القسمة المنطقية والتصور العقلي، أو أن ينعدم الزوج الثاني ويبقى الطرف الأول، وهذه هي الرابعة في القسمة المنطقية والتصور العقلي.

تلك إذن أربعة تصورات للقسمة العقلية. وجميعنا جاء من اجتماع العنصرين، الرجل والمرأة. أما آدم فقد خلقه الله بطلاقة قدرته ليكون السبب، وكذلك تم خلق حواء من آدم. وأخرج الحق من لقاء آدم وحواء نسلاً. وهناك أنثى وهي مريم ويأتي منها المسيح عيسى ابن مريم بلا ذكر. وهذه هي الآية في العالمين، وتثبت قمة عقدية. فلا يقولن أحد: ذكرًا، أو أنثى، لأن نية امرأة عمران في الطاعة أن يكون المولود ذكرًا، وشاء قدر ربكم أن يكون أسمى من تقدير امرأة عمران في الطاعة، لذلك قال: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾. أي إن الذكر لن يصل إلى مرتبة هذه الأنثى.

وقالت امرأة عمران: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾. إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها، فحينما فات المولودة بأنوثتها أن تكون في خدمة بيت الله فقد تمنت امرأة عمران أن تكون المولودة طائعة، عابدة، فسمتها «مريم» لأن مريم في لغتهم - كما قلنا - معناها «العابدة».

وأول ما يعترض العبودية هو الشيطان. إنه هو الذي يجعل الإنسان يتمرد على العبودية. إن الإنسان يريد أن يصير عابداً، فيجيء الشيطان ليزين له المعصية. وأرادت امرأة عمران أن تحمي ابنتها من نزغ الشيطان لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصي كلها تأتي من نزغ الشيطان، وقد سمتها «مريم» حتى تصبح «عابدة لله»، ولأن امرأة عمران كانت تمتلك عقلية إيمانية حاضرة وتحمل المنهج التعبدي كله لذلك قالت: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾.

إن المستعاذ به هو الله، والمستعاذ منه هو الشيطان، وحينما يدخل الشيطان مع خلق الله في تزيين المعاصي، فهو يدخل مع المخلوق في عراك، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه في عراك، ولذلك يقال عن الشيطان إنه إذا سمع ذكر الله فإنه يخنس أي يتراجع، ووصفه القرآن الكريم بأنها «الخناس»، إن الشيطان إنما ينفرد بالإنسان حين يكون الإنسان بعيداً عن الله، ولذلك فالحق يُعلم الإنسان:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

إن الشيطان يرتعد فرقًا ورعشة من الاستعاذة بالله. وعندما يتكرر ارتعاد الشيطان بهذه الكلمة؛ فإنه يعرف أن هذا الإنسان العابد لن يحيد عن طاعة الله إلى المعاصي. وقد علَّمنا رسول الله ﷺ كيف يجيء الرجل امرأته، ومجيء الأهل هو مظنة لمولود قد يجيء، فيقول العبد: «اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني» (من دعاء رسول الله).

إن من يقول هذا القول قبل أن يحدث التخلق، فلن يكون للشيطان ولاية أو قدرة على المولود الذي يأتي بإذن الله . ولذلك قالت امرأة عمران: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ . والذرية قد يفهمها الناس على أنها النسل المتكاثر، ولكن كلمة «ذرية» تطلق على الواحد وعلى الاثنين، وعلى الثلاثة أو أكثر. والذرية هنا بالنسبة لمريم عليها السلام هي عيسى عليه السلام، وتنتهي المسألة . وبعد دعاء امرأة عمران ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ يجيء القول الحق:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقد عرفنا القبول الحسن والإنبات الحسن، أما قوله الحق: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ فهذا يعني أن المسألة جاءت من أعلى، إنه الرب الذي تقبل بقبول حسن، وهو الذي أنبتها نباتًا حسنًا. إذن، فرعاية زكريا لها إنما جاءت بأمر من الله . والدليل على ما حدث عند كفالة مريم. لقد اجتمع كبار القوم رغبة في كفالتها وأجروا بينهم قرعة من أجل ذلك . وساعة تجد قرعة، أو إسهامًا. فالناس تكون قد خرجت من مراداتها المختلفة إلى مراد الله . فعندما نختلف على شيء فإننا نجري قرعة، ويخصص سهم لكل مشترك فيها، ونرى بعد ذلك من الذي يخرج سهمه، ويلجأ الناس لهذا الأمر؛ ليمنعوا هوى البشر عن التدخل في الاختيار، ويصبح الأمر خارجًا عن مراد البشر إلى مراد الله سبحانه وتعالى، وهذا ما حدث عند كفالة زكريا لمريم. ولذلك فالحق يقول لسيدنا رسول الله ﷺ :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

إذن فالكفالة لمريم أخذت لها ضجة، وهذا دليل على أنهم اتفقوا على إجراء قرعة بالنسبة لكفالتها، ولا يمكن أن يكونوا قد ذهبوا إلى هذه القرعة إلا إذا كان قد حدث تنازع بينهم، عن أيهم يكفل مريم، ومن فضل الله أن زكريا عليه السلام كان متزوجًا من «إشاع» أخت «حنة» وهي أم مريم، فهو زوج خالتها.

وكلمة «أقلامهم» قال فيها المفسرون: إنها القداح التي كانوا يصنعونها قديمًا، أو الأقلام التي كتبوا بها التوارة، فرموها في البحر، فمن طفا قلمه لم يأخذ رعاية مريم، ومن غرق قلمه في البحر فهو الذي فاز بكفالة مريم. إذن فهم قد خرجوا عن مراداتهم إلى مراد الله.

والخروج عن المرادات، والخروج عن الأهواء بجسم ليس له اختيار- كقداح القرعة- لا يوجد في النفس غضاضة. لكن لو كان هناك من سيأخذ رعاية مريم بالقوة والغصب فلا بد أن يجد نفوس الآخرين وقد امتلأت بالمرارة أو الغضب. ولذلك فقد كان سائدًا في ذلك العصر عملية إجراء السهام إذا ما خافوا أن يقع الظلم على أحد أو أن يساء الظن بأحد، وهناك قصة سيدنا يونس عندما قاربت السفينة على الغرق، وكان لابد لإنقاذها أن ينزل واحد إلى البحر، وجاء القول الحكيم:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٤].

كان لابد أن ينزل واحد من تلك السفينة، لذلك تم إجراء قرعة السهام حتى لا تقوم معركة بين الموجودين على ظهر السفينة، وحتى لا تكون الغلبة للأقوياء، ولكن القرعة حمت الناس من ظلم بعضهم بعضًا. قالوا: لنجر قرعة السهام، فمن يخرج سهمه فهو الذي يلقي به، وكان على يونس عليه السلام أن

ينزل إلى اليم فيلتقمه الحوت. ولأنه من المسبحين فإن الله ينقذه. لقد قبل يونس عليه السلام اختيار الله ولم ينس تسبيح الله فكان في ذلك الإنقاذ له. وهكذا نقرأ قول الله لنفهم أن كفالة زكريا كانت باختيار الله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

وكلمة «كفلها» أي تولى كل مهمة تربيتها، هذه هي الكفالة، ونحن نعرف أن الكفيل في عرفنا هو الضامن، والضامن هو من يسد القرض عندما يعجز الإنسان عن السداد، وقوله الحق: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ يعطينا المعنى الواضح بأن زكريا عليه السلام هو الذي قام برعاية شئون مريم.

ويتابع الحق الكريم قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ إنه لم يدخل مرة واحدة، بل دخل عليها المحراب مرات متعددة. وكان زكريا عليه السلام كلما دخل على مريم يجد عندها الرزق، ولذلك كان لابد أن يتساءل عن مصدر هذا الرزق، ولا بد أن يكون تساؤله معبرًا عن الدهشة، لذلك يجيء القول الحق على لسان زكريا: ﴿أَنَّى لَكِ هَٰذَا﴾.

وساعة أن تسمع «أنى لك هذا؟» فهذا يدل على أنه قام بعمل محابس على المكان الذي توجد به مريم، وإلا لظن أن هناك أحدًا قد دخل على مريم، وكما يقولون: فإن زكريا كان يقفل على مريم الأبواب. وإلا لو كانت الأبواب غير مغلقة لظن أن هناك من دخل وأحضر لها تلك الألوان المتعددة من الرزق.

والرزق هو ما ينتفع به- بالبناء للمجهول- وعندما يقول زكريا عليه السلام: «أنَّى لك هذا». فلنا أن نتذكر ما قلناه سابقًا من أن أي إنسان وكله الله على جماعة ويرى عندهم ما هو أزيد من الطاقة أو حدود الدخل، فلا بد أن يسأل كُلاًّ منهم: من أين لك هذا؟ ذلك أن فساد البيوت والمجتمعات إنما يأتي من عدم الاهتمام بالسؤال وضرورة الحصول على إجابة على السؤال المحدد: من أين لك هذا؟

إن الذي يدخل بيته ويجد ابنته ترتدي فستانًا مرتفع الثمن ويفوق طاقة الأسرة، أو يجد ابنه قد اشترى شيئًا ليس في طاقة الأسرة أن تشتريه، هنا يجب أن يتوقف الأب أو الولي ليسأل: من أين لك هذا؟ إن في ذلك حماية لأخلاق الأسرة من الانهيار أو التحلل . فلو فطن كل واحد أن يسأل أهله ومن يدخلون في كفالته: «من أين لك هذا؟» لعرف كل تفاصيل حركتهم، لكن لو ترك الحبل على الغارب لفسد الأمر.

وقول زكريا: «أنى لك هذا؟» هو سؤال محدد عن مصدر هذا الرزق، ولننظر إلى إجابتها: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ثم لا تدع البديهة الإيمانية عند سيدنا زكريا دون أن تذكره أنها لا تنسى حقيقة واضحة في بؤرة شعور كل مؤمن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وأثارته هذه المسألة في نفس زكريا نوازع شتى، إنها مسألة غير عادية، لقد أخبرته مريم أن الرزق الذي عندها هو من عند الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب، إنه الإله هو القادر على أن يقول: «كن» فيكون.

وهنا ذكر زكريا نفسه، وكأن نفسه قد حدثته: «إذا كانت للقدرة طلاقة في أن تفعل بلا أسباب، وتعطي من غير حساب، فأنا أريد ولدًا يخلفني، رغم أنني على كبر ورغم بلوغي من السن عتيًا، وامرأتي عاقر. إن مسألة الرزق الذي وجده زكريا كلما دخل على مريم هي التي نبهت زكريا إلى ما يتمنى ويرغب.

ونحن نعلم أن المعلومات التي تمر على خاطر النفس البشرية كثيرة، ولكن لا يستقر في بؤرة الشعور إلا الذي يصر عليه الإنسان، وهناك فرق بين معلومات توجد في بؤرة الشعور. ومعلومات في حاشية الشعور يتم استدعاؤها عند اللزوم، فلما وجد زكريا الرزق المنوع عند مريم وقالت له عن مصدره: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الأمر الثاني: حمل المنهج:

لما وجد زكريا - عليه السلام - الرزق المنوع عند مريم وقالت له عن مصدره:

﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

هنا تساءل زكريا: كيف فاتني هذا الأمر؟ ولذلك يقول الحق عن زكريا:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(١).

إنها ساعة أن قالت له: إن الرزق من عند الله، وأنه الحق الذي يرزق من يشاء بغير حساب، هنا أيقظت فيه القضية الإيمانية فجاءت أمنيته إلى بؤرة الشعور، فقال زكريا لنفسه: فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا، وما دام قد قال هذا القول فلا بد أنه قد صدق مريم في قضيتها، بأن هذا الرزق الذي يأتيها هو من عند الله، ودليل آخر في التصديق، هو أنه لابد وقد رأى أن الألوان المتعددة من الرزق التي توجد عند مريم ليست في بيئته، أو ليست في أوانها؛ وكل ذلك في المحراب. ونحن نعرف أن المحراب كلمة يراد بها بيت العبادة.

أو «المحراب» وهو مكان الإمام في المسجد، أو هو حجرة يصعد إليها بسلم، كالمبلغات التي تقام في بعض المساجد. وما دامت مريم قد أخبرت زكريا وهي في المحراب بأن الرزق من عند الله، وأيقظت بذلك تلك القضية الإيمانية في بؤرة شعوره، فماذا يكون تصرفه؟ هنا دعا زكريا أثناء وجوده في المحراب: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ إنه هنا يطلب الولد. ولكن لابد لنا أن نلاحظ ما يلي:-

---

(١) [آل عمران: ٣٨].

-هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو «عزوة» أو ذكراً؟ لا، إنه يطلب الذرية الطيبة، وذكر زكريا الذرية الطيبة تفيد معرفته أن هنالك ذرية غير طيبة. وفي قول زكريا الذي أورده الحق:

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦].

أي أن يكون دعاء لإرث النبوة وإرث المناهج وإرث القيم، هكذا طلب زكريا الولد. لقد طلبه لمهام كبيرة، وقول زكريا: «رب هب» تعني أنه استعطاء شيء بلا مقابل، إنه يعترف. أنا ليس لي المؤهلات التي تجعل لي ولداً؛ لأني كبير السن وامرأتي عاقر، إذن فعطاؤك يا رب لي هو هبة وليس حقًّا، وحتى الذي يملك الاستعداد لا يكون هذا الأمر حقًّا له، فلا بد أن يعرف أن عطاء الله له يظل هبة، فإياك أن تظن أن اكتمال الأسباب والشباب هي التي تعطي الذرية، إن الحق سبحانه ينبهنا ألا نقع في خديعة وغش أنفسنا بالأسباب.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

إن في ذلك لفتًا واضحًا وتحذيراً محدداً ألا نفتتن بالأسباب، إذن فلكل عطاء من الله هو هبة، والأسباب لا تعطي أحداً ما يريد. إن زكريا يقول: «رب هب لي من لدنك» وساعة أن تقول من: «لدنك» فهو يعني «هب لي من وراء أسبابك». لماذا؟ لأن الكل من الله.

ولكن هناك فرقًا بين عطاء الله بسبب، كأن يذهب إنسان ليتعلم العلم ويمكث عشرين عامًا ليتعلم، وهناك إنسان يفيض الله عليه بموهبة ما، ولذلك يقول أهل الإشراقات: إنه علم لدنى، أي من غير تعب، وساعة أن نسمع «من لدن» أي انعزلت الأسباب، كان دعاء زكريا هو «رب هب لي من لدنك» وكلمة «هب» توضح ما جاء في سورة مريم من قول زكريا:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨].

إن «هب» هي التي توضح لنا هـذه المعاني، هذا كـان دعاء زكـريا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ فهل المراد أن يـسمع الله الدعاء؟ أم أن يجيب الله الدعـاء؟ إنه يضع كل أمله في الله، وكأنه يقول: إنك يا رب من فور أن تسمـعني ستجيبني إلى طلبـي بطلاقة قدرتك. لماذا؟ لأنك يا رب تعلم صـدق نيـتي في أنني أريد الغـلام لا لشيء من أمـور كـقـرة العين، والذكر، والعز، وغيـرها، إنما أريد الولد ليكون وارثًا لي في حمل منهجك في الأرض، وبعد ذلك يقول الحق:

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

هل كل الملائكة اجتمعوا أو نادوا زكـريا؟ لا، لأن جبريل عليه السلام الذي ناداه، ولماذا جاء القول الحق هنا بأن الملائكة هي التي نادتـه؟ لقد جاء هذا القول الحق لنفطن إلى شيء هو، أن الصـوت في الحدث- كـالإنسان- له جـهة يأتي منها، أما الصـوت القادم من الملأ الأعلى فلا يعرف الإنسـان من أين يأتيه؛ إن الإنسان يسمعه وكأنه يأتي من كل الجهات، وكأن هناك ملكًا في كل مكان.

والعصـر الحديث الذي نعـيشه قـد ارتقى في الصوتيـات ووصل لدرجة أن الإنسـان أصبح قـادرًا على جـعل المؤثر الصوتي يحـيط بالإنسـان من جهـات متعـددة، إذن فقوله الحق: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فهذا يعني أن الصـوت قد جاء لزكريا من جميع الجهات.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى

(١) [آل عمران: ٣٩].

مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

لقد نادته الملائكة في أورع لقاءاته مع ربه، أو هو حينما دعا أخذ ما علمه الله للأنبياء إذا حزبهم أمر قاموا إلى الصلاة. أليس طلبه من الله؟ إذن فليقف بين يدي الله. وليجربها كل واحد منا عندما يصعب عليك أي شيء، وتتأزم الأمور، وتمتنع الأسباب، فليقم ويتوضأ وضوءًا جديدًا ويبدأه بالنية حتى ولو كان متوضئًا وليقف بين يدي الله، وليقل: إنه أمر يا رب عز علي في أسبابك، وليصل بخشوع، وأنا أجزم بأن الإنسان ما إن يسلم من هذه الصلاة إلا ويكون الفرج قد جاء. ألم نتلق عن رسول الله هذا السلوك البديع؟ إنه كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة؟

ومعنى حزبه أمر، أي أن أسبابه ضاقت، لذلك يذهب إلى الصلاة لخالق الأسباب، إنها ذهاب إلى المسبب. وبدلاً من أن تلف وتدور حول نفسك، اذهب إلى الله من أقصر الطرق وهو الصلاة، لماذا تتعب نفسك أيها العبد ولك رب حكيم؟ وقديمًا قلنا: إن من له أب لا يحمل همًّا، والذي له رب أليس أولى بالاطمئنان؟

إن زكريا قد دعا الله في الأمر الذي حزبه، وبمجرد أن دعا في الأمر الذي حزبه، قام إلى الصلاة، فنادته الملائكة، وهو قائم يصلي، إن الملائكة لم تنتظر إلى أن ينتهي من صلاته، ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ والبشارة هي إخبار بخير زمنه لم يأت، فإذا كانت البشارة بخير زمنه لم يأتِ فلنرَ من الذي يخبر بالبشارة؟ أمن يقدر على إيجاده أم من لا يقدر؟ فإذا كان الله هو الذي يبشر فهو الذي يقدر، لذلك فالمبشر به قادم لا محالة، ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ لقد قال له الله: سأعطيك. وزيادة على العطاء سماه الله بـ «يحيى» وفوق كل ذلك: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

وللنظر إلى دقة الحق حين يقول: ﴿بِيَحْيَى مُصَدِّقًا﴾ . هذا دليل على أنه سيعيش بمنهج الله وما يعرفه من الطاعات سيسير في هذا الطريق وهو مصدق، وهو سيأتي بكلمة من الله، أو هو يأتي ليصدق بكلمة من الله، لأن سيدنا يحيى هو أول من آمن برسالة عيسى عليه السلام. وهو موصوف بالقول الحق: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ممنوعًا عن كل ما حُرم عليه، أو ممنوعًا عن قمة الغرائز وهي الشهوة، وهي نبي، أي قدوة في اتباع الرسول الذي يجيء في عصره، لقد دعا زكريا، وقام ليصلي، وتلقى البشارة بيحيى، وهنا ارتجت الأمور على بشرية زكريا، ويصوره الحق بقوله:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(١).

إن زكريا- وهو الطالب- يصيبه التعجب من الاستجابة فيتساءل. كيف يكون ذلك؟ والحق يورد ذلك ليعلمنا أن النفس البشرية دائمًا تكون في دائرة التلوين، وليست في دائرات التمكين، وذلك ليعطي الله لخلقه الذين لا يهتدون إلى الصراط المستقيم الأسوة في أنه إذا ما حدث له ابتلاء فعليه الرجوع إلى الله، فيقول زكريا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

إن بلوغ الكبر ليس دليلاً على أنه عاجز عن الإنجاب لأنه قد يكون كبير العمر، وقادرًا على إخصاب امرأة، ذلك أن الإخصاب بالنسبة لبعض الرجال ليس أمرًا عسيرًا مهمًا بلغ من العمر إن لم يكن عاقرًا، ولكن المرأة هي العنصر المهم، فإن كانت عاقرًا، فذلك قمة العجز في الأسباب. ولو أن زكريا قال فقط: «وامرأتي عاقر» لكان أمرًا غير مستحب بالنسبة لزوجته، ولكان معنى ذلك أنه نسب لنفسه الصلاحية وهي غير القادرة.

(١) [آل عمران: ٤٠].

إنه أدب النبوة وهو أدب عال؛ لذلك أوردها من أولها: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ ولنر دقة القول في: «بلغني الكبر»، إنه لم يقل: «بلغت الكبر» بل يقول: إن الكبر هو الذي جاءني ولم أجيء أنا إلى الكبر، لأن بلوغ الشيء يعني أن هناك إحساسًا ورغبة في أن تذهب إليه، وذكر زكريا «وامرأتي عاقر» هو تضخيم لطلاقة القدرة عند من يستمع للقصة، لقد أورد كل الخوالج البشرية، وبعد ذلك يأتي القول الفصل: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ إنها طلاقة القدرة التي فوق الأسباب لأنها خالقة الأسباب. ويقول زكريا:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾(1).

إن زكريا يطلب علامة على أن القول قد انتقل إلى فعل.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٨، ٩].

لقد كان هذا القول تأكيدًا لا شك فيه، فبمجرد أن قال الرب فقد انتهى الأمر، فماذا يريد زكريا من بعد ذلك؟ إنه يطلب آية، أي علامة على أن يحيي قد تم إيجاده في رحم أمه، وما دامت المرأة قد كبرت فهي قد انقطع عنها الحيض، ولا بد أنه عرف الآية لأنه يعرف مسبقًا أنها عاقر. لكن زكريا لم يرغب أن يفوت على نفسه لحظة من لحظات هبات الله عليه، وما دام الحمل قد حدث فهنا كانت استغاثة زكريا، لا تتركني يا رب إلى أن أفهم بالعلامات الظاهرة المحسة، لأنني أريد أن أعيش من أول نعمتك على في إطار الشكر لك على النعمة، فبمجرد أن يحدث الإخصاب لابد أن أحيا في نطاق الشكر ؛ لأن النعمة قد تأتي وأنا غير شاكر.

---

(1) [آل عمران: ٤١].

إنه يطلب آية ليعيش في نطاق الشكر، إنه لم يطلب آية لأنه يشك - معاذ الله - في قدرة الله، ولكن لأنه لا يريد أن يفوت على نفسه لحظة النعمة من أول وجودها إلا ومعها الشكر عليها، والذي يعطينا هذا المعنى هو القول الحق: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ لابد أن معناها أنه يرغب في الكلام فلا يستطيع.

إن هناك فارقًا بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم، وبين ألا يقدر على الكلام، وما دامت الآية هبة من الله. فالحق هو الذي قال له: سأمنعك من أن تتكلم، فساعة أن تجد نفسك غير قادر على الكلام فاعرف أنها العلامة، وستعرف أن تتكلم مع الناس رمزًا، أي بالإشارة، وحتى تعرف أن الآية قادمة من الله، وأن الله علم عن عبده أنه لا يريد أن تمر عليه لحظة مع نعمة الله بدون شكر الله عليها، فإننا نعلم أن الله سينطقه.. ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.

لقد أراد زكريا أن يعيش من أول لحظة مع نعمة المنعم شكرًا، وجعل كل وقته ذكرًا، فلم ينشغل بالناس أو بكلام الناس، وذكر الرب كثيراً هو ما علمه - سبحانه- عن زكريا عندما طلب الآية ليصحبها دائمًا بشكر الله عليها، إن قوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً﴾ تفيد أن زكريا قادر على الذكر وغير قادر على كلام الناس، لذلك لا يريد الله أن يشغله بكلام الناس، وكأن الله يريد أن يقول له: ما دمت قد أردت أن تعيش مع النعمة شكرًا فسأجعلك غير قادر على الكلام مع الناس لكنك قادر على الذكر.

والذكر مطلقًا هو ذكر الله بآلائه وعظمته وقدرته وصفات الكمال له، والتسبيح هو التنزيه لله، لأن ما فعله الله لا يمكن أن يحدث من سواه، فسبحان الله، معناها تنزيه لله، لأنه القادر على أن يفعل ما لا تفعله الأسباب ولا يقدر أحد أن يصنعه، إنه يريد أن يشكر الحق الذي يرزق من يشاء بغير حساب. تلك اللفتة.. التي جاءت من قبل من مريم لزكريا.

وزكريا كما نعلم هو الكفيل لها، فكونها تنطق بهذه العبارة دلالة على أن الله مهد لها بالرزق، يجيئها من غير زكريا، بأنها ستأتي بشيء من غير أسباب. وكأن التجربة قد أراد الله أن تكون من ذاتها لذاتها؛ لأنها ستتعرض لشيء يتعلق بعرض المرأة، فلا بد أن تعلم مسبقًا أن الله يرزق من يشاء بغير حساب، وبدون أسباب. فإن جاءت بولد بدون سبب من أبوه فلتعلم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

فلما سمع زكريا منها ذلك قال: ما دام الله يرزق من غير حساب ويأتي بالأشياء بلا أسباب فأنا قد بلغت من الكبر عتيًا، وامرأتي عاقر، فلماذا لا أطلب من ربي أن يهبني غلامًا؟ إذن فمقولة مريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قد لفتت زكريا، ونبهت إيمانًا موجودًا في أعماقه وحاشية شعوره، ولا نقول أوجدت إيمانًا جديدًا لزكريا بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب، ولكنها أخرجت القضية الإيمانية من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور، فقال زكريا: ما دام الأمر كذلك فأنا أسأل الله أن يهبني غلامًا.. وقول زكريا: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ دل على أنه وزوجته لا يملكان اكتساب الأبوة والأمومة ولذلك طلب الهبة من الله. والهبة شيء بدون مقابل.

فلما سأل الله ذلك، استجاب الله له، وقال له سبحانه: سأهبك غلامًا بدون أسباب من خصوبتك في التلقيح أو خصوبة الزوجة في الحمل، وما دامت المسألة ستكون بلا أسباب وأنا- الخالق - سأتولى الإيجاب بـ «كن» ولمعنى سام شريف سأمنحكم شيئًا آخر تقومون به أنتم معشر الآباء والأمهات- عادة- إنه تسميه المولود، فأفاض الحق عليهم نعمة أخرى وهي تسمية المولود بعد أن وهبه لهما .. هنا وقفة عند الهبة بالاسم.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

حين يولد للناس ولد فهم يسمونه، فالتسمية أمر شائع في عادات الناس. ولكن من يهمهم أمر الوليد حينما يقبلون على تسميته ؛ فهم يحاولون أن يتفاءلوا؛ فيسموه اسمًا يرجون أن يتحقق في المسمى، فيسمونه «سعيدًا» أملاً في أن يكون سعيدًا، أو يسمونه «فضلاً» أو يسمونه «كريمًا». إنهم يأتون بالاسم الذي يحبون أن يجدوا وليدهم على صفته، وذلك هو الأمل منهم، ولكن أتأتي المقادير على وفق الآمال؟

قد يسمونه سعيدًا، ولا يكون سعيدًا. ويسمونه فضلاً، ولا يكون فضلاً ويسمونه عزًّا، ولا يكون عزًّا. ولكن ماذا يحدث حين يسمى الله سبحانه وتعالى؟ لابد أن يختلف الموقف تمامًا، فإذا قال اسمه «يحيى» دل على أنه سيعيش. وقديمًا قال الشاعر حينما تفاءل بتسمية ابنه يحيى:

فسميته يحيا ليحيا فلم يكن لرد قضاء الله فيه سبيل

كان الشاعر قد سمى ابنه يحيى أملاً أن يحيا، ولكن الله لم يرد ذلك، فمات الابن. لماذا؟ لأن المسمى من البشر ليس هو الذي يُحيي، إن المسمى إنسان قدرته عاجزة، ولكن «المحيى» له طلاقة القدرة، فحين يسمى من له طلاقة القدرة على إرادة أن يحيا فلا بد من أن يحيا حياة متميزة؟ وحتى لا تفهم أن الحياة التي أشار الله إليها بقوله: ﴿ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾ بأنها الحياة المعروفة للبشر عادة- لأن الرجل حينما يسمى ابنه «يحيى» يأمل أن يحيا الابن متوسط الأعمار، كما يحيا الناس ستين عامًا، أو سبعين، أو أي عدد من السنوات مكتوبة له في الأزل.

لكن الله حينما يسمى «يحيى» فإنه لا يأخذ «يحيى» على قدر ما يأخذه الناس، بل لابد أن يعطيه أطول من حدود أعمار الناس، ويهيئ له الحق من خصومه ومن أعدائه من يقتله ليكون شهيدًا، وهو بالشهادة يصير حيًّا، فكأنه يحيا دائمًا، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

وهكذا أراد الله ليحيى عليه السلام أن يحيا كحياة الناس، ويحيا حياة أطول من حياة الناس إلى أن تقوم الساعة، وأيضًا نأخذ ملحظًا في أن زكريا حينما بُشر بأن الله سيهبه غلامًا ويسميه يحيى، نجده قد استقبلها بالعجب . كيف يستقبل زكريا مسألة الرزق بالولد متعجبًا مع أنه رآها في الرزق الذي كان يجده عند مريم؟ ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

ولنا أن نقول: أكنت تحب أن يمر مثل هذا الأمر الخارق للعادة والخارق للناموس على سيدنا زكريا كأنه أمر عادي لا يندهش له ولا يتعجب؟ لا، لابد أن يندهش ويتعجب لذلك قال: ﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾. فكأن الدهشة لفتته إلى أنه ستأتي آية عجيبة، ولو لم تكن تلك الدهشة لكانت المسألة رتيبة وكأنها أمر عادي. إذن، فهو يلفتنا إلى الأمر العجيب الذي خصه الله به. وأيضًا جاءت المسألة على خلاف ناموس التكاثر والإنجاب والنسل: ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾.

إن المسألة كلها تفضل وهبة من الله. فلما جاءته البشارة، لم يقل الله له: إني سأهبك الغلام واسمه يحيى من امرأتك هذه، أو وأنت على حالتك هذه. فيتشكك ويتردد ويقول: أترى يأتي الغلام الذي اسمه «يحيى» مني وأنا على هذه الحالة، امرأتي عاقر وأنا قد بلغت هذا الكبر، أو ربما ردنا الله شبابًا حتى نستطيع الإنجاب، أو تأتي امرأة أخرى فأتزوجها وأنجب.

إذن فالعجب في الهيئة التي سيصير عليها الإنجاب فقوله: ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ هذا التساؤل من زكريا يهدف به إلى معرفة الهيئة أو الحالة التي سيأتي بها الإنجاب، لأن الإنجاب يأتي على حالات متعددة. فلما أكد الله ذلك قال: «كذلك» ماذا تعني كذلك؟ إنها تعني أن الإنجاب سيأتي منك ومن زوجك وأنتما على حالكما، أنت قد بلغت من الكبر عتيًا، وامرأتك عاقر. لأن العجيبة تتحقق بذلك، أكان من المعقول أن يردهما

الله شبابًا حتى يساعداه أن يهبهما الولد؟ لا. لذلك قال الحق: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾. أي كما أنتما، وعلى حالتكما.

لقد جعل الحق الآية ألا يكلم زكريا الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة، وقد يكون عدم الكلام في نظر الناس مرضًا، لا، إنه ليس كذلك، لأن الحق يقول له: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ إن الحق يجعل زكريا قادراً على التسبيح، وغير قادر على الكلام. وهذه قدرة أخرى من طلاقة قدرة الله، إنه اللسان الواحد، غير قادر على الكلام، ولو حاول أن يتكلم لما استطاع، ولكن هذا اللسان نفسه- أيضًا- يصبح قادرًا فقط على التسبيح، وذكر الله بالعشي والإبكار، ذكر الله باللسان وسيسمعه الناس، وذلك بيان لطلاقة القدرة. اهـ.

وفي «سورة مريم» قال الحق- سبحانه-:

﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾(١).

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآيات - ما مختصره-:

فقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ..﴾ [مريم: ٢] أي: هذا يا محمد خبر زكريا وقصته ورحمة الله به.

---

(١) [مريم: ٢-٩].

والرحمة: هي تجليات الراحم على المرحوم بما يديم له صلاحه لمهمته، إذن: فكل راحم ولو من البشر، وكلُّ مرحوم ولو من البشر، ماذا يصنع؟ يعطي غيره شيئًا من النصائح تُعينه على أداء مهمته على أكمل وجه، فما بالك إن كانت الرحمة من الخالق الذي خلق الخلق؟ وما بالك إذا كانت رحمة الله لخير خلقه محمد؟

إنها رحمة عامة ورحمة شاملة؛ لأنه ﷺ أشرف الأنبياء وأكرمهم وخاتمهم، فلا وحي ولا رسالة من بعده، ولا إكمال . إذن: فهو أشرف الرسل الذين هم أشرف الخلق، ورحمة كل نبي تأخذ حظها من الحق سبحانه بمقدار مهمته، ومهمة محمد أكرم المهمات.

وكلمة (رحمة) هنا مصدر يؤدي معنى فعله، فالمصدر مثل الفعل يحتاج إلى فاعل ومفعول، كما نقول: آلمني ضرب الرجل ولده، فمعنى: ﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢] أي: رحم ربُّك عبده زكريا.

لذلك قال تعالى: ﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ ..﴾ [مريم: ٢] لأنها أعلى أنواع الرحمة، وإن كان هنا يذكر رحمته تعالى بعبده زكريا، فقد خاطب محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فرحمة الله تعالى بمحمد ليست رحمة خاصة به، بل هي رحمة عامة لجميع العاملين، وهذه منزلة كبيرة عالية.

فالمراد من ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢] يعني هذا الذي يُتلى عليك الآن يا محمد هو ذكر وحديث وخبر رحمة ربك التي هي أجل الرحمات بعبده زكريا. وسبق أن أوضحنا أن العبودية للخلق مهانة ومذلة، وهي كلمة بشعة لا تُقبل، أما العبودية لله تعالى فهي عزٌ وشرف، بل مُنتهى العز والشرف والكرامة، وعللنا لذلك بأن العبودية التي تسوء وتُحزن هي عبودية العبد لسيد يأخذ خيره، أما العبودية لله تعالى فيأخذ العبد خير سيده.

لكن. ما نوع الرحمة التي تجلي الله تعالى بها حين أخبر رسوله ﷺ بخبر عبده زكريا؟

قالوا: لأنها رحمة تتعلق بطلاقة القدرة في الكون، وطلاقة القدرة في أن الله تبارك وتعالى خلق للمسببات أسبابًا، ثم قال للأسباب: أنت لست فاعلة بذاتك، ولكن بإرادتي وقدرتي، فإذا أردتك ألا تفعلي أبطلتُ عملك، وإذا كنت لا تنهضين بالخير وحدك فأنا أجعلك تنهضين به.

ومن ذلك ما حدث في قصة خليل الله إبراهيم حين ألقاه الكفار في النار، ولم يكن حظ الله بإطفاء النار عن إبراهيم، أو بجعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم أن يُنجي إبراهيم؛ لأنه كان من الممكن ألا يُمكن خصوم إبراهيم عليه السلام من القبض عليه، أو أن يُنزل مطرًا يُطفئ ما أوقدوه من نار، لكن ليست نكاية القوم في هذا، فلو أفلت إبراهيم من قبضتهم، أو نزل المطر فأطفأ النار لقالوا: لو كُنا تمكنا منه لفعلنا به كذا وكذا، ولو لم ينزل المطر لفعلنا به كذا وكذا.

إذن: شاءت إرادة الله أن تكيد هؤلاء، وأن تُظهر لهم طلاقة القدرة الإلهية فتُمكنهم من إبراهيم حتى يلقوه في النار فعلاً، ثم يأتي الأمر الأعلى من الخالق سبحانه للنار أن تتعطل فيها خاصية الإحراق: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وكذلك في قصة رحمة الله لعبده زكريا تعطينا دليلاً على طلاقة القدرة في مسألة الخلق، وليلفتنا إلى أن الخالق سبحانه جعل للكون أسبابًا، فمن أخذ بالأسباب يصل إلى المسبب، ولكن إياكم أن تُفتنوا في الأسباب؛ لأن الخالق سبحانه قد يعطيكم بالأسباب، وقد يُلغيها نهائيًا ويأتي بالمسببات دون أسباب.

وقد تجلت طلاقة القدرة في قصة بدء الخلق، فنحن نعلم أن جمهرة الناس

وتكاثرهم يتم عن طريق التزاوج بين رجل وامرأة، إلا أن طلاقة القدرة لا تتوقف عند هذه الأسباب، والخالق سبحانه يُدير خلقه على كُل أوجه الخلق، فيأتي آدم دون ذكر أو أنثى، ويخلق حواء من ذكر دون أنثى، ويخلق عيسى من أنثى بدون ذكر.

فالقدرة الإلهية- إذن- غير مُقيدة بالأسباب، وتظل طلاقة القدرة هذه في الخلق إلى أن تقوم الساعة، فنرى الرجل والمرأة زوجين، لكن لا يتم بينهما الإنجاب وتتعطل فيهما الأسباب حتى لا نعتمد على الأسباب وننسى المسبب سبحانه، فهو القائل:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

وطلاقة القدرة في قصة زكريا عليه السلام تتجلى في أن الله تعالى استجاب لدعاء زكريا في أن يرزقه الولد، قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢].

أي: رحمه الله، لكن متى كانت هذه الرحمة؟

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾.

أي: في الوقت الذي نادى فيه ربه نداءً خفيًّا.

والنداء لون من ألوان الأساليب الكلامية، والبلاغيون يقسمون الكلام إلى: خبر: وهو أن تخبر عن شيء بكلام يحتمل الصدق أو الكذب. وإنشاء: وهو أن تطلب بكلامك شيئًا، والإنشاء قول لا يحتمل الصدق أو الكذب.

والنداء من الإنشاء؛ لأنك تريد أن تنشيء شيئًا من عندك، فلو قُلت: يا محمد فأنت تريد أن تنشيء إقبالاً عليك، فالنداء- إذن - طلب الإقبال عليك، لكن هل يصح أن يكون النداء مع الله تعالى بهذا المعنى؟ إنك لا تنادي إلا البعيد عنك الذي تريد أن تستدنيه منك.

فكيف تنادي ربك - تبارك وتعالى - وهو أقرب إليك من حبل الوريد؟ وكيف تناديه سبحانه وهو يسمعك حتى قبل أن تتكلم؟ فإذا كان إقباله عليك موجودًا في كل وقت، فما الغرض من النداء هنا؟ نقول: الغرض من النداء: الدعاء.

ووصف النداء هنا بأنه: ﴿نداءً خفيًّا﴾ [مريم: ٣] لأنه ليس كنداء الخلق للخلق، يحتاج إلى رفع الصوت حتى يسمع، إنه نداء لله - تبارك وتعالى- الذي يستوي عنده السر والجهر، وهو القائل: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

ومن أدب الدعاء أن ندعوه سبحانه كما أمرنا: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

وهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] أي: وما هو أخفى من السر؛ لأنه سبحانه قبل أن يكون سرًّا، علم أنه سيكون سرًّا.

لذلك، جعل الحق سبحانه أحسن الدعاء الدعاء الخفي؛ لأن الإنسان قد يدعو ربه بشيء، إن سمعه غيره ربما استنقصه، فجعل الدعا خفيًّا بين العبد وربه حتى لا يُفتضح أمره عند الناس.

أما الحق سبحانه فهو ستار يحب الستر حتى على العاصين، وكذلك ليدعو العبد ربه بما يستحي أن يذكره أمام الناس، وليكون طليقًا في الدعاء فيدعو ربه بما شاء؛ لأنه ربُّه ووليه الذي يفزع إليه. وإن كان الناس سيحزنون ويتضجرون إن سألتهم أدنى شيء، فإن الله تعالى يفرح بك إن سألته.

لكن لماذا أخفى زكريا دعاءه؟

دعا زكريا ربه أن يرزقه الولد، ولكن كيف يتحقق له هذا المطلب وقد بلغ من الكبر عتيًّا وامرأته عاقر؟ فكأن الأسباب الموجودة جميعها مُعطلة عنده؛ لذلك توجه إلى الله بالدعاء: يا رب لا ملجأ لي إلا أنت، فأنت وحدك القادر على خرق الناموس والقانون، وهذا مطلب من زكريا جاء في غير وقته.

أخفاه أيضًا؛ لأنه طلب الولد في وجود أبناء عمومته الذين سيحملون منهجه من بعده، إلا أنه لم يأتمنهم على منهج الله؛ لأن ظاهر حركتهم في الحياة غير متسقة مع المنهج، فكيف يأمنهم على منهج الله وهم غير مؤتمنين على أنفسهم؟ فإذا دعا زكريا ربه أن يرزقه الولد ليرث النبوة من بعده، فسوف يغضب هؤلاء من دعاء زكريا ويعادونه؛ لذلك جاء دعاؤه خفيًّا يُسره بينه وبين ربه تعالى.

سؤال آخر تنبغي الإجابة عليه هنا: لماذا يطلب زكريا الولد في هذه السن المتأخرة، وبعد أن بلغ من الكبر عتيًّا، وأصبحت امرأته عاقرًا؟

لقد أوضح زكريا عليه السلام العلة في ذلك في الآيات القادمة فقال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦].

إذن: فالعلة في طلب الولد دينية محضة، لا يطلبه لمغنم دنيوي، إنما شغفه بالولد لأنه لم يأمن القوم من بعده على منهج الله وحمايته من الإفساد.

لذلك قوله: (يرثني) هنا لا يفهم منه ميراث المال كما يتصوره البعض؛ لأن الأنبياء لا يورثون، كما قال النبي ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نُورث ما تركناه صدقة**»(١). وبذلك يخرج النبي من الدنيا دون أن ينتفع أحد من أقاربه بماله حتى الفقراء منهم.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٩٢) بنحوه، ومسلم (١٧٥٨)، ولفظه «**لا نُورث ما تركنا فهو صدقة**».

فالمسألة مع الأنبياء خالصة كلها لوجه الله تعالى ؛ لذلك قال بعدها: ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم: ٦] أي: النبوة التي تناقلوها. فلا يستقيم هنا أبدًا أن نفهم الميراث على أنه ميراث المال أو متاع الدنيا الفاني.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ [النمل: ١٦] ففي أي شيء ورثه؟ أورثه في تركته؟ إذن: فما موقف أخوته الباقين؟ لابد أنه ورثه في النبوة والملك، فالمسألة بعيدة كل البعد عن الميراث المادي.

ثم يقول الحق سبحانه أن زكريا عليه السلام قال:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ هذا هو النداء، أو الدعاء الذي دعا به زكريا عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ [مريم: ٤] ويرد في الدعاء أن نقول: يا رب، أو نقول: يا الله، فقال زكريا (رب) أي: يا رب؛ لأنه يدعو بأمر يتعلق بعطاء الربوبية الذي يشمل المؤمن والكافر، إنه يطلب الولد، وهذا أمر يتعلق ببنية الحياة وصلاحها للإنجاب، وهذه من عطاء الرب سبحانه وتعالى، وإن كانت العلة في طلب الولد إلهية، وهي أن يحمل المنهج من بعد أبيه.

فكأن زكريا عليه السلام دعا ربه: يا رب يا من تعطي من آمن بك، وتعطي من كفر، يا من تعطي من أطاع، وتعطي من عصى، حاشاك أن تمنع عطاءك عمن أطاعك ويدعو الناس إلى طاعتك.

أما الدعاء بالله ففي أمور العبادة والتكليف.

ثم يُقدم زكريا عليه السلام حيثيات هذا المطلب: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ [مريم: ٤] والوهن هو الضعف، وقال: ﴿ وَهَنَ الْعَظْمُ ﴾ [مريم: ٤] لأن لكل شيء قوامًا في الصلابة والقوة، فمثلاً الماء له قوام معروف والدُهن له قوام، واللحم له قوام، والعصب والعظم وكل عناصر تكوين الإنسان، والعظم

هو أقوى هذه الأشياء، والعظم في بناء الجسم البشري مثل (الشاسيه) في لغة العصر الحديث، وعلى العظم يبني جسم الإنسان من لحم ودم وعصب، فإذا أصاب العظام - وهي أقوى العناصر - ضعف ووهن فغيرها من باب أولى.

لذلك، فإن الرجل العربي حينما شكا الجدب والقحط ماذا قال؟ قال: مرت بنا سنون صعبة: فسنة أذابت الشحم - أي: بعد الجوع وعدم الطعام- وسنة أذهبت اللحم- أي: بعد أن أنهت الشحم- وسنة محت العظم.

فكأن العظم هو آخر مخزن من مخازن القوت في جسم الإنسان ساعة أن ينقطع عنه الطعام والشراب. والعظم في هذه الحالة يُوجه غذاءه للمخ خاصة؛ لأنه ما دام في المخ بقية قبول حياة فما حدث للجسم من تلف قابل للإصلاح والعودة إلى طبيعته، إذن: فسلامة الإنسان مرتبطة بسلامة المخ.

لذلك نجد الأطباء في الحالات الحرجة يُركزون اهتمامهم على سلامة المخ، ويرتبون عليه حياة الإنسان أو موته، حتى إن توقف القلب فيمكنهم بالتدليك إعادته إلى حالته الطبيعية، أما إن توقف المخ فهذا يعني الموت.

فكأن نبي الله زكريا- عليه السلام- يقول: يا رب ضعف عظمي، ولم يعُد لدي إلا المصدر الأخير لاستبقاء الحياة.

ولما كان العظم شيئًا باطنًا مدفونًا تحت الجلد، فهو حيثية باطنة، فأراد زكريا عليه السلام أن يأتي بحيثية أخرى ظاهرة بينة، فأتي بأمر واضح: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] فشبه انتشار الشيب في رأسه باشتعال النار، فالشعر الأبيض الذي يعلوه واضح كالنار.

والمتأمل في هذا التشبيه يجد أن النار أيضًا تتغذى على الحطب وتظل مشتعلة لها لهب يعلو طالما في الحطب الحيوية النباتية التي تمد النار، فإذا ما

انتهت هذه الحيوية النباتية في الحطب أخذت النار في التضاؤل، حتى تصير جذوة لا لهب لها ثم تنطفئ.

واشتعال الرأس بالشيب أيضًا دليل على ضعف الجسم ووهن قوته؛ لأن الشعر يكتسب لونه من مادة مُلونة سوداء أو حمراء أو صفراء توجد في بُصيلة الشعرة، وتُمد الشعرة بهذا اللون، وضعف الجسم يُضعف هذه المادة تدريجيًا، حتى تختفي، وبالتالي تخرج الشعرة بيضاء، والبياض ليس لونًا، إنما البياض عدم اللون نتيجة ضعف الجسم وضعف الغُدد التي تفرز هذا اللون.

لذلك نجد المترفين الذين يعنون كثيرًا بشعرهم ويضعُون عليه المواد المختلفة أول ما يظهر الشيب عندهم تبيض سوالفهم؛ لأن السوالف عادة بعد أن يهذُبها الحلاق تأخذ أكبر قدر من المواد الكاوية التي تؤثر على بُصيلات الشعر وعلى هذه المادة الملونة، والشعرة مثل الأنبوبة يسهل توصيل هذه المواد منها خاصة بعد الحلاقة مباشرة وما تزال الشعرة مفتوحة.

ثم يقول: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] أي: لم أكُن فيما مضى بسبب دعائي لك شقيًا؛ لأني مستُجاب الدعوة عندك، فكما أكرمتني سابقًا بالإجابة فلم أكُن شقيًا بدعائك، بل كنت سعيدًا بالإجابة، فلا تُخلف عادتك معي هذه المرة، واجعلني سعيدًا بأن تُجيبني، خاصة وأن طلبي منك طاعة لك، فأنا لا أريد أن أخرج من الدنيا إلا وأنا مطمئن على من يحمل المنهج، ويقوم بهذه المهمة من بعدي.

وأنت قد تدعو الله لأمر تحبه، فإذا لم يأت ما تحبه ولم تجب حزنت وكأنك شقيت بدعائك، وقد يكون شقاء كذب؛ لأنك لا تدري الحكمة من المنع وعدم الإجابة، لا تدري أن الله تعالى يتحكم في تصرفاتك.

وربما دعوت بأمر تراه الخير من وجهة نظرك وفي علم الله أنه لا خير لك

فيه، فمنعه عنك وعدل لك ما أخطأت فيه من تقدير الخير، فأعطاك ربك من حيث ترى أنه منعك، وأحسن إليك من حيث ترى أنه حرمك، لأنك طلبت الخير من حيث تعلم أنت أنه خير ومنع الله من حيث يعلم أن الخير ليس في ذلك.

ثم يذكر زكريا عليه السلام علة أخرى هي علة العلل ولُب هذه المسألة، فيقول:

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾.

(الموالي) من الولاء، وهم أقاربه من أبناء عمومته، فهم الجيل الثاني الذي سيأتي بعده، ويخاف أن يحملوا المنهج ودين الله من بعده؛ لأنه رأى من سلوكياتهم في الحياة عدم أهليتهم لحمل هذه المهمة.

﴿ مِن وَرَائِي .. ﴾ [مريم: ٥] سبق أن أوضحنا في سورة (الكهف) أن كلمة وراء تأتي بمعنى: خلف، أو أمام، أو بعد، أو غير. وهنا جاءت بمعنى: من بعدي.

ثم يقول: ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا .. ﴾ [مريم: ٥] والعاقر هي التي لا تلد بطبيعتها بداية، أو صارت عاقرًا بسبب بلوغها سن اليأس مثلاً. ونحن نعلم أن التكاثر والإنجاب في الجنس البشري ينشأ من رجل وامرأة، وقد سبق أن وصف زكريا حاله من الضعف والكبر، ثم يخبر عن زوجته بأنها عاقر لا تلد، إذن: فأسباب الإنجاب جميعها مُعطلة.

وقوله: ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا .. ﴾ [مريم: ٥] أي: هي بطبيعتها عاقر، وهذا أمر مصاحب لها ليس طارئًا عليها، فلم يسبق لها الإنجاب قبل ذلك.

ثم يقول: ﴿ فَهَبْ لِي .. ﴾ [مريم: ٥] والهبة هي العطاء بلا مقابل،

فالأسباب هنا معُطلة، والمقدمات تقول: لا يوجد إنجاب؛ لذلك لم يقُل مثلاً: أعطني؛ لأن العطاء قد يكون من مقابل، أما في هذه الحالة فالعطاء بلا مقابل وبلا مقدمات، فكأنه قال: يا رب إن كنت ستعطيني الولد فهو هبة منك لا أملك أسبابها؛ لذلك قال في آية أخرى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ ..﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ولنا وقفة وملحظ في قوله تعالى ﴿عَلَى الْكِبَرِ ..﴾ [إبراهيم: ٣٩] حيث قال المفسرون: (على) هنا بمعنى (مع) و (على) ثلاثة أحرف و (مع) حرفان، فلماذا عدل الحق تبارك وتعالى عن الخفيف إلى الثقيل؟ لابد أن وراء هذا اللفظ إضافة جديدة» وهي أن (مع) تفيد المعية فقط، أما (على) فتفيد المعية والاستعلاء، فكأنه قال: إن الكبر يا رب يقتضي ألا يوجد الولد، لكن طلاقة قدرتك أعلى من الكبر.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ..﴾ [الرعد: ٦] كأن الظلم يقتضي أن يُعاقبوا، لكن رحمة الله بهم ومغفرته لهم علت على استحقاق العقاب.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنْكَ ..﴾ [مريم: ٥] أي: من عندك أنت لا بالأسباب (وليًا) أي: ولدًا صالحًا يليني في حمل أمانة تبليغ منهجك إلى الناس لتسلم لهم حركة الحياة.

ثم يقول:

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

سبق أن أوضحنا أن الميراث هنا لا يُراد به ميراث المال؛ لأن الأنبياء لا يورثون، وما تركوه من مال فهو صدقة من بعدهم، إنما المراد هنا ميراث العلم والنبوة والملك، وحمل منهج الله إلى الناس، ونلحظ أنه لم يكتف بقوله

(يرثُني) بل قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦] فلست أنا القمة في الطاعة في آل يعقوب، فهناك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وهذا تواضع منه ومراعاة لأقدار الرجال وإنزالهم منازلهم.

وقوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦] أي: مرضيًّا عنه منك.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

المتأمل لهذه القصة يجد هذه الآية قد اختصرت من القصة ما يفهم من سياقها ثقة في نباهة السامع، وأنه قادر على إكمال المعنى، فكأن معنى الآية: سمع الله دعاء زكريا وحيثيات طلبه، فأجابه بقوله: ﴿يَا زَكَرِيَّا..﴾ [مريم: ٧].

وتوجيه الكلام إلى زكريا عليه السلام هكذا مباشرة دليل على سرعة الاستجابة لدعائه، فجاءت الإجابة مباشرة دون مُقدمات.

وقوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ..﴾ [مريم: ٧] البشارة: هي الإخبار بما يسرُك قبل أن يجيء ليستطيل مد الفرح بالشيء السار، وقد يُبشرك مُساويك ويكذب في البُشرى، وقد تأتي الظروف والأحداث مُخالفة لما يظنه، فكيف بك إذا بشرك الله تعالى؟ ساعة أن تكون البشارة من الله فاعلم أنها حق وواقع لا شك فيه.

وقوله: ﴿بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى..﴾ [مريم: ٧] أي: وسماه أيضًا.

وإذا كان الذي سمى هو الله تعالى فلا بد أن يتحقق الاسم في المسمى، وينطبق عليه، ولا بُد أن يتحقق مراده تعالى في من سماه، وقد سمى الحق تبارك وتعالى ابن زكريا يحيى فلا بُد أن تنطبق عليه هذه الصفة، ويحيى فعل ضده يموت، إذن: فهو سبحانه القادر على أن يُحييه، لكن يحييه إلى متى؟ وكم عامًا؟ الحياة هنا والعيش يتحقق ولو بمتوسط الأعمار مثلاً، فقد أحياه وتحققت فيه صفة الحياة.

ولذلك استدل أهل المعرفة من تسميته يحيى على أن ابن زكريا سيموت شهيداً ليظل حيًّا كما سماه الله وقد كان.

وقوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧] السمي: اختلف العلماء في معناها فقالوا: تأتي بمعنى: نظير أو مثيل أو شبيه وإما سميًّا يعني: اسمه كاسمه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] فقالوا: سميًّا هنا تحمل المعنيين: هل تعلم له نظيرًا أو شبيهًا؛ لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

ويمكن أن نقول بهذا المعنى أيضًا في قصة يحيى عليه السلام، إلا أنه يقع فيه شيء وهو: أن الله تعالى حينما قال في مسألة يحيى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧] واعتبرناها بمعنى المثل أو النظير والشبيه، فهذا يعني أنه لم يسبق يحيى واحد مثله في الصلاح والتقوى، فأين- إذن- أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام؟ وأين إسماعيل وإسحاق؟

فهذا المعنى وإن كان السياق يحتمله في غير هذا الموضع إلا أنه لا يستقيم هنا؛ لأن الله تعالى جعل من قبل يحيى من هو أفضل من يحيى، أو مثله على الأقل.

أما المعنى الآخر فيكون: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] أي: هل هناك من تسمى باسمه تعالى؟ وهذا هو المعنى الذي يستقيم في قصة يحيى عليه السلام؛ لأنه أول اسم وضعه الحق سبحانه على ابن زكريا، ولم يكن أحد تسمى به من قبل، أما بعده فقد انتشر هذا الاسم، حتى قال الشاعر:

وسميته يحيى ليحيى فلم يكُن ... لرد قضاء الله فيه سبيل

ونقف هنا على آية من آيات الله في التسمية، حيث لم يجرؤ أحد حتى من الكفرة والملاحدة الذين يجاهرون بإلحادهم ويعلنون إنكارهم للخالق سبحانه، لم يجرو أحدهم أن يسمى ولده (الله)، وحرية اختيار الأسماء مكفولة، وهذا إن دل فإنما يدلُ على أن كفرهم عناد ولجج، وأنهم غير صادقين في كُفرهم، ويعلمون أن الله موجود؛ لذلك يخافون على أنفسهم وعلى أولادهم أن يُسموا بهذا الاسم.

إذن: كلمة (سميًّا) في مسألة الألوهية تؤخذ على المعنيين، أما في مسألة يحيى فلا تحتمل إلا المعنى الثاني.

وهب أن الحق سبحانه وتعالى استعرض الأسماء السابقة فلم يجد في الماضي من سُمي (الله) فأعلنها تحديًا: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]؟ فلم يحدث بعد هذا التحدي أن يُسمي أحد بهذا الاسم.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

لما سمع زكريا عليه السلام البشارة من ربه، واطمأن إلى حصولها أغراه ذلك في أن يوُغل في معرفة الوسيلة، وكيف سيتم ذلك، وتتحقق هذه البشارة حال كونه قد بلغ من الكبر عتيًّا وامرأته عاقر؟

لكن ماذا يقصد زكريا من سؤاله، وهو يعلم تمامًا أن الله تعالى عالم بحاله وحال زوجه؟ الواقع أن زكريا عليه السلام لا يستنكر حدوث هذه البشرى، ولا يستدرك على الله، وحاشاه أن يقصد ذلك، وإنما أطمعته البشرى في أن يعرف الكيفية، كما حدث في قصة موسى - عليه السلام - حينما كلمه ربه واختاره، وأفرده بهذه الميزة فأغراه الكلام في أن يطلب الرؤيا، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ..﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وكما حدث في قصة - إبراهيم عليه السلام- لما قال لربه: ﴿رَبِّ أَرِنِي

كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى..﴾ [البقرة: ٢٦٠] وأبو الأنبياء لا يشك في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، ولكنه يريد أن يعرف هذه الطريقة العجيبة، فالكلام ليس في الحقيقة وجوداً وعدماً، إنما في كيفية وجود الحقيقة، والكلام في الكيفية لا دخل له بالوجود.

فأخبره الحق سبحانه أن هذه المسألة لا تُقال إنما تُباشر عمليًا، فأمره بما نعلم من هذه القصة: وهو أن يحضر أربعة من الطير بنفسه، ثم يضمهن إليه ليتأكد بنفسه من حقيقتها، ثم أمره أن يُقطعهن أجزاء، ثم يُفرق هذه الأجزاء على قمم الجبال، ثم بعد ذلك ترك له الخالق سبحانه أن يدعوهن بنفسه، وأن يصدر الأمر منه فتتجمع هذه القطع المبعثرة وتدب فيها الحياة من جديد، وهذا من مظاهر عظمته سبحانه وتعالى أنه لم يفعل، بل جعل من لا يستطيع ذلك يفعله . ويقدر عليه.

فإن كان البشر يُعدون أثر قدرتهم إلى الضعفاء، فمن لا يقدر على حمل شيء يأتي بمن يحمله له، ومن يعجز عن عمل شيء يأتي بمن يقوم به، ويظل هو ضعيفًا لا يقدر على شيء، أما الحق سبحنه وتعالى فيعُدي قوته بنفسه إلى الضعيف فيصير قويًا قادراً على الفعل.

فقوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ..﴾ [مريم: ٨] سؤال عن الكيفية، كما أن إبراهيم عليه السلام لما قال له ربه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ..﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي: بقدرتي على إحياء الموتى، قال (بلى) أي: نعم أؤمن ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ..﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي: إلى الكيفية التي يتم بها الإحياء.

أو: أن زكريا عليه السلام بقوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ..﴾ [مريم: ٨] يريد أن يُوثق هذه البشرى ويُسجلها، كما تعد ولدك بأن تشتري له هدية فيلُح عليك في هذه المسألة ليؤكد وعدك له، ويستلذ بأنه وعد مُحقق لا شك فيه، ثم يذكر زكريا حيثيات تعجُبه من هذا الأمر فيقول:

﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٨].

عتيًّا: من عتا يعني طغى وتجبر وأفسد كثيراً، والعُتو: الكفر، والعتي: هو القوى الذي لا يُغالب؛ لذلك وصف الكبر الذي هو رمز للضعف بأنه عتى؛ لأن ضعف الشيب والشيخوخة ضعف لا يقدر أحد على مقامته، أو دفعه أبدًا، مهما احتال عليه بالأدوية والعقاقير (والفيتامينات).

ويدبو أن مسألة الولد هذه كانت تشغل زكريا عليه السلام، وتلُح عليه؛ لأنه دعا الله كثيراً أن يرزقه الولد، ففي موضع آخر يقول: ﴿ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩] فزكريا عليه السلام يريد الولد الذي يرثه وهو موروث؛ لأن الله تعالى خير الوارثين.

لكن يأتي الرد: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ.. ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ونلاحظ أنه تعالى قبل أن يقول: ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ.. ﴾ [الأنبياء: ٩٠] التي ستنجب هذا الولد، قال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى.. ﴾ [الأنبياء: ٩٠] فصلاح الزوجة ليس شرطًا في تحقُق هذه البشرى وحدوث هذه الهبة.

وهنا مظهر من مظاهر طلاقة القدرة الإلهية التي لا يُعجزها شيء، فهو سبحانه قادر على إصلاح هذه الزوجة العاقر، فالصنعة الإلهية لا تقف عند حد، كما لو تعطل عندك أحد الأجهزة مثلاً فذهبت به إلى الكهربائي لإصلاح فوجد التلف به كبيراً، فينصحك بتركه وشراء آخر جديد، فلا حيلة في إصلاحه.

لذلك أصلح الله تعالى لزكريا زوجه حتى لا نظن أن يحيى جاء بطريقة أخرى، والزوجة ما تزال على حالها .

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾.

(قال) أي: الحق تبارك وتعالى ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ.. ﴾ [مريم: ٩] أي: إنه تعالى قال ذلك وقضى به، فلا تناقش في هذه المسألة، فنحن أعلم بك وما أنت فيه من كبر، وأن زوجتك عاقر، ومع ذلك سأهبك الولد.

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ.. ﴾ [مريم: ٩] وفي آية أخرى يقول في آية البعث: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.. ﴾ [الروم: ٢٧] فلا تظن أن الأمر بالنسبة لله تعالى فيه شيء هين وشيء أهون، وشيء شاق، فالمراد بهذه الألفاظ تقريب المعنى إلى أذهاننا.

والحق سبحانه يخاطبنا على كلامنا نحن وعلى منطقنا، فالخلق من موجود أهون في نظرنا من الخلق من غير موجود، كما قال الحق سبحانه تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٥].

إذن: فمسألة الإيجاد بالنسبة له تعالى ليس فيها سهل وأسهل أو صعب وأصعب، لأن هذه تُقال لمن يعمل الأعمال علاجًا، ويُزاولها مُزاولة، وهذا في أعمالنا نحن البشر، أما الحق تبارك وتعالى فإنه لا يعالج الأفعال، بل يقول للشيء كُن فيكون: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

ثم يُدلل الحق سبحانه وتعالى بالأقوى، فيقول: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٩] فلأن يوجد يحيى من شيء أقل غرابة من أن أوجد من لا شيء ا.هـ.

وها هو إبراهيم - عليه السلام- لما بلغ من الكبر عتيًا، اشتاق إلى الولد، فقال:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - :

«أي: هب لي ولداً صالحًا من الصالحين» اهـ.

فاستجاب له ربه:

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

الأمر الثالث: لينفعه بعد موته:

قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» رواه مسلم.

وقد يكون الولد الصالح سببًا في رفع درجة الوالدين في الجنة!! فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«**إن الله عز وجل ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا ربي أنى لي هذه .؟ فيقول: باستغفار ولدك لك**»[(١)].

عن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة: إنه قد مات لي ابنان، فما أنت مُحدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا؟ قال: قال: نعم: «صغارهم دعاميص[(٢)] الجنة، يتلقى أحدُهم أباه- أو قال: - أبويه - فيأخذ بناصية ثوبه أو بيده كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا [(٣)]، فلا يتناهى حتى يُدخله الله وأباه الجنة» رواه مسلم.

وعن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: رواه أحمد والطبراني.

(٢) دعاميص: جمع دعموص أي: صغار أهلها، وأصل الدعموص دويبة تكون في الماء لا تفارقه، أي إن الصغير لا يفارقها.

(٣) صنفة الثوب: حاشيته وطرفه.

«**ما من مُسلمين يتوفى لهما ثلاثة من الولد إلا أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته إياهم**»، قالوا: يا رسول الله، أو اثنان؟ قال: «**أو اثنان**». قالوا: أو واحد؟ قال: «**أو واحد**» ثم قال:

«**والذي نفسي بيده إن السقط ليجر أمه بسرره إلى الجنة**[1] إذا احتسبته».

وعن قُرة بن إياس: أن رجلاً كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابن له، فقال له النبي: «**أتحبه؟**». قال: نعم يا رسول الله أحبك الله كما أحبه، ففقده النبي ﷺ فقال: «**ما فعل فلان بن فلان؟**» قالوا: يا رسول الله مات، فقال النبي ﷺ لأبيه: «**ألا تحب أن لا تأتي بابًا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟**».

فقال رجل: يا رسول الله أله خاصة أم لكلنا؟.

قال: «**بل لكلكم**»[2].

وعن بعض أصحاب النبي ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«**إنه يقال للولدان يوم القيامة: ادخلوا الجنة، فيقولون: يا رب، حتى تدخل آباؤنا وأمهاتنا، قال: فيأبون، قال: فيقول الله - عز وجل- ما لي أراهم محبنطئين**[3]**، ادخلوا الجنة، قال: فيقولون: يا رب آباؤنا، فيقول: ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم**»[4].

قصة:

يقول الأستاذ: مصطفى صادق الرافعي[5]:

---

(١) السرر: هو ما تقطعه القابلة- الخاتنة- وما بقي بعد القطع فهو السرة.

(٢) **حديث صحيح**: رواه أحمد (٤/ ١٣٢)، والترمذي (١٠٨٣)قال المنذري: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. الترغيب برقم (٣٠٠٥).

(٣) المحبنطئ: المغضب المستبطئ للشيء.

(٤) قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات «المجمع» برقم (٤٠٠٠).

(٥) نقلاً عن «وحي الرسالة» له، والعودة إلى الإيمان للشيخ: الباقوري (٣٩-٤٦).

«ذات يوم فرغ أبو يحيى «مالك بن دينار»- رحمه الله- من كتابة المصحف، ثم خرج من داره إلى المسجد، فأتاه فصلى بالناس الفريضة وجلسوا هم ينتظرونه، واستوى هو قائمًا فركع وسجد ما شاء الله له أن يركع ويسجد، ثم انفتل [1] من صلاته، فقام إلى اسطوانته التي يستند إليها، وتحلق الناس حوله جموعًا خلف جموع يذهب فيهم البصر مرة هنا ومرة هناك من كثرتهم وامتدادهم حتى تغطي بهم المسجد على سعته وامتداد آفاقه، ومد الإمام عينيه في الناس ثم أطرق إطراقة طويلة والقوم كأن على رءوسهم الطير مما سكنوا لهيبته، ومما عجبوا لخشعته، ثم رفع الشيخ برأسه وقد تعلقت بجفنيه دمعة، وأشرقت على شفتيه ابتسامة، فبدر شاب حدث فسأله ما بكاء الشيخ؟! وكان الفتى قريبًا من الإمام، يجلس في الخط الذي يمتد فيه بصره. فتأمله الشيخ طويلاً يقلب فيه طرفه كالمتعجب، ثم لبث لا يجيبه كأنما أخذته عن نفسه حال لا يثبت معها شيء فما يرى، وازداد الناس عجبًا، إذ كانوا لم يجربوا عليه من قبل عيًّا[2] ولا حصرًا؛ وإذ كان هو لم يقطعه سؤال قط، ولا تخلف عن جواب قط!.

فقال الناس في أنفسهم: إن للشيخ لشأنًا، ولابد أن يكون من وراء صمته هذا شعاب في نفسه تعتلج فيها معان، وتعترك ذكريات، ولم يلبث الإمام أن تبسم إلى الناس، ثم قال: لقد حضرتني ذكرى فبكيت، وتمثلت رؤيا فتبسمت.

فأما الذكرى: فكانت حول «الحسن البصري» وأنتم تعرفون الحسن البصري، تعرفون أنه العالم الزاهد الورع، وأنه كان مولى لآل أبي أيوب الأنصاري، وأن أمه كانت «أمة» لأم سلمة زوج النبي ﷺ، فكانت ربما غابت فتعطيه أم سلمة

---

(١) انفتل: انصرف.

(٢) العي: الحصر في الكلام .

ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه، فربما در ثديها له فشرب، فالناس يرون أن الحكمة والفصاحة والزهادة إنما هي من بركة ذلكم الثدي الكريم، ثم لعلكم لم تنسوا ما يصفه به الواصفون من أنه كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميم!![١].

وإذا جلس فكأنما يتهيأ لتُضرب عُنقه[٢]، وإذا ذُكرت النار فكأنما لم تُخلق إلا له!! ولقد كان الحسن على ذلك، شيخًا لي أفزع إليه كلما مسني هم، أو نزلت بي شدة.

فلما ذكرته في مجلسي هذا وتمثلت ما كان يحيطه به أعداؤه من ألوان الدس والكيد رحمته، فهذه هي الذكرى التي بكيت لها.

وأما الرؤيا: التي تبسمت لها حين تمثلتها؛ فإني مخبركم عنها في قصة لتنتفعوا عني بما أقول:

«كنت في صدر أيامي «شرطيًّا» وكنت آنئذ في إبان الحداثة أتفتى وأتشطر، وكنت قويًّا معصوبًا في مثل خلقة الجبل من غلظ وشدة، وكنت شديد القسوة حتى كأن بين أضلاعي صخرة لا قلبًا، فلا أتأثم ولا أتحرج، وكنت مدمنا على «الخمر» ؛ لأنها روحانية شيطانية يبتغي السعادة فيها من عجز أن يحصل السعادة من روحانية ربانية.

فبينما أنا ذات يوم أجول في السوق أرقب السارق وأعد الجاني وأتهيأ للنزاع، إذ رأيت اثنين يتخانقان!! وقد خنق أحدهما الآخر، فأسرعت إليهما، وإذا المظلوم الضعيف يقول للظالم القوي: لقد سلبتني فرح بنياتي، وسيدعون عليك، ولن تصيب بعد ذلك خيرًا أبدًا، فإنني ما خرجت إلى هذا السوق إلا

(١) الحميم: الصاحب.

(٢) من شدة الخوف من الله تعالى.

اتباعًا لقول رسول الله ﷺ : **«ما خرج مسلم إلى سوق فاشترى منها شيئًا فحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور إلا نظر الله إليه نظرة رضا ورحمة»**.

وقد كنت آنئذ عزبًا لا زوجة لي أسكن إليها، فانتبهت الأدمية بين جوانحي، وقد طمعت في دعوة صالحة من البنيات المسكينات إذا أنا أدخلت عليهن فرحة، فأخذت للرجل من غريمه حتى رضي، وأضعفت له من ذات يدي لأزيد في فرح بناته، وقلت له وهو ينصرف من السوق: عهد يحاسبك الله عليه ويستوفيه لي منك إلا جعلت بناتك يدعون لي إذا رأيت فرحتهن بما تحمل إليهن، وقل لهن: «مالك بن دينار».

وبت ليلتي هذه أتقلب من شدة الفكر في قول رسول الله ﷺ وفي معانيه الكثيرة التي تحث على إكرام البنات- والتي تقرر: أن من أكرم بناته حرصًا على أن ينشأن كريمات فرحات فقد كرم على ربه!!.

وما زال هذا الحديث نجوى روحي، وملء نفسي طوال ليلتي تلك إلى الصباح، وفكرتُ حينئذ في الزواج، ولما كنت أعلم أن الناس لا يزوجونني من طيباتهم ما دمت من الخبيثين، لم أجد بدًا من الاتجاه إلى سوق الجواري.

فمضيت إلى السوق واشتريت جارية نفيسة وقعت مني من أحسن موقع، ولدت لي بنتًا شغفت بها أعظم شغف، وقد ظهرت لي فيها الإنسانية الكبيرة التي لم تكن لمثلي، فرأيت بعد ما بيني وبين صورتي الأولى.

رأيتها سماوية لا تملك شيئًا سوى أبيها وأمها، فليس لها من الدنيا إلا شبع بطنها، ثم لها بعد ذلك سرور نفسها تشب عليه أكثر مما تشب على الرضاع، فعلمت من ذلك أن الذي تكتنفه رحمة الله فملك بها نفسه ما كان ينبغي له بعد ذلك أن يأسى إذا فاتته دنيا غيره، كما علمت أن الذي يجد طهارة قلبه لابد أن يجد سرور ذلك القلب، وأن الذي لا يبالي بالهم لا يبالي الهم به!

كانت البنية بدء حياة في بيتي وبدء حياة في نفسي، فلما دبت على الأرض ازددت لها حبًّا وبها إلفًا، فرزق روحي منها أطهر صداقة في صديق تتجدد للقلب كل يوم بل كل ساعة، ولا تكون إلا لمحض سرور القلب دون مطامعه، فتمده بالحياة نفسها لا بأشياء الحياة.

وجهدت أن أترك «الخمر» فلم استطع إذ كنت منهمكًا على شربها، ولكن حبي ابنتي وضع في الخمر الآثام التي وضعتها فيها شريعة الله فكرهتها أشد كره، ومع ذلك كنت أعكف عليها، غير أنني كلما وضعت المسكر وهممت به دبت بنيتي إلى مجلسي هذا، ثم جاءت فجاذبتني الكأس حتى تريقها على ثوبي!! فلا أغضب إذ كان هذا يسرها ويضحكها فأراني أسر لذلك وأضحك! ودام هذا مني ومنها، فأصبحت في المنزلة بين المنزلتين: أشرف مرة، وأترك مرارًا.

إذا كانت النشوة بابنتي أكبر من النشوة بزجاجتي.

وإذ كنت كلما رجعت إلى نفسي استعيذ بالله أن تعقل ابنتي معنى الخمر يومًا فتقتدي بي، فأكون قد بخست أيامها ثم أتقدم إلى الله وعلى ذنوبها فوق ذنوبي، فإذا ترحم الأولاد على آبائهم وجدتها تلعنني!!

وعلى هذه الظنون وأحاديث النفس مضيت وأنا أصلح من أمري شيئًا فشيئًا، وكلما كبرت بنتي كبُرت فضيلتي، فلما تم لها عامان ماتت!!

فكدني الحزن عليها، ولم يكن لي من قوة الروح ووثاقة الإيمان ما أتأسى به وألجأ إليه، فضاعف الجهل أحزاني، وجعل مصيبتي مصائب، فرجعت من ذلك إلى شر ما كنت فيه، وكانت أحزاني أفراح الشيطان فأراد -أخزاه الله- أن يفتن في أساليب فرحه بي وقد عدت إلى جواره، واستلقيت في رحابه!

فلما كانت ليلة «النصف من شعبان»[١]، وكانت ليلة جمعة سول لي - لعنه الله- أن أسكر سكرة ما مثلها سكرة، فبت كالميت مما ثملت[٢]، وتقاذفتني أحلام وأحلام، ثم رأيت القيامة والحشر وقد ولدت القبور من فيها، وسبق الناس وأنا معهم وليس وراء ما بي من الكرب غاية، وسمعت خلفي زفيرًا أشبه بصوت الأفاعي، فالتفت فإذا تنين[٣] عظيم ما يكون أعظم منه، طويل كالنخلة السحوق يرسل الموت من عينيه الحمراوين كالدم، وفي فمه مثل الرماح من أنيابه، ولجوفه حر شديد لو زفر به على الأرض ما نبتت فيها خضراء، وقد فتح فاه ونفخ جوفه وجاء مسرعًا يريد أن يلتقمني، فمررت بين يديه هاربًا فزعًا وإذا بشيخ هرم يكاد يموت من الضعف والهزال فعذت به أقول: أجرني أجارك الله!

فقال: أنا ضعيف كما ترى، ولست أقدر على هذا الجبار، فأسرع مبتعدًا عنه، فلعل الله أن يسبب لك أسبابًا للنجاة.

فوليت هاربًا، وأشرفت على النار وهي الهول الأكبر، فرجعت هاربًا والتنين على أثري!

ولقيت ذلك الشيخ مرة أخرى، فاستجرت به، فبكى من الرحمة لي وهو يقول: «أنا ضعيف كما ترى، وما أقدر على هذا الجبار، ولكن اهرب إلى هذا الجبل فلعل الله يحدث لك أمرًا».

فنظرت فإذا الجبل تقوم عليه دار عظيمة لها نوافذ وشبابيك عليها ستور، فأسرعت إليها والتنين من ورائي! فلما شارفت الجبل فتحت النوافذ ورفعت

---

(١) قال ﷺ: «يطلع الله إلى جميع خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن» رواه ابن حبان وغيره، وقال الألباني: صحيح الصحيحة (١١٤٤).

(٢) ثملت: تجرعت وشربت.

(٣) التنين: الثعبان الضخم.

الستور وأشرفت على وجوه أطفال كالأقمار، وقرب التنين مني، وصرت في هواء جوفه وهو يتضرم علي حتى إذا لم يبق إلا أن يأخذني، تصايح الأطفال جميعًا: يا فاطمة يا فاطمة.

وإذا ابنتي التي ماتت قد أشرفت، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكت، ثم وثبت كالقذيفة، فجاءت بين يدي ومدت إلي شمالها، فتعلقت بها، ومدت إلى التنين يمينها فولى هاربًا!! ثم أجلستني، وأنا كالميت من الخوف والفزع، ثم قعدت في حجري كما كانت تصنع في الحياة، وضربت بيدها على لحيتي وقالت: يا أبت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾[١].

فبكيت وقلت: يا بنية أخبريني عن هذا التنين الذي أراد هلاكي؟ قالت: ذلك عملك السوء الخبيث، أنت قويته حتى بلغ هذا الهول الهائل، والأعمال هنا ترجع أجسامًا كما رأيت.

قلت: فذاك الشيخ الضعيف الذي استجرت به فلم يجرني؟ قالت: يا أبت، ذلك عملك الصالح، أنت أضعفته فضعف حتى لم تكن له طاقة أن يرد عنك عملك السيء، ولو لم أكن لك هنا، ولو لم تكن اتبعت قول رسول الله ﷺ فيمن فرح بناته المسكينات الضعيفات، ما كانت لك هنا شمال تتعلق بها، ويمين تطرد عنك التنين؟

ثم انتبهت من نومي فزعًا ألعن ما أنا فيه ولا أراني أستقر كأني طريد عملي السيء! كلما هربت منه هربت إليه.

وأين المهرب من الندم الذي كان نائمًا في القلب واستيقظ القلب؟ ولكنني أملت في رحمة الله أن أربح من رأس مال خاسر، وقلت في نفسي: إن يومًا

(١) [الحديد: ١٦].

باقيًا من العمر هو للمؤمن عمره ما كان ينبغي أن يستهين به، وصممت على التوبة لأرجع الشباب إلى ذلك الشيخ الضعيف الذي رأيته في المنام أُسمن به لحمه وأقوي به عظمه، حتى إذا استجرت به أجارني ولم يقل: «أنا ضعيف كما ترى!».

سألت عن سبيل التوبة النصوح فدلني الناس على «الحسن البصري» الذي كانت حلقته هنا في المسجد، وقيل لي: إنه جمع كل علم وفن إلى ورع وزهد وعبادة، وإن لسانه السحر، وإن شخصه المغناطيس، وإنه ينطق بالحكمة كأن صدره إنجيلاً لم ينزل، وغدوت إلى المسجد والحسن في حلقته يقص ويتكلم، فجلست حيث انتهى المجلس، فلم يك غير بعيد حتى عرتني هزة كنفضة الحُمى، إذ سمعت الشيخ يقرأ تلك الآية التي قرأتها على ابنتي في المنام: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾[1] .

فلو لفظتني الأرض من بطنها وانشق القبر عني بعد الموت ما رأيت الدنيا أعجب مما رأيتها في تلك الساعة! وأخذ الحسن يفسر الآية الكريمة.

هذه هي قصة توبة «مالك بن دينار» - رحمه الله تعالى-، كما ذكرها الرافعي- رحمه الله-.

تنبيه: «الحديث الوارد في القصة لم أجده في المصادر التي بين يدي، وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ قال:

«من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار».

الأمر الرابع: نيل الثواب:

الإنفاق على الأولاد له ثواب كبير، وفضل عظيم، والدليل:

١-عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«دينار أنفقته في سبيل**

---

(١) [الحديد: ١٦].

الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك». رواه مسلم.

٢-وعن ثوبان ﷺ مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على فرسه في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله»**. قال أبو قلابة: بدأ بالعيال، ثم قال أبو قلابة: أي رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم الله، أو ينفعهم الله به ويغنيهم؟ رواه مسلم والترمذي.

٣-وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له: **«وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك»**. رواه البخاري ومسلم في حديث طويل.

٤-وعن ابن مسعود البدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة»**. رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

٥-وعن المقدام بن معد يكرب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة»**. رواه أحمد بإسناد جيد.

٦-وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«اليد العليا أفضل من اليد السفلي، وابدأ بمن تعول: أمك، وأباك، وأختك وأخاك وأدناك فأدناك»**. رواه الطبراني بإسناد حسن، وهو في الصحيحين، وغيرهما بنحوه من حديث حكيم بن حزام، وتقدم.

٧-وعن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أنفق على نفسه**

نفقة يستعف بها فهي صدقة، ومن أنفق على امرأته وولده، وأهل بيته فهي صدقة». رواه الطبراني بإسنادين أحدهما حسن.

٨-وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه: «**تصدقوا**» فقال رجل: يا رسول الله! عندي دينار، قال: «**أنفقه على نفسك**». قال: إن عندي آخر، قال: «**أنفقه على زوجتك**». قال: إن عندي آخر، قال: «**أنفقه على ولدك**». قال: إن عندي آخر، قال: «**أنفقه على خادمك**». قال: عندي آخر، قال «**أنت أبصر به**». رواه ابن حبان في صحيحه. وفي رواية له: تصدق بدل أنفق في الكل.

٩-وعن كعب بن عُجرة رضي الله عنه قال: مر على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «**إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان**». رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

الأمر الخامس: متابعة هدي الأنبياء:

قال الحق - سبحانه -:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[1] .

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله -:

وأنت يا محمد لست بدعًا من الرسل في مسألة الزواج والإنجاب. وهي تحمل الرد على من قالوا:

(١) [الرعد: ٣٨].

﴿مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

ومنهم من قال: ما لهذا الرسول يتزوج النساء؟ ألم يكن من اللائق أن يتفرغ لدعوته؟

وهؤلاء الذين قالوا ذلك لم يستقرئوا الموكب الرسالي، لأنهم لو فعلوا لوجدوا أن أغلب الرسل قد تزوجوا وأنجبوا.

وحين تكون حياة الرسول قريبة - كمثال واضح- من حياة الناس الذين أرسل إليهم ؛ ليكون أسوة لهم؛ فالأسوة تتأتى بالجنس القابل للمقارنة ؛ وحين تكون حياة الرسول كحياة غيره من البشر في إطارها العام؛ كأب وزوج، فالأسوة تكون واضحة للناس.

ونعلم أن هناك من جاء إلى رسول الله؛ ليطلب الإذن بالتفرغ التام للعبادة من: صوم وصلاة وزُهد عن النساء، فنهى الرسول ﷺ عن ذلك وقال في حديث شريف:

«إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

١-عن أنس بن مالك ﷺ قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا، كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ، قد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: أنا أصوم ولا أفطر، وقال آخر: أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً.

فجاء رسول الله ﷺ فقال: **«أنتم الذين قُلتم كذا وكذا؟ أي والله إني**

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأُصلي وأرقُد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

والرهط: الجماعة، و «تقالوها» عدوها قليلة. ومعنى: «فليس مني»: يعني فليس على سنتي وطريقتي وهداي.

الأمر السادس: السعي في محبة رسول الله ﷺ ورضاه بتكثير ما به مباهاته:

إذا قد صرح رسول الله ﷺ بذلك:

فعن معقل بن يسار، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال:

إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها؟ قال: «لا» ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: **«تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم»**[(١)].

❋ ❋ ❋

(١) حديث حسن صحيح: رواه أبو داود.

المرأة المسلمة والغربية

ولذلك حين نقارن البيئات الإسلامية بالبيئات الغربية، نرى أن المرأة والضجة حولها تحوم ما دامت في نضارتها وما دامت في كامل أنوثتها، وتوظف الوظائف الرائعة الراقية، ولكنها حين يتغضن وجهها وحين يبيض شعرها، ويذهب بهاؤها، تغسل الأطباق، ولا يوجد ولد - حتى من أبنائها - يحن عليها، لأنهم كانوا يأخذونها زينة وكانوا يأخذونها متعة، ولما ذهبت نضارتها وجمالها، انتهى كل شيء، وربما تمر الأعوام الكثيرة والولد لا يرى أمه، ولا يعرف كيف تعيش، وربما ذهبت إلى ملجأ من الملاجئ لتعيش فيه.. لماذا؟ لأنه - والجميل لها- في سن ١٤ يقولون للبنت هيا اكسبي معاشك بنفسك، ويقولون للولد: هيا اكسب معاشك. إذن فلم يذوقوا منهم الحنان. ولذلك فهؤلاء معذورون في أن يجعلوا لهم عيدًا يسمونه عيد الأم، لأن عندهم جفافًا بين الأمومة وبين البنوة إلا في يوم واحد في العام حيث تستطيع الأم أن ترى فيه أولادها. ونحن ليس لدينا عيد الأم، فكل لحظة من اللحظات عيد أم والأم عندنا تكبر ويبيض شعرها، تزيد في نظرنا جمالاً، وتزيد في نظرنا إعزازًا، وندخل لنقول لها: «لا تعملي أي عمل، أنت تجلسين فقط على فرشة الصلاة» ويتراضاها الكل، الولد يتراضاها، والحفيد يتراضاها وتصبح سيدة البيت الموقرة. إذن هم معذورون في أن يبحثوا عن عيد للأم، ولكن نحن لا فكل لحظاتنا أعياد أم، فتشريعنا كالآتي: «توصيني بمن يا رسول الله؟ فيقول ﷺ: «**أمك ثم أمك ثم أمك**»، هذا هو الدين الإسلامي، أما الغرب فالمرأة فيه تحتاج إلى أعياد يتذكر فيها الولد أمه فيحضر لها هدية، أما نحن فعيدنا في كل لحظة حيث لا يخرج الواحد منا من بيته إلا بعد أن يقبل يد أمه، ويسألها الدعوات، ويجلس عند قدميها، ويسألها عن صحتها، وكلما

ابيـض شعـرهـا، وكلما زادت في الكبـر تزيـد في قلبـه حبًّا وهيامًا وعشقًا.

هذا هو وضعنا بالنسبة للمرأة فإذا ما أتينا للإسلام في أي جانب من جوانبه نجده يتدخل بتشريعه في عمليات النزوع.

❋ ❋ ❋

الباب الثاني

صفات الزوج الصالح

الصفة الأولى: حسن الاختيار

دعا الإسلام إلى انتقاء المرأة الصالحة، واختيار الزوج الصالح، فقال الحق -سبحانه-:

﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله -في خواطره حول هذه الآية:

«أراد أن يتكلم عن هؤلاء الرجال أو النساء الذين لم يتيسر لهم أمر الزواج؛ ذلك ليعالج الموضوع من شتى نواحيه؛ لأن المشرع لابُد أن يستولى بالتشريع على كل ثغرات الحياة فلا يعالج جانبًا ويترك الآخر.

و﴿الأَيَامَى..﴾ [النور: ٣٢] جمع أيم، والأيم من الرجال من لا زوجة له، والأيم من النساء من لا زوج لها.

ونلحظ أن الأمر في ﴿أَنكِحُوا ..﴾ [النور: ٣٢] جاء هكذا بهمزة القطع، مع أن الأمر للواحد (انكح) بهمزة الوصل، ذلك لأن الأمر هنا (أنكحوا) ليس للمفرد الذي سينكح الأيم، إنما لغيره أن يُنكحه، والمراد أمر أولياء الأمور ومن عندهم رجال ليس لهم زوجات، أو نساء ليس لهن أزواج: عجلوا بزواج هؤلاء، ويسروا لهم هذه المسألة، ولا تتشددوا في نفقات الزواج حتى تعفوا أبناءكم وبناتكم، وإذا لم تعينوهم فلا أقل من عدم التشدد والمغالاة.

وفي الحديث الشريف: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»[2].

---

(١) [النور: ٣٢].

(٢) حديثٌ حسنٌ: رواه الترمذي (١٠٨٤) بلفظ: «**إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه** =

ومع ذلك في مجتمعاتنا الكثير من العادات والتقاليد التي تعرقل زواج الشباب أخطرها المغالاة في المهور وفي النفقات والنظر إلى المظاهر .. إلخ وكأن الحق- تبارك وتعالى- يقول لأولياء الأمور: يسروا للشباب أمور الالتقاء الحلال ومهدوا له سبيل الإعفاف.

وقد أعطانا القرآن نموذجًا لما ينبغي أن يكون عليه ولي الأمر، فقال تعالى عن سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ..﴾ [القصص: ٢٧] ذلك لأن موسى- عليه السلام- سيكون أجيرًا عنده، وربما لا يتسامى إلى أن يطلب يد ابنته ؛ لذلك عرضها عليه وخطبه لها وشجعه على الإقبال على زواجها، فأزال عنه حياء التردد، وهكذا يجب أن يكون أبو الفتاة إن وجد لابنته كفؤًا، فلا يتردد في إعفافها.

وقوله تعالى: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ..﴾ [النور: ٣٢].

وقوله ﷺ : «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، وجمالها، وحسبها ودينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك**»[(١)].

ولما سُئل الحسن رضي الله عنه عن مسألة الزواج قال لوالد الفتاة الذي جاء يستشيره: زوجها من تأمنه على دينه، فإن أحب ابنتك أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها. وماذا يريد الإنسان في زوج ابنته أكثر من هذا؟

فالدين والخُلق والقيم السامية هي الأساس الذي يُبنى عليه الاختيار، أما المال فهو شيء ثانوي وعرض زائل؛ لذلك يقول تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

فالفقر قد يكون سببًا في عدم الإقبال على البنت، أو عدم إقبال أهل البنت

= **فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**».

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

على الزوج، لكن كيف يتخلى الله عنا ونحن نتقيه ونقصد الإعفاف والطهر؟ لا يمكن أن يضن الله على زوجين التقيا على هذه القيم واجتمعا على هذه الآداب، ومن يدريك لعل الرزق يأتي للاثنين معًا، ويكون اجتماعهما في هذه الرابطة الشرعية هو باب الرزق الذي يفتح للوجهين معًا؟

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢] فعطاء الله دائم لا ينقطع؟ لأن خزائنه لا تنفد ولا تنقص، والإنسان يمسك عن الإنفاق؛ لأنه يخاف الفقر، أما الحق- تبارك وتعالي- فيعطي العطاء الواسع؛ لأن ما عنده لا ينفد» اهـ.

وحذر الإسلام من الزواج من صنفين:

الأول: أهل الشرك:

قال تعالى:

﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١).

إن الحق يقول: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾، وهذه أول لبنة في بناء الأسرة وبناء المجتمع، لأنها لو لم تكن مؤمنة، فماذا سوف يحدث؟ إنها ستشرف على تربية الطفل الوليد إشرافًا يتناسب مع إشراكها، وأنت مهمتك كأب ومرب لن تتأتى إلا بعد مدة طويلة تكون فيها المسائل قد غُرست في الوليد، فإياك أن يكون الرجل مؤمنًا والمرأة مشركة ؛ لأن هذا يخل بنظام الأسرة فعمل الأم مع الولد يؤثر في أوليات تكوينه إنه يؤثر في قيمه، وتكوين أخلاقه. وهذا أمر يبدأ من لحظة أن يرى ويعي، والطفل يقضي سنواته الأولى في حضن أمه،

(١) [البقرة: ٢٢١].

وبعد ذلك يكبر؛ فيكون في حضن أبيه، فإذا كانت الأم مشركة والأب مؤمنًا فإن الإيمان لن يلحقه إلا بعد أن يكون الشرك قد أخذ منه وتمكن وتسلط عليه.

ونعرف أن الطفولة في الإنسان هي أطول أعمار الطفولة في الكائنات كلها، فهناك طفولة تمكث ساعتين اثنتين مثل طفولة الذباب، وهناك طفولة أخرى تستغرق شهرًا، وأطول طفولة إنما تكون في الإنسان؛ لأن هذه الطفولة مناسبة للمهمة التي سيقوم بها الإنسان، كل الطفولات التي قبلها طفولات لها مهمة سهلة جدًّا، إنما الإنسان هو الذي ستأتي منه القيم، لهذا كانت طفولته طويلة؛ إنها تستمر حتى فترة بلوغ الحلم. والحق هو القائل:

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ٥٩].

فكأن الطفل يظل طفلاً إلى أن يبلغ الحلم، فكم سنة إذن ستمر على الطفل؟ وكم سنة سوف يتغذى هذا الطفل من ينابيع الشرك إن كانت أمه مشركة؟ إنها فترة طويلة لا يمكن له من بعد ذلك أن يكون مؤمنًا غير مضطرب الملكات. وإن صلح مثل هذا الإنسان أن يكون مؤمنًا فسيقوم إيمانه على القهر والقسر والولاية للأب، وسيكون مثل هذا الإيمان عملية شكلية ليست مرتكزة ولا معتمدة على أساس صادق.

ونحن نعرف أن الثمرات التي ننعم نحن بأكلها لا يكون نضجها إلا حين تنضج البذرة التي تتكون منها شجرة جديدة، وقبل ذلك تكون مجرد فاكهة فجة وليس لها طعم. وقد أراد الحق أن ينبهنا إلى هذا الأمر ليحرص الإنسان على أن يستبقى الثمرة إلى أن تنضج ويصير لها بذور.

إن المرأة لا تكون ثمرة طيبة إلا إذا أنجبت مثلها ولدًا صالحًا نافعًا، يريد الحق للنشء أن يكون غير مضطرب الإيمان؛ لذلك يقول: ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ

حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ أي إياكم أن تنخدعوا بالمعايير الهابطة النازلة، وعلى كل منكم أن يأخذ حكم الله: ﴿وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ لأن إعجاب الإنسان بالمرأة بصرف النظر عن الإيمان سيكون إعجابًا قصير العمر.

إن عمر الاستمتاع بالجمال الحسي للمرأة إن جمعنا لحظاته فلن يزيد مجموعه عن شهر من مجموع سنوات الزواج. فكل أسبوع يتم لقاء قد يستغرق دقائق وبعدها يذبل الجمال، وتبقى القيم هي المتحكمة، ونحن نجد المرأة حين تتزوج، ثم يبطئ الحمل فإنها تعاني من القلق وكذلك أهلها.

إن الرجل إن كان قد تزوجها للوسامة والقسامة والقوام والعينين، فهذا كله سيبرد ويهدأ بعد فترة، ثم توجد مقاييس أخرى لاستبقاء الحياة، وعندما يلتفت إليها الإنسان ولا يجدها فهو يغرق في الندم؛ لأنها لم تكن في باله وقت أن اختار.

لذلك تريد المرأة أن تمكن لنفسها بأن يكون عندها ولد لتربط الرجل بها، وحتى يقول المجتمع: «عليك أن تتحملها من أجل الأولاد»! فالرجل بعد الزواج يريد قيما أخرى غير القيم الحسية التي كانت ناشئة أولاً، لذلك يحذرنا الله قائلاً: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾. وجاء قوله ﴿حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ لأن الإسلام يجُبُّ ما قبله ما دامت قد آمنت فقد انتهت المسألة.

وانظروا إلى دقة قوله سبحانه: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ أي إن الأمة المسلمة خير من حرة مشركة، «ولو أعجبتكم» لقد جاء قول الحق هنا بمقاييس الإعجاب الحسي. ليلفتنا إلى أننا لا يصح أن نهمل مقاييس خالدة ونأخذ مقاييس بائدة وزائلة.

ثم يقول الحق: ﴿وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ﴾ وهذا هو النظير في الخطاب وهو ليس متقابلاً فهو لم يخاطب المؤمنات إلا ينكحن المشركين. إنما قال: ﴿وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ﴾ وتلك دقة في الأداء هنا؛ لأن

الرجل له الولاية في أن يُنكح، فيأمـره بقوله له: لا تُنكح، لكن المرأة ليس لها ولاية أن تُنكح نفسهـا. فنحن نعرف القاعدة الشرعـية التي تقول: «لا نكاح إلا بولي»، وهو لم يوجه حديثه للنساء؛ لأن المرأة تتحكم فيـها عاطفتها لكن وليها ينظر للأمر من مجموعة زوايا أخرى تحكم الموقف.

صحيح أننا نستـأذن الفتاة البكر كي نضمن أن عاطفتهـا ليست مصدودة عن هذا الزواج، لكن الأب أو ولي الأمر الرجل يقيس المسائل بمقاييس أخرى، فلو تركنا للفتاة مقـياسها لتهدم الزواج بمجرد هدوء العاطفـة، وساعة تأتي المقاييس العقلية الأخرى فلن تجـد ذلك الزواج مناسبًا لها فتفشل الحـياة الزوجية. لذلك يطالبنا الإسـلام أن نستـشيـر المرأة، كي لا نأتيـها بواحـد تكرهه، ولكن الذي يزوجها إلى ذلك الرجل هو وليها؛ لأن له المقاييس العقلية والاجتماعية والخلقية التي قد لا تنظر إليها الفتاة؛ فقد يبـهرها في الشاب قوامه وحسن شكله وجاذبية حديثه، لكن عندما تدخل المسـألة في حركة الحياة ودوامتها قـد تجده إنسانًا غير جدير بها.

ولكي تكون المسألة مـزيجًا من عاطفـة بنت، وعقل أب، وخبـرة أم، كان لابد من استشارة الفتاة، وأن يستنير الأب برأي الأم، ثم يقول الأب رأيه أخيرًا، وكل زواج يأتي بهـذا الأسلوب فهـو زواج يحالفـه التوفيـق، لأن المعايير كـلها مشتركة، لا يوجد معيار قد اختل؛ فالأب بني حكمًا على أساس موافقة الابنة، أما إذا رفضت الفـتاة وكانت معاييـر الأب صحيحة، لكن الابنـة ليس لها تقبل لهذا الرجل؛ لذلك فلا يصح أن يتم هذا الزواج.

وكثير من الزيجات قـد فشلت لأننا لم نجد من يطبق منهج الله في الدخول إلى الزواج. وحين لا يطبـقون منهج الله فـي الدخول إلى الزواج ثم يقـابلون بالفشل، فهو يصرخون منادين قواعد الإسلام لتنقذهم.

ونقـول لهم: وهل دخلتم الزواج على دين الله؟ إنكم مـا دمتم قـد دخلتم

الزواج بآرائكم المعزولة عن منهج الله فلتحلوا المسألة بآرائكم. فالدين ليس مسئولاً إلا عمن يدخل بمقاييسه، لكن أن تدخل على الزواج بغير مقاييس الله ثم تريد من الله أو من القائمين على أمر الله أن يحلوا لك المشاكل فذلك ظلم منك لنفسك وللقائمين على أمر الله. وإن لم تحدث مثل هذه المشكلات لكنا قد اتهمنا منهج الله. ولقلنا: قد تركنا منهج الله وسعدنا في حياتنا. لذلك كان لابد أن تقع المشكلات.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ هذه قضية لها سبب، لكن العبرة فيها بعموم موضوعها لا بخصوص سببها، لقد كان السبب فيها هو ما روي أنه كان هناك صحابي اسمه مرثد بن أبي مرثد الغنوي بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناسًا من المسلمين. وكان يهوى امرأة في الجاهلية اسمها «عناق» وكانت تحبه، وساعة رأته أرادت أن تخلو به فقال لها: ويحك إن الإسلام قد حال بيننا، فقالت له: تزوجني، فقال لها: أتزوجك لكن بعد أن استأمر واستأذن النبي ﷺ، فلما استأمره نزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ وقيل إن قوله تعالى: ﴿وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ نزلت في خنساء[1] وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان، فقال لها حذيفة: يا خنساء قد ذكرت في الملأ الأعلى مع سوادك ودمامتك وأنزل الله ذكرك في كتابه، فأعتقها حذيفة وتزوجها.

ويتابع الحق فيقول: ﴿وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ إن المقاييس واحدة في اختيار شريك الحياة، إنها الرغبة في بناء الحياة الأسرية على أساس من الخير، وغاية كل شيء هي التي تحدد قيمته، وليست الوسيلة هي التي تحدد قيمة الشيء، فقد تسير في

(١) الخنس: انخفاض في قصبة الأنف مع ارتفاع قليل في طرف الأنف.

سبيل وطريق خطر وغايته فيها خير، وقد تسير في سبيل مفروش بالورود والرياحين وغايته شر، ولذلك يقول الحق: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ والذين يدعون إلى النار هم أهل الشرك. أما الله فهو يدعو إلى الجنة، والمغفرة تأتي بإذن الله أي بتيسير الله وتوفيقه. ونعرف جميعًا الحكمة التي قالها الإمام «علي» كرم الله وجهه: لا خير في خير بعده النار، ولا شر في شر بعده الجنة.

وقوله الحق؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ترد كثيراً، هذا التذكر ماذا يفعل؟ إن التذكر يشعرك بأن القضية كانت معلومة والغفلة هي التي طرأت، لكن الغفلة إذا تنبهت إليها، فهي تذكرك ما كنت قد نسيته من قبل، لكن إن طالت الغفلة، ونُسي الأصل فهذه هي الطامة، التي تنطمس بها المسألة.

إذن فالتذكر يشمل مراحل: المرحلة الأولى: أن تعرف إن لم تكن تعرف، أو تعلم إن كنت تجهل، والمرحلة الثانية: هي أن تتذكر إن كنت ناسيًا، أو توائم بين ما تعلم وبين ما تعمل؛ فالتذكر يوحي لك بأن توائم ما بين معرفتك وسلوكك حتى لا تقع في الجهل، والجهل معناه أن تعلم ما يناقض الحقيقة. لقد أراد الله أن يصون الإنسان الذي اختار الإيمان عندما حرم عليه الزواج بواحدة من أهل الشرك.

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن لمن جعله خليفة في الأرض عقيدة واحدة يصدر عنها السلوك الإنساني؛ لأن العقائد إن توزعت حسب الأهواء فيستوزع السلوك حسب الأهواء. وحين يتوزع السلوك تتعاند حركة الحياة ولا تتساند .

فيريد الحق سبحانه وتعالى أن يضمن وحدة العقيدة بدون مؤثر يؤثر فيها ؛ فشرط في بناء اللبنة الأولى للأسرة ألا ينكح مؤمن مشركة ؛ لأن المشركة في مثل هذه الحالة ستتولى حضانة الطفل لمدة طويلة هي - كما قلنا- أطول أعمار

الطفـولة في الكائن الحي. ولو كان الأب مـؤمنًا والأم مشـركة فالأب سـيكون مشـغولاً بحـركة الحيـاة فتتـأصل عن طريق الأم معظم القـيم التي تتناقض مع الإيمان.

وأراد الحق سبـحانه وتعـالى أيضًا ألا تتزوج المؤمنة مـشركًـا؛ لأنها بحكم زواجها من مشرك سـتنتقل إليه وإلى بيئته المشركة وإلى أسـرته. وسينشأ طفلها الوليد في بيـئة شركية فـتتأصل فيه الأشـياء القيمـية التي تناقض الإيمان. ويريد الحق سبحانه وتعـالى بهذه الصيانة، أي بعدم زواج المؤمن من مـشركة، وبعدم زواج المؤمنة من مـشـرك، أن يحمي الحـاضن الأول للطفـولة. وحين يحـمي الحاضن الأول للطفولـة يكون الينبوع الأول الذي يصدر عنه تربية عـقيدة الطفل ينبوعًا واحدًا، فلا يتذبذب بين عقائد متعددة. لذلك جاء قول الحق:

﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

كل ذلك حتى يصون الحق البـيئة التي ينشأ فيهـا الوليد الجديد . وعلينا أن نفهم أن الحق سبحانه وتعالى رخص للمؤمنين في أن ينكحوا أهل الكتاب بقوله الحق:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥].

وقد وقف العلمـاء من مسألة ترخيص الحق للمؤمنين في أن يتزوجوا من أهل الكتاب موقفين: الموقف الأول: هو موقف مانع؛ لأن بعض العلماء رأى أن أهل الكتاب قد ينحرفون في معتقداتهم إلى ما يجعلهم في الشرك، وقالوا: وهل هناك شرك أكثر من أن تُدعى الربوبية لبشر؟ والموقف الثاني: أجاز بعض العلماء أن يتزوج الإنسان من كتابية ويجب عليه أن يسألها أهي تدين بألوهية أحد من البشر أم تدين بالله الواحد القهار؟ فإن كانت المسألة مجرد الخلاف في الرسول فالأمر يهون، أما إن كانت تؤمن بألوهية أحد من البشر بجانب الله فقد دخلت في الشرك وعلى المؤمن أن يحتاط.

وإذا كان للرجل الولاية وله أن يتزوج بكتابية فهو غالبًا ما ينقلها إلى بيئته هو وستكون البيئة المؤثرة واحدة، ووجود الولاية للأب مع الوجود في البيئة الإيمانية سيؤثر ويخفف من تأثير الأم الكتابية على أولادها، وإن كان على الإنسان أن يتيقظ إلى أن هناك مسالك تتلطف وتتسلل ناحية الشرك، فمن الخير أن يبتعد المسلم عن ذلك، وأن يتزوج ويعصم ويعف فتاة مسلمة.

وحين يحمي الحق سبحانه وتعالى الحضانة الأولى للطفل فهو يريد أن يربي في الطفل عدم التوزع، وعدم التمزق، وعدم التنافر بين ملكاته. وحين نضمن للطفل التواجد والنشأة في بيئة متآلفة فهو ينشأ طفلاً سويًّا. والإسلام يريد أن يحافظ على سوية هذا الطفل. ويقول بعض الناس: ولماذا لا نوجد محاضن جماعية؟ وكأنهم بذلك يريدون أن يحلوا الإشكال.

نقول لهم: إن الإشكال لم يحل عند الذين فعلوا ذلك من قبلنا، ولذلك فعندما نقرأ مؤلفاتهم مثل كتاب «أطفال بلا أسر» فسنجد أن الطفولة عندهم معذبة. ولماذا نذهب بعيدًا؟ إننا عندما نتتبع كيفية النشأة الجماعية للأطفال في إسرائيل فالبحوث العلمية تؤكد على أن الأطفال يعيشون في بؤس رهيب لدرجة أن التبول اللاإرادي ينتشر بينهم حتى سن الشباب.

وكيف يغيب عن بالنا أن الطفل يظل حتى تصل سنه إلى عامين أو أكثر وهو يطلب ألا يشاركه في أمه أحد، حتى وإن كان أخًا له فهو يغار منه فما بالك بأطفال متعددين تقوم امرأة ليست أمهم برعايتهم؟ ولا يغني عن حنان الأم حنان مائة مربية؛ فليس للمربيات جميعًا قلب الأم التي ولدت الطفل، فالحنان الذي تعطيه الأم ليس حنانًا شكليًّا ولا وظيفيًّا، ولكنه طبيعة حياة خلقها الله لتعطي العطاء الصحيح، لذلك لابد من إعطاء الطفل فترة يشعر فيها بأن أمه التي ولدته له وحده، ولا يشاركه فيها أحد حتى لو كان أخًا له، وتمر عليه فترة بعد أن يخرج من مهد الطفولة الأولى إلى الشارع ليجد حركة الحياة، ويجد القائمين على حركة الحياة هم الرجال وآباء أمثاله من الأطفال فيحب بعد ذلك أن يُنسب إلى أب له كيان معروف في المجتمع الخارجي.

فمن مقومات تكوين الطفل أن يشعر أن له أمًّا لا يشاركه فيها أحد، وأن له أبًا لا يشاركه فيه أحد. وإن شاركه فيهما أحد فهم إخوته ويضمهم ويشملهم جميعًا حنان الأم ورعاية الأب. لقد اعترف أهل العلم بتربية الأطفال أن احتياج الطفل لأمه هو احتياج هام وأساسي للتربية لمدة عامين وبضعة من الشهور، والحق تبارك وتعالى حين أنزل على رسوله قبل أربعة عشر قرنًا من الآن؛ القول الحكيم الصادق بين هذه الحقيقة واضحة في أجلي صورها:

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

إن الأم هي الحاضنة الطبيعية للطفل كما أرادها الحق. إذن، فالحق يريد أن يحمي اللبنة الأولى في تكوين المجتمع وهي الأسرة في البناء العقدي من أن تتأثر بالشرك، ويريد أن يحفظ للأسرة كيانًا سليمًا.

الصنف الثاني: أهل الزنا:

يقول الحق سبحانه:

﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله -:

﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً..﴾ [النور: ٣] لأن الزواج يقوم على التكافؤ حتى لا يستعلي أحد الزوجين على الآخر، والزاني فيه خسة، فلا يليق به إلا خسيسة مثله يعني: زانية، أو أخس وهي المشركة؛ لأن الشرك أخسُّ من الزنا، لأن الزنا مخالفة أمر توجيهي من الله، أما الشرك فهو كفر بالله؛ لذلك فالمشركة أخبث من الزانية. وما نقوله في زواج الزاني نقوله في زواج الزانية ﴿وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ..﴾(٢) [النور: ٢].

وهنا يعترض البعض: كيف إن كانت الزانية مسلمة: أينكحها مشرك؟ قالوا: التقابل هنا غرضه التهويل والتفظيع فقط لا الإباحة؛ لأن المسلمة لا يجوز أن تتزوج مشركًا أبدًا، فالآية توبيخ لها: يا خسيسة، لا يليق بك إلا خسيس مثلك أو أخس.

وأرى أن النص محتمل لانفكاك الجهة ؛ لأن التي زنت تدور بين أمرين: إما أنها أقبلت على الزنا وهي تعلم أنه مُحرم، فتكون عاصية باقية على إسلامها، أو أنها ردت حكم الزنا واعترضت عليه فتكون مشركة، وفي هذه الحالة يستقيم لنا فهم الآية.

ثم يقول تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣] فهذا سبب طُهر

---

(١) [النور: ٣].

(٢) أخرج الترمذي في سننه (٣١٧٧) وأبو داود في سننه (٢٠٥١) عن عبد الله بن عمرو بن =

الأنسال أن يُحرم الله تعالى الزنا، فيأتي الخليفة طاهر النسل والعنصر، محضونًا بأب وأم، مضمومًا بدفء العائلة، لا يتحـملون عليه نسمة الهواء؛ لأنه جاء من وعاء طيب طاهر نظيف.

* * *

= العاص قال: كـان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد وكان رجـلاً يحمل الأساري من مكة حتى يـأتي بهم المدينة وكانت امرأة بغي بمكة يقال لهـا عناق وكانـت صديقة لـه وأنه قال لرسول الله -ﷺ- أنكح عناقًا، أنـكح عناقًا؟ فأمسك رسول الله -ﷺ- فلم يرد علي شيْئًا حتى نزلت الآية، فـقال رسـول الله ﷺ - «**يا مـرثد، الزاني لا ينكح إلا زانيـة أو مشركة فلا تنكحها**». والحديث صحيح.

الصفة الثانية: يأمر أهله بالصلاة

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله - عقب قوله تعالى:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾[1].

هنا يعطينا الحق- تبارك وتعالى - منهجًا لإصلاح المجتمع وضمان انسجامه، منهج يبدأ بالوحدة الأولى وهو رب الأسرة، فعليه أن يُصلح نفسه أولاً، ثم ينظر إلى الوحدة الثانية، وهي الخلية المباشرة له وأقرب الناس إليه وهم أهله وأسرته، فهو مركز الدائرة فإذا أصلح نفسه، فعليه أن يُصلح الدوائر الأخرى المباشرة له.

فقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ.. ﴾ [طه: ١٣٢] لتستقيم الوحدة الأولى في بناء الكون، فإذا ما صلُحت الوحدة الأولى في بناء الكون، فأمر كل واحد أهله بالصلاة، استقام الكون كله وصلُح حال الجميع.

والمسألة هنا لا تقتصر على مجرد الأمر وتنتهي مسئوليته عند هذا الحد إنما ﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا.. ﴾ [طه: ١٣٢] لأن في الصلاة مشقة تحتاج إلى صبر، فالصلاة تحتاج إلى وقت تأخذه من حركة الحياة التي هي سبب الخير والنفع لك، فلا بد- إذن - من صبر عليها.

وفرق بين اصبر واصطبر: اصبر الفعل العادي، إنما اصطبر فيها مبالغة أي: تكلف حتى الصبر وتعمده.

ومن ذلك أن تحرص على أداء الصلاة أمام أولادك لترسخ في أذهانهم أهمية

---

(١) [طه: ١٣٢].

الصلاة، فمثلاً تدخل البيت فتجد الطعام قد حضر فتقول لأولادك: انتظروني دقائق حتى أصلي، هنا يلتفت الأولاد إلى أن الصلاة أهم حتى من الأكل، وتغرس في نفوسهم مهابة التكليف، واحترام فريضة الصلاة، والحرص على تقديمها على أي عمل مهما كان.

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يقوم من الليل يصلي ما شاء الله له أن يصلي حتى يؤذن للفجر، فيُوقظ أهله للصلاة فإن أبوا رش في وجوههم الماء[1]؛ لأن الصلاة خير من النوم، فالنوم في مثل هذا الوقت فيه راحة للبدن، أما الصلاة فهي أفضل وأعظم، ويكفي أنك تكون فيها في حضرة الله تعالى.

وهب أن رب الأسرة غاب عنها لمدة شهر أو عام، ثم فجأة قالوا: أبوكم جاء، فترى الجميع يُهرولون إليه، وهكذا لله المثل الأعلى، إذا دعاك، فلا تتخلف عن دعوته، بل هرول إليه، وأسرع إلى تلبية ندائه، ولك أن تتصور واحداً يناديك وأنت لا ترد عليه ولا تجيبه، أعتقد أنه شيء غير مقبول، ولا يرضاه صاحبك.

إذن: عليك أن تُعود أولادك احترام هذا النداء، وبمجرد أن يسمعوا «الله أكبر» يُلبون النداء، لا يُقدمون عليه شيئًا آخر، فالله لا يبارك في عمل ألهاك عن نداء (الله أكبر)؛ لأنك انشغلت بالنعمة عن المنعم عز وجل.

لذلك، إن أردت أن تعرف خير عناصر المجتمع فانظر إلى أسبقيتهم إلى إجابة نداء (الله أكبر)، فإن أردت أن تعرف من هو أعلى منه منزلة، فانظر إلى

---

(١) أخرج ابن ماجة في سننه (١٣٣٦) عن أبي هريرة قال قال ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت رش في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى، فإن أبى رشت في وجهه الماء».

آخرهم خروجًا من المسجد، وليس كذلك من يأتي الصلاة دُبرًا، وبمجرد السلام يسرع إلى الانصراف.

ويُروى أن سيدنا رسول الله ﷺ عاب على أحد الصحابة إسراعه في الانصراف من المسجد بعد السلام، فتعمد رسول الله أن يناديه في إحدى المرات، قال «أزهدًا فينا»؟

وهل هناك من يزهد في رؤية رسول الله والجلوس معه؟ فقال الرجل: لا يا رسول الله، ولكن لي زوجة بالبيت تنتظر ثوبي هذا لتصلي فيه، فيدعو له رسول الله، وينصرف الرجل إلى زوجته، فإذا بها تقول له: تأخرت بقدر كذا تسبيحة، فقال: لقد استوقفني رسول الله وحدث كذا وكذا، فقالت له: شكوت ربك لمحمد؟

ثم يقول تعالى: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ..﴾ [طه: ١٣٢] إذن: ما الذي يشغلك عن حضرة ربك، الرزق؟ ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ..﴾ [طه: ١٣٢] فالذي لا يستطيع العمل نُوجه إليه من الأغنياء من يطرق بابه ويعطيه، فالغنى شرط في إيمانه الفقير، وليس شرطًا في إيمان الفقير الغني.

وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ضرورة البحث عن الفقير، والطرق على بابه لإعطائه حقه في مال الغني، لا ينتظره حتى يسأل، ويُريق ماء وجهه وهو يطلب حقًّا من حقوقه في مجتمع الإيمان.

وقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ..﴾ [طه: ١٣٢] أي: لا نسألك رزقًا ثم نتركك، إنما لا نسألك ثم نحن نرزقك، فاطمئن إلى هذه المسألة.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢] لأنك إذا تأزمت معك أمور الحياة تلجأ إلى الله، كما كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة، وتأزم الأمور يأتي حينما نفقد نحن الأسباب المعطاة من الله، فإذا فقدت الأسباب

وضاقت بك الحيل لم يبق لك إلا أن تلجأ إلى المسبب سبحانه، كما يقول في آية أخرى:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ..﴾ [الطلاق: ٢، ٣] ا. هـ.

وقال الحق - سبحانه- حكاية عن إسماعيل عليه السلام:

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًا﴾[1].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله- عقب هذه الآية:

أي: من خصال إسماعيل العظيمة التي ذكرها الله تعالى له: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ..﴾ [مريم: ٥٥] أي: زوجته. والحق تبارك وتعالى لا يهتم بخصلة ولا يذكرها إلا إن كانت كبيرة عنده، تساوي كونه صادق الوعد وكونه رسولاً ونبيًا، فمن أراد أن يتصف بصفة من صفات النبوة، فعليه أن يأمر أهله بالصلاة والزكاة.

لكن، لماذا اختص أهله بالذات؟ اختص أهله لأنهم البيئة المباشرة التي إن صلحت للرجل صلُح له بيته، وصلحت له ذريته، إذا كان الرجل يلفت أهله إلى ذكر الله والصلاة خمس مرات في اليوم والليلة فإنه بذلك يسد الطريق على الشيطان، فليس له مجال في بيت يصلي أهله الخمس صلوات.

لذلك فالنبي ﷺ يقول: **«رحم الله امرأ استيقظ من الليل، فصلى ركعتين ثم أيقظ أهله فإن امتنعت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ركعتين، ثم أيقظت زوجها، فإن امتنع نضحت في وجهه الماء»**[2].

---

(١) [مريم: ٥٥].

(٢) حديث صحيح. أخرجه أحمد «مسنده» (٢/ ٢٥٠، ٤٣٦)، وغيره.

إذن: فكل رجل وكل امرأة يستطيع في كل ليلة أن يكون رسولاً لأهله ولبيئته يقوم فيها بمهمة الرسول؛ لأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل، فليس بعد تشريعه تشريع، وليس بعد كتابه كتاب؛ لأن أمته ستحمل رسالته من بعده، وكل مؤمن منهم يعلم من الإسلام حكمًا، فهو خليفة لرسول الله في تبليغه.

كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..﴾ [البقرة: ١٤٣] فالرسول يشهد أنه بلغكم، وعليكم أن تشهدوا أنكم بلغتم الناس، وما دمتم بلغتم الناس منطقًا ولفظًا فلا بد أن يكون سلوكًا أيضًا، لأن لكم في رسول الله أسوة حسنة.

ودائمًا ما يقرن الحق- تبارك وتعالى- بين الصلاة والزكاة، والصلاة تأخذ بعض الوقت، والزكاة تأخذ المال الذي هو فرع العمل الذي هو فرع الوقت، فإن كانت الزكاة تأخذ نتيجة الوقت، فالصلاة تأخذ الوقت نفسه. إذن: ففي الصلاة زكاة أبلغ من الزكاة.

وإن كان في الزكاة نماء المال وبركته- وإن كانت في ظاهرها نقصًا- ففي الصلاة نماء الوقت وبركته، فإياك أن تقول: أنا مشغول، ولا أجد وقتًا للصلاة؛ لأن الدقائق التي ستصلي فيها فرض ربك هي التي ستشيع البركة في وقتك كله.

كما أنك حين تقف بين يدي ربك في الصلاة تأخذ شحنة إيمانية نورانية تعينك على أداء مهمتك في الحياة، وتعرض نفسك على ربك وخالقك وصانعك، ولن تُعدم خيراً ينالك من هذا اللقاء.

ولك أن تتصور صنعة تُعرض على صانعها خمس مرات كل يوم، هل يصيبها عُطل أو عطب؟! وإن كان المهندس الصانع يعالج بأشياء مادية فلأنه حسي مشهود، أما الخالق سبحانه فهو غيب يصلحك من حيث لا تدري.

وإن كان إسماعيل- عليه السلام- يأمر أهله بالصلاة والزكاة فهو حريص عليها من باب أولي.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥] أي: ﷺ، ليس لخصال الخير التي وصفه بها، بل من بدايته، فقد رضي عنه فاختاره رسولاً ونبيًّا.

* * *

الصفة الثالثة: لا يقرب زوجته وهي حائض

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله -:

يعالج الحق - سبحانه - قضية التواصل مع المرأة أثناء فترة الحيض فيأتي التشريع ليقنن هذه المسألة لأن الإسلام جاء وفي الجو الاجتماعي تياران:

تيار يرى أن الحائض هي امرأة تعاني من قذارة، لذلك لا يمكن للزوج أن يأكل معها أو يسكن معها أو يعاشرها أو يعيش معها في بيت واحد وكذلك أبناؤه . وتيار آخر يرى المرأة في فترة الحيض امرأة عادية لا فرق بينها وبين كونها غير حائض أي تباشر حياتها الزوجية مع زوجها دون تحوط أو تحفظ. كان الحال -إذن- متأرجحًا بين الإفراط والتفريط، فجاء الإسلام ليضع حدًّا لهذه المسألة فيقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾(١).

حين تقرأ «هو أذى» فقد أخذت الحكم ممن يُؤمن على الأحكام، ولا تناقش المسألة، مهمًا قال الطب من تفسيرات وتعليلات وأسباب نقل له: لا، الذي خلق قال: «هو أذى» والمحيض يطلق على الدم، ويراد به- أيضًا- مكان الحيض، ويراد به زمان الحيض.

وقوله الحق عن المحيض إنه أذى يهيئ الذهن لأن يتلقى حكمًا في هذا الأذى، وبذلك يستعد الذهن للخطر الذي سيأتي به الحكم. وقد جاء الحكم بالحظر والمنع بعد أن سبقت حيثيته.

---

(١) [البقرة: ٢٢٢].

إن الحق سبحانه وتعالى وهو الخالق أراد أن تكون عملية الحيض في المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها وحياة الإنجاب. وأمر الرجل أن يعتزلوا النساء وهن حوائض؛ لأن المحيض أذى لهم . لكن هل دم الحيض أذى للرجال أو للنساء؟ إنه أذى للرجال.والنساء معًا؛ لأن الآية أطلقت الأذى، ولم تحدد من المقصود به. والذي يدل على ذلك أن الحيض يعطي قذارة للرجل في مكان حساس هو موضع الإنزال عنده، فإذا وصلت إليه الميكروبات تصيبه بأمراض خطيرة.

والذي يحدث أن الحق قد خلق رحم المرأة وفي مبيضيها عدد محدد معروف له وحده سبحانه وتعالى من البويضات، وعندما يفرز أحد المبيضين البويضة فقد لا يتم تلقيح البويضة، فإن بطانة الرحم المكون من أنسجة دموية تقل فيها نسبة الهرمونات التي كانت تثبت بطانة الرحم، وعندما تقل نسبة الهرمونات يحدث الحيض.

والحيض هو دم يحتوي على أنسجة غير حية، وتصبح منطقة المهبل والرحم في حالة تهيج، لأن منطقة المهبل والرحم حساسة جدًا لنمو الميكروبات المسببة للالتهابات سواءً للمرأة، أو للرجل إن جامع زوجته في فترة الحيض. والحيض يصيب المرأة بأذى في قوتها وجسدها؛ بدليل أن الله رخص لها ألا تصوم وألا تصلي. إذن فالمسألة منهكة ومتعبة لها، فلا يجوز أن يرهقها الرجل بأكثر مما هي عليه.

إذن فقوله تعالى: «هو أذى» تعميم بأن الأذى يصيب الرجل والمرأة. وبعد ذلك بين الحق أن كلمة «أذى» حيثية تتطلب حكمًا يرد، إما بالإباحة وإما بالحظر، وما دام هو أذى فلا بد أن يكون حظراً.

يقول عز وجل: ﴿فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ﴾ والذي يقول: إن المحيض هو مكان الحيض يبني قوله بأن المحرم هو المباشرة الجنسية،

لكن ما فوق السرة وما فوق الملابس فهو مباح[1]، فقوله الحق: «ولا تقربوهن» أي لا تأتوهن في المكان الذي يأتي منه الأذى وهو دم الحيض. ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ و«يطهرن» من الطهور مصدر طهر يطهر، وعندما نتأمل قوله: «فإذا تطهرن» نجد أنه لم يقل: «فإذا طهرن»، فما الفرق بين «طهر» و«تطهر»؟

إن «يطهرن» معناها امتنع عنهن الحيض،، و «تطهرن» يعني اغتسلن من الحيض؛ ولذلك نشأ خلاف بين العلماء، هل بمجرد انتهاء مدة الحيض وانقطاع الدم يمكن أن يباشر الرجل زوجته، أم لا بد من الانتظار حتى تتطهر المرأة بالاغتسال؟.

وخروجًا من الخلاف نقول: إن قوله الحق: «تطهرن» يعني اغتسلن فلا مباشرة قبل الاغتسال. ومن عجائب ألفاظ القرآن أن الكلمات تؤثر في استنباط الحكم، ومثال ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩].

ما المقصود إذن؟ هل المقصود أن القرآن لا يمسكه إلا الملائكة الذين طهرهم الله من الخبث، أو أن للبشر أيضًا حق الإمساك بالمصحف لأنهم يتطهرون؟ بعض العلماء قال: إن المسألة لا بد أن ندخلها في عموم الطهارة، فيكون معنى «إلا المطهرون» أي الذين طهرهم من شرع لهم التطهير؛ ولذلك فالمسلم حين يغتسل أو يتوضأ يكون قد حدث له أمران: التطهر والطهر.

فالتطهر بالفعل هو الوضوء أو الاغتسال، والطهر بتشريع الله، فكما أن الله

(١) عن بعض أزواج النبي ﷺ: «أن النبي كان إذا أراد من الحائض شيئًا، ألقى على فرجها ثوبًا» حديث صحيح: رواه أبو داود.

طهر الملائكة أصلاً فقد طهرنا معشر الإنس تشريعًا، وبذلك نفهم الآية على إطلاقها ونرفع الخلاف. وقول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: «حتى يطهرن» أي حتى يأذن الله لهن بالطهر، ثم يغتسلن استجابة لتشريع الله لهن بالتطهر ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني في الأماكن الحلال.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ وأراد الحق تبارك وتعالى أن يدخل عليك أنسًا، فكما أنه طلب منك أن تتطهر ماديًّا فهو سبحانه قبل أيضًا منك أن تتطهر معنويًّا بالتوبة، لذلك جاء بالأمر حسيًّا ومعنويًّا. اهـ.

تنبيه مهم:

عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض، قال: **«يتصدق بدينار أو نصف دينار»**(١).

ومقدار الدينار: أربعة أسهم من سبعة أسهم من الجنيه السعودي، فإن كان صرف الجنيه السعودي - مثلاً - سبعين ريالاً، فعليك أن تخرج عشرين ريالاً أو أربعين ريالاً تتصدق بها على الفقراء.

والتخيير في الحديث راجع إلى التفريق بين أول الدم وآخره لما ثبت عن ابن عباس موقوفًا:

«إن أصابها في فور الدم تصدق بدينار، وإن كان في آخره فنصف دينار»(٢).

هذا، وإتيان الحائض - مع العلم- من الكبائر.

قال ﷺ: **«من أتى حائضًا أو امرأة في دبرها، أو كاهنًا فقد كفر بما أنزل على محمد»**(٣).

---

(١) حديث صحيح: رواه ابن ماجه.

(٢) صحيح موقوف: رواه أبو داود.

(٣) حديث صحيح: رواه الترمذي.

قال الإمام النووي رحمه الله: «لو اعتقد مسلم حل جماع الحائض في فرجها صار كافراً مرتداً، ولو فعله غير معتقد حله: فإن كان جاهلاً أو ناسيًا أو مكرهًا فلا إثم عليه ولا كفارة. وإن وطئها عامًا عامداً مختاراً فقد ارتكب معصية كبيرة وتجب عليه التوبة، وفي وجوب الكفارة قولان» اهـ.

قلت: الراجح: وجوب الكفارة للحديث المتقدم.

* * *

الصفة الرابعة: إتيان الزوجة في مكان الولد

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله -:

وقد كان اليهود يثيرون أن الرجل إذا أتى امرأته من خلف ولو في قُبلها - بضم القاف- جاء الولد أحول. و «القُبل» هو مكان الإتيان، وليس معناه الإتيان في الدبر والعياذ بالله كما كان يفعل قوم لوط. ولما كان هذا الإشكال الذي آثاره اليهود لا أساس له من الصحة فقد أراد الحق أن يرد على هذه المسألة فقال:

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

إن الحق سبحانه وتعالى يفسح المجال للتمتع للرجل والمرأة على أي وجه من الأوجه شريطة أن يتم الإتيان في محل الإنبات. وقد جاء الحق بكلمة «حرث» هنا ليوضح أن الحرث يكون في مكان الإنبات. «فأتوا حرثكم» وما هو الحرث؟ الحرث مكان استنبات النبات، وقد قال تعالى:

﴿ وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فأتوا المرأة في مكان الزرع، زرع الولد، أما المكان الذي لا ينبت منه الولد فلا تقربوه. وبعض الناس فهموا خطأ أن قوله: ﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ معناها إتيان المرأة في أي مكان، وذلك خطأ؛ لأن قوله: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ يعني محل استنبات الزرع، والزرع بالنسبة للمرأة والرجل هو الولد، فأتها في المكان الذي ينجب الولد على أي جهة شئت.

ويتابع الحق: ﴿ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ ﴾ أي إياك أن تأخذ المسألة على أنها

---

(١) [البقرة: ٢٢٣].

استمتاع جنسي فحسب، إنما يريد الحق سبحانه وتعالى بهذه اللذة الجنسية أن يحمي متاعب ما ينشأ من هذه اللذة؛ لأن الذرية التي ستأتي من أثر اللقاء الجنسي سيكون لها متاعب وتكاليف، فلو لم يربطها الله سبحانه وتعالى بهذه اللذة لزهد الناس في الجماع.

ومن هنا يربط الحق سبحانه وتعالى بين كدح الآباء وشقائهم في تربية أولادهم بلذة الشهوة الجنسية حتى يضمن بقاء النوع الإنساني. ومع هذا يحذرنا الحق أن نعتبر هذه اللذة الجنسية هي الأصل في إتيان النساء فقال: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، يعني انظروا جيدًا إلى هذه المسألة على ألا تكون هي الغاية، بل هي وسيلة، فلا تقلبوا الوسيلة إلى الغاية، ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي ادخروا لأنفسكم شيئًا ينفعكم في الأيام المقبلة.

إذن فالأصل في العملية الجنسية الإنجاب ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي لا تأخذوا المتاع اللحظي العاجل على أنه هو الغاية بل خذوه لما هو آت. وكيف نقدم لأنفسنا؟ أو ماذا نفعل؟ حتى لا نشقى بمن يأتي، وعليك أن تتبين هذه العملية فقدم لنفسك شيئًا يريحك، وافعل ما علمنا رسول الله ﷺ ساعة تأتي لهذه النعمة وتقترب من زوجتك لا بد أن تسمى الله وتقول: «**اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني**»[1]، وعندما يأتي المسلم أهله وينشأ وليده فلن يكون للشيطان عليه دخل. وقال بعض العلماء: لا يمكن أن يؤثر فيه سحر، لماذا كل ذلك؟.

لأنك ساعة استنبته أي زرعته، ذكرت المُنبت وهو الله عز وجل. وما دمت ذكرت المنبت الخالق فقد جعلت لابنك حصانة أبدية. وعلى عكس ذلك ينشأ الطفل الذي ينسى والده الله عندما يباشر أهله فيقع أولاده فريسة للشياطين.

---

(١) رواه البخاري، وتتمته: «**ثم قدر بينهما في ذلك أو قضى ولد، لم يضره شيطان أبدًا**».

﴿وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ﴾ أي قدموا لها ما يريحكم وما يطيل أمد حياتكم وأعمالكم في الحياة؛ لأنك عندما تقبل على المسألة بنية إنجاب الولد، وتذكر الله وتستعيذ من الشيطان فينعم عليك الخالق بالولد الصالح، هذا الولد يدعو لك، ويعلم أولاده أن يدعوا لك، وأولاد أولاده يدعون لك، وتظل المسألة مسلسلة فلا ينقطع عملك إلى أن تقوم الساعة، وهنا تكون قدمت لنفسك أفضل ما يكون التقديم.

وهب أنك رُزقت المولود ثم مات ففجعت به واسترجعت واحتسبته عند ربك، إنك تكون قد قدمته، ليغلق عليك باب من أبواب النيران. إذن فكل أمر لا بد أن تذكر فيه ﴿وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ﴾.

ويقول الحق: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معنى «اتقوا الله» أي إياكم أن تغضبوا ربكم في أي عمل من هذه الأعمال، وكن أيها المسلم في هذه التقوى على يقين من أنك ملاقي الله، ولا تشك في هذا اللقاء أبدًا. وما دمت ستتقي الله وتكون على يقين أنك تلاقيه لم يبق لك إلا أن تُبشر بالجنة.

❋ ❋ ❋

الصفة الخامسة: أن يطعم نفسه وأهله حلالاً

قال الحق - سبحانه -:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[1].

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله -:

وهذا خطاب من الله للذين آمنوا بأن يأكلوا من الطيبات، ولكن للناس جميعًا وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا﴾ وقلنا: إن الحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب الناس جميعًا، فهو يلفتهم إلى قضية الإيمان، ولكن حين يخاطب المؤمنين فهو يعطيهم أحكام الإيمان، فالله لا يكلف بحكم إلا من آمن به، أما من لم يؤمن به، فلا يكلفه بأي حكم، لأن الإيمان التزام. وما دمت قد التزمت بأنه إله حكيم؛ فخذ منه أحكام دينك.

وعدل الله اقتضى ألا يكلف إلا من يؤمن، وهذا على خلاف مألوف البشر، لأن تكليفات القادة من البشر للبشر تكون لمن يرضى بقيادتهم ومن لم يرض، وإذا كان للقائد من البشر قوة، فإنه يستخدمها لإرغام من يوجدون تحت ولايته على تنفيذ ما يقول.

وخطاب الله للمؤمنين هنا جاء بقوله: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ذلك أن المؤمن يتيقن تمامًا بأن الله هو الخالق وهو الذي يرزق. ويذيل الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، فشكر العبد المؤمن للرب الخالق واجب، ما دام العبد المؤمن يختص الله بالعبادة.

(١) [البقرة: ١٧٢].

الصفة السادسة: لا يهجر زوجته أكثر من أربعة أشهر

قال الحق- سبحانه -:

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

قال الإمام الشعراوي -رحمه الله-:

يؤلون: أي يحلفون ألا يقربوا أزواجهن في العملية المخصوصة، ويريد الرجل أحيانًا أن يؤدب زوجته فيهجرها في الفراش بلا يمين، وبدون أن يحلف. وبعض الناس لا يستطيعون أن يمتنعوا عن نسائهم من تلقاء أنفسهم، فيحلفون ألا يقربوهن حتى يكون اليمين مانعًا ومشجعًا له على ذلك، وكان هذا الأمر مألوفًا عند العرب قبل الإسلام.

كان الرجل يمتنع عن معاشرة زوجته في الفراش أي فترة من الزمن يريدها، وبعضهم كان يحلف ألا يقرب زوجته زمنًا محدداً،وقبل أن ينتهي هذا الزمن يحلف يمينًا آخر ليزيد المدة فترة أخرى، وهكذا حتى أصبحت المسألة عملية إذلال للمرأة، وإعضالاً لها، وامتناعًا عن أداء حقها في المعاشرة الزوجية. وكان ذلك إهداراً لحق الزوجة في الاستمتاع بزوجها.

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن ينهي هذه المسألة، وهو سبحانه لا ينهيها لحساب طرف على طرف، وإنما بعدل الخالق الحكيم الرحيم بعباده. وكان من الممكن أن يجرمها ويحرمها نهائيًا ويمنع الناس منها. لكنه سبحانه عليم بخفايا وطبيعة النفوس البشرية، فقد ترى امرأة أن تستغل إقبال الرجل عليها، إما لجمال فيها أو لتوقد شهوة الرجل، فتحاول أن تستذله؛ لذلك أعطى الله للرجل

---

(١) [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

الحق في أن يمتنع عن زوجته أربعة أشهر، أما أكثر من ذلك فالمرأة لا تطيق أن يمتنع زوجها عنها.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والإسلام يريد أن يبني الحياة الزوجية على أساس واقعي لا على أفكار مجنحة ومجحفة لا تثبت أمام الواقع، فهو يعترف بالميول فيعليها ولكن لا يهدمها، ويعترف بالغرائز فلا يكتمها ولكن يضبطها.

وهناك فرق بين الضبط والكبت؛ فإن الكبت يترك الفرصة للداء ليستشري خفيًا حتى يتفجر في نوازع النفس الإنسانية تفجرًا على غير ميعاد وبدون احتياط، لكن الانضباط يعترف بالغريزة ويعترف بالميول، ويحاول فقط أن يهديها ولا يهدمها. ويخضع البشر في كل أعمالهم لهذه النظرية حتى في صناعتهم، فالذين يصنعون المراجل البخارية مثلاً يجعلون في تلك المراجل التي يمكن أن يضغط فيها الغاز ضغطًا فيفجرها يجعلون لها متنفسًا حتى يمكن أن يخفف الضغط الزائد إن وُجد، وقد يصممون داخلها نظامًا آليًا لا يتدخل فيه العقل بل تحكم الآلة نفسها.

والحق سبحانه وتعالى وضع نظامًا واضحًا في خلقه الذين خلقهم، وشرع لهم تكوين الأسرة على أساس سليم. وبنى الإسلام هذا النظام أولاً على سلامة العقيدة ونصاعتها ووحدتها حتى لا تتوزع المؤثرات في مكونات الأسرة، لذلك منع المسلم من أن يتزوج من مشركة، وحرم على المسلمة أن تتزوج مشركًا. وبعد ذلك علمنا معنى الالتقاء الغريزي بين الزوجين. ولقد أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يطلق العنان للغريزة في كل زمان التواجد الزوجي، فجعل المحيض فترة يحرم فيها الجماع وقال: ﴿فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وهكذا يضبط الحق العلاقة الجنسية بين الزوجين ضبطا سليمًا نظيفًا.

الحق سبحانه وتعالى يعلم أن النفس البشرية ذات أغيار؛ لأن الإنسان حادث له بداية ونهاية، وكل ما يكون حادثًا لا بد أن يطرأ عليه تغيير. فإذا ما التقى الرجل بالمرأة. كان لا بد من أن يتحدد هذا اللقاء على ضوء من منهج الله؛ لأن اللقاء إن تم على منهج البشر وعواطفهم كان المصير إلى الفشل؛ لأن مناهج البشر متغيرة وموقوتة، ولذلك يجب أن يكون لقاء الرجل بالمرأة على ضوء معايير الله.

فالله يعلم أن للنفس نوازع ومتغيرات، من الجائز جدًا أن يحدث خلاف بين الزوجين، فيجعل الله سبحانه وتعالى متنفسًا يتنفس فيه الزوج للتأديب الذي ينشد التهذيب والإبقاء، فشرع للرجل إن رأى في امرأته إذلالاً له بجمالها وبحسنها، وقد يكون رجل له مزاج خاص ورغبة جامحة في هذه العملية؛ لذلك شرع الله له فترة من الفترات أن يحلف ألا يقرب امرأته، ولم يجعل الله تلك الفترة مطلقة، إنما قيدها بالحلف حتى يكون الأمر مضبوطًا.

فالحق يريد العلاج لا القسوة. فلو لم يكن الرجل مضبوطًا بيمين فقد يُغير رأيه بأن يأتي زوجته، ولذلك قال الحق: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي إن لك أيها الزوج أن تحلف ألا تقرب زوجتك أربعة أشهر لكن إن زادت المدة على أربعة أشهر فهي لن تكون تأديبًا بل إضرارًا. والخالق عز وجل يريد أن يؤدب لا أن يضر. فإذا ما تجاوزت المدة يكون الزوج متعديًا ولا حق له.

إن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الميول والعواطف والغرائز ويقنن لها التقنين السليم. إنه عز وجل يترك لنا ما يدلنا على ذلك، ففي خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، يمر عمر في جوف الليل فيسمع امرأة تقول الأبيات المشهورة:

تطاول هذا الليل وأسود جانبه وأرقني إلا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله تخشى عواقبه لزلزل من هذا السرير جوانبه

معنى ذلك أن المرأة تعاني من الوحشة إلى الرجل، وتوشك المعاناة أن تدفعها إلى سلوك غير قويم، لكن تقوى الله هي التي تمنعها من الانحراف. ومن الجائز أن نتساءل كيف سمع عمر هذه المرأة وهو يسير في الشارع، وأقول: إن المرأة التي تأتي عندها هذه الأحاسيس تترنم في سكون الليل، وعندما يسكن الليل لا تكون فيه ضجة فيسهل سماع ما يقال داخل البيوت، ألم يسمع عمر كلام المرأة التي تجادل ابنتها في غش اللبن؟

ولما سمع الفاروق كلام هذه المرأة التي تعاني من وحشة إلى الرجل، ذهب بفطرته السليمة وألمعيته المشرقة إلى ابنته حفصة أم المؤمنين ﵄، وقال لها: كم تصبر المرأة على بعد الرجل؟ فقالت: من ستة شهور إلى أربعة أشهر.

فسن عمر سنة أصبحت دستوراً فيما بعد، وهي ألا يبعد جندي من جنود المسلمين عن أهله أربعة أشهر. إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ سبق حادثة عمر، ثم ترك الحق لواقع الحياة أن يبين لنا صدق ما قننه لنا، ويأتي عمر ليستنبط الحكم من واقع الحياة.

«فإن فاءوا» أي فإن رجع الرجل، وأراد أن يقترب من زوجته قبل مضي الأربعة أشهر؛ فللرجل أن يكفر عن يمينه وتنتهي المسألة. ولكن إذا مرت الشهور الأربعة وتجاوزت المقاطعة مدتها يؤمر الزوج بالرجوع عن اليمين أو بالطلاق، فإن امتنع الزوج طلقها الحاكم، وقال بعض الفقهاء: إن مضى مدة الأربعة أشهر دون أن يرجع ويفيء يجعلها مطلقة طلقة واحدة بائنة. ولذلك يقول الحق:

﴿وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

واختلف العلماء؛ هل تطلق الزوجة طلقة بائنة أو طلقة رجعية؟ ومعنى «طلاق رجعي» مأخوذ من اللفظ نفسه، أي إن الزوج له الحق أن يراجع امرأته

دون إذن منها أو رضًا. أما الطلاق البائن فإنه لا عودة إلا إذا عقد عليها عقداً جديداً بمهر جديد.

والطلقة في الإيلاء بينونة صغرى وهي التي تحتاج إلى عقد ومهر جديدين، هذا إذا لم يسبق طلاقان. والبينونة الكبرى وهي التي توصف بأنها ذات الثلاث، فالزوجة فيها تطلق ثلاث مرات، فلا يصح أن يعيدها الزوج إلا إذا تزوجت زوجًا غيره، وعاشت معه حياة زوجية كاملة، ثم طلقها لأي سبب من الأسباب، وبعد ذلك يحق لزوجها القديم أن يراجعها ويعيدها إليه بعقد ومهر جديدين، لكن بعد أن يكتوي بغيرة زواجها من رجل آخر. والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المسألة فيقول:

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

فالإسلام دين واقعي يعطي الزوج المسلم أشياء تنفس عن غضبه، وأشياء تمكنه من أن يؤدب زوجته، لكن الإسلام لا يحب أن يتمادى الرجل في التأديب. وإذا تمادى وتجاوز الأربعة الأشهر نقول له: لا بد أن يوجد حد فاصل.

* * *

الصفة السابعة: لا يلجأ إلى السحرة والعرافين

سُئل الإمام الشعراوي- رحمه الله -:

أُصيبت إحدى قريباتي بنفور شديد من زوجها دون سبب مقنع مع أن الرجل لم يقصر في حقوقها أو في الإنفاق عليها، وقد فسر البعض هذه الحالة بأنها عمل من السحر لإفساد الزوجة، فما تفسير ذلك من ناحية الشرع؟ وهل في إمكان بشر أن يضر آخر إلا بإذن الله؟

فأجاب:

في مثل هذه القضية نستعرض ما ذكره القرآن الكريم، فماذا يقول القرآن:

يقول: ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ ﴾.

إن الله لا يريد أن يعطي للإنسان قانونًا يتميز به على أفراد جنسه حتى يعيش المجتمع في سلام، لكن لا تقل إن الله لا يستطيع أن يعطيني هذا القانون لأنه سيكون خطراً عليك، وها هو ذا يعطيك هذا فماذا كان؟

استعمله الناس في الشر وأصبح القانون فتنة لهم، وربما وصل بهم إلى الكفر فضلاً عن تخريب المجتمع ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ لذلك أعطاه الله للبعض بقدر وأوقف أثره على إذنه هو ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ ﴾.

إذن فهناك جماعة من الإنس مكنهم الله من السيطرة على الجن، ولذلك

فهم لا يتصرفون في الأشياء بقوانين الإنس، لكن بقوانين الجن فقد أعطاهم من القوة أن يحضروه ويتعاملوا معه ويلبي لهم ما يريدون.

ولكن يجب أن نفرق بين الوقائع التي تحدث في المجتمع، فهناك نوع حقيقة، ونوع مدعي ادعاء، وبداية دعوى الشيء أن إنسانًا يستطيع أن يعمل عملاً أو يحضر عملاً أو يبطل عملاً، فهذا لا بد أن تكون لها سابقة حقيقية وواقع، وإلا لما استطاع أحد أن يدعيها، فمن ادعى الطب فهو لم يدع الطب ابتداءً، إنما هناك طلب حقيقي فادعاه هذا المدعي، وكذلك من ادعى غيب النجوم.

والدجل يشيع بين من لا يقظة له أو ينقصه الانتباه، ولكن إذا كان هناك أناس عندهم يقظة أو انتباه واحترسوا من مثل هذا الدجل، فإنه لا يستطيع أن يموه عليهم أو يخدعهم اهـ.

وسُئل - رحمه الله -:

لي صديق يزعم أن الجن يسيطر على بعض علاقاته سلبًا وإيجابًا، فماذا يفعل؟ وهل يجوز له الذهاب إلى أحد المشعوذين ليفك عنه هذا السحر؟

فأجاب:

كلام صديقك هذا صحيح، وهذه الأمور جائزة، لأن السحر حقيقة وتسخير الجن أمر واقع، والله تعالى يعطينا بعض الخصائص نتحكم بواسطتها في الجنس الأعلى وهو الجن، فيجيء الجن القادر على التشكل للمرأة الجميلة ويرسم شبح صورة قبيحة على وجهها، ويصبح هو قناعًا قبيحًا على وجه المرأة الجميلة، فيراها الرجل كالقرد أمامه!

وبالعكس، يتشكل الجن في صورة قناع جميل يتلبس بوجه المرأة الدميمة أو العادية فيحبها الشخص، ويرى أنها ملكة جمال!

وهكذا يكون الحال في الـعلاقات فإنه يـلبسهـا متشكلاً بصـور تبعث على البرود فلا يستطيع الفعل.

وهذه الأمور تأتي عن طريق التـشكل التي يتصور بهـا الجن، وانصح دائمًا بعدم الالتجـاء إلى المشعوذين لفك السحر والمعقـود من الرجال، ولكن عليه أن يقرأ سـورة الإخلاص والمعوذتين وبذلك يأمن كـيد الشيـطان، وينصرف عنه - بإذن الله - هذا التشكل الجني الذي به فلا يضيره منه شيء.

❋ ❋ ❋

الصفة الثامنة: اتباع هدى الإسلام في علاج نشوز الزوجة

قال تعالى: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً﴾(١).

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله -:

وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى حينما يربي في عبده حاسة اليقظة قال: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ فالنشوز لم يحدث بل مخافة أن يحدث، فاليقظة تقتضي الترقب مع أول الأمر، لا تترك المسألة حتى يحدث النشوز، و«النشوز» من «نشز» أي ارتفع في المكان. ومنه «النشز» وهو المكان المرتفع، وما دام الحق قد قال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء﴾ فالمعنى هنا: من تريد أن تتعالى وتوضع في مكانة عالية؟؛ ولذلك فالنشاز حتى في النغم هو: صوت خارج عن قواعد النغم فيقولون: هذه النغمة نشاز، أي خرجت عن قاعدة النغمة التي سبقتها. وكذلك المرأة المفروض فيها أنها تكون متطامنة، فإن شعرت أن في بالها أن تتعالى فإياك أن تتركها إلى أن تصعد إلى الربوة وترتفع . بل عليك التصرف من أول ما تشعر ببوادر النشوز فتمنعه، ومعنى قوله: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ﴾ يعني أن النشوز أمر متخوف منه ومتوقع ولم يحدث بعد.

وكيف يكون العلاج؟ يقول الحق: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أي ساعة تراها تنوي هذا فعظها، والوعظ: النصح بالرقة والرفق، قالوا في النصح بالرقة: أن تنتهز فرصة انسجام المرأة معك، وتنصحها في الظرف المناسب لكي يكون الوعظ والإرشاد مقبولاً فلا تأت لإنسان وتعظه إلا وقلبه متعلق بك.

---

(١) [النساء: ٣٤].

ولنفترض أن ابنًا طلب من والده طلبًا، ولم يحضره الأب، ثم جاءت الأم لتشكو للأب سلوك الابن، فيحاول الأب إحضار الطلب الذي تمناه الابن، ويقول له:

- تعال هنا يا بني، إن الله قد وفقني أن أحضر لك ما طلبت.

وفي لحظة فرح الابن بالحصول على ما تمنى، يقول له الأب: لو تذكرت ما قالته لي أمك من سلوكك الردئ لما أحضرته لك.

ولو سب الأب ابنه في هذه اللحظة فإن الابن يضحك.

لماذا؟ لأن الأب أعطى الابن الدرس والعظة في وقت ارتباط قلبه وعاطفته به، ولكن نحن نفعل غير ذلك. فالواحد يأتي للولد في الوقت الذي يكون هناك نفور بينهما، ويحاول أن يعظه؛ لذلك لا تنفع الموعظة، وإذا أردنا أن تنفع الموعظة يجب أن نغير من أنفسنا، وأن ننتهز فرصة التصاق عواطف من نرغب في وعظه فنأتي ونعطي العظة.

هكذا «فعظوهن» هذا معناها: برفق وبلطف، ومن الرفق واللطف أن تختار وقت العظة، وتعرف وقت العظة عندما يكون هناك انسجام، فإن لم تنفع هذه العظة ورأيت الأمر داخلاً إلى ناحية الربوة؛ والنشوز فانتبه. والمرأة عادة تدل على الرجل بما تعرف فيه من إقباله عليها. وقد تصبر المرأة على الرجل أكثر من صبر الرجل عليها؛ لأن تكوين الرجل له جهاز لايهدأ إلا أن يفعل . لكن المرأة تستثار ببطء، فعندما تنفعل أجهزة الرجل فهو لايقدر أن يصبر، لكن المرأة لا تنفعل ولا تستثار بسرعة، فأنت ساعة ترى هذه الحكاية، وهي تعرفك أنك رجل تحب نتائج العواطف والاسترسال؛ فأعط لها درسًا في هذه الناحية، اهجرها في المضجع.

وانظر إلى الدقة، لا تهجرها في البيت، لا تهجرها في الحجرة، بل تنام في

جانب وهي في جانب آخر، حتى لا تفضح ما بينكما من غضب، اهجرها في المضجع؛ لأنك إن هجرتها وكل البيت علم أنك تنام في حجرة مستقلة أو تركت البيت وهربت، فأنت تثير فيها غريزة العناد، لكن عندما تهجرها في المضجع فذلك أمر يكون بينك وبينها فقط، وسيأتيها ظرف عاطفي فتتغاضى، وسيأتيك أنت أيضًا ظرف عاطفي فتتغاضى، وقد يتمنى كل منكما أن يصالح الآخر.

إذن فقوله: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ كأنك تقول لها: إن كنت ستدلين بهذه فأنا أقدر على نفسي. ويتساءل بعضهم: وماذا يعني بأن يهجرها في المضاجع؟ نقول: ما دام المضجع واحدًا فليعطها ظهره وبشرط ألا يفضح المسألة، بل ينام على السرير وتُغلق الحجرة عليهما ولا يعرف أحد شيئًا؛ لأن أي خلاف بين الرجل والمرأة إن ظل بينهما فهو ينتهي إلى أقرب وقت، وساعة يخرج الرجل وعواطفه تلتهب قليلاً، يرجع ويتلمسها، وهي أيضًا تتلمسه. والذي يفسد البيوت أن عناصر من الخارج تتدخل، وهذه العناصر تورث في المرأة عنادًا وفي الرجل عنادًا؛ لذلك لا يصح أن يفضح الرجل ما بينه وبين المرأة عند الأم والأب والأخ، ولنجعل الخلاف دائمًا محصورًا بين الرجل والمرأة فقط. فهناك أمر بينهما سيلجئهما إلى أن يتسامحا معًا.

﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ وقالوا: إن الضرب بشرط ألا يسيل دمًا ولا يكسر عظمًا. أي يكون ضربًا خفيفًا يدل على عدم الرضا؛ ولذلك فبعض العلماء قالوا: يضربها بالسواك.

وعلمنا ربنا هذا الأمر في قصة سيدنا أيوب عندما حلف أن يضرب امرأته مائة جلدة، قال له ربنا:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤].

والضغث هو الحزمة من الحشيش يكون فيها مائة عود، ويضربها ضربة واحدة فكأنه ضربها مائة ضربة وانتهت. فالمرأة عندما تجد الضرب مشوبًا بحنان الضارب فهي تطيع من نفسها، وعلى كل حال فإياكم أن تفهموا أن الذي خلقنا يشرع حكمًا تأباه العواطف، إنما يأباه كبرياء العواطف، فالذي شرع وقال هذا لابد أن يكون هكذا.

﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ أي ضربًا غير مبرح، ومعنى: غير مبرح أي ألا يسيل دمًا أو يكسر عظمًا ويتابع الحق: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾.

فالمسألة ليست استذلالاً. بل إصلاحًا وتقويمًا، وأنت لك الظاهر من أمرها، إياك أن تقول: إنها تطيعني لكن قلبها ليس معي؛ وتدخل في دوامة الغيب، نقول لك: ليس لك شأن لأن المحكوم عليه في كل التصرفات هو ظاهر الأحداث. أما باطن الأحداث فليس لك به شأن ما دام الحق قال: «أطعنكم»؛ فظاهر الحدث إذن أن المسألة انتهت ولا نشوز تخافه، وأنت إن بغيت عليها سبيلاً بعد أن أطاعتك، كنت قويًا عليها فيجب أن تتنبه إلى أن الذي أحلها لك بكلمة هو أقوى عليك منك عليها وهذا تهديد من الله.

ومعنى التهديد من الله لنا أنه أوضح: هذه صنعتي، وأنا الذي جعلتك تأخذها بكلمتي «زوجني... زوجتك».. وما دامت قد ملكتها بكلمة مني فلا تتعال عليها؛ لأنني كما حميت حقك أحمي حقها. فلا أحد منكما أولى بي من الآخر، لأنكما صنعتي وأنا أريد أن تستقر الأمور.

* * *

الصفة التاسعة: المعاشرة بالمعروف

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(١).

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله -:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وكلمة «المعروف» أوسع دائرة من كلمة المودة؛ فالمودة هي أنك تحسن لمن عندك ودادة له وترتاح نفسك لموادته، أنك فرح به وبوجوده، لكن المعروف قد تبذله ولو لم تكره، وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة، عندما أراد المسشرقون أن يبحثوا في القرآن ليجدوا شيئًا يدعون به أن في القرآن تعارضًا فيقولون: قرآنكم يقول:

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

كيف لا يواد المؤمن ابنه أو أباه أو أحدًا من عشيرته لمجرد كفره. والقرآن في موقع آخر منه يقول؟

﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

ونقول: إن هؤلاء لم يفهموا الفرق بين المودة والمعروف. فـ «الود» شيء و«المعروف» شيء آخر. الود يكون عن حب، لكن المعروف ليس ضروريًا أن

(١) [النساء: ١٩].

يكون عن حُب، ساعة يكون جوعان سأعطيه ليأكل وألبي احتياجاته المادية. هذا هو المعروف، إنما الوُد هو أن أعمل لإرضاء نفسي. وساعة يعطف الرجل المؤمن على أبيه الكافر لا يعطف عليه نتيجة للوُد، إنما هو يعطف عليه نتيجة للمعروف؛ لأنه حتى لو كان كافرًا سيعطيه بالمعروف.

ألم يعاتب الحق - سبحانه - إبراهيم في ضيف جاء له فلم يكرمه لأنه سأله وعرف منه: أنه غير مؤمن لذلك لم يضيفه؟ فقال له ربنا: أمن أجل ليلة تستقبله فيها تريد أن تغير دينه، بينما أنا أرزقه أربعين سنة وهو كافر؟ فماذا فعل سيدنا إبراهيم؟ جرى فلحق بالرجل. وناداه فقال له الرجل: ما الذي جعلك تتغير هذا التغيير المفاجئ فقال له إبراهيم: والله إن ربي عاتبني لأني صنعت معك هذا. فقال له الرجل: أربك عاتبك وأنت رسول في وأنا كافر به، فنعم الرب رب يعاتب أحبابه في أعدائه، فأسلم.

هذا هو المعروف، الحق يأمرنا أننا يجب أن ننتبه إلى هذه المسائل في أثناء الحياة الزوجية، وهذه قضية يجب أن يتنبه لها المسلمون جميعًا كي لا يُخربوا البيوت. إنهم يريدون أن يبنوا البيوت على المودة والحب فلو لم تكن المودة والحب في البيت لُخرب البيت، نقول لهم: لا بل ﴿عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ حتى لو لم تحبوهن، وقد يكون السبب الوحيد أنك تكره المرأة لأن شكلها لا يثير غرائزك، يا هذا أنت لم تفهم عن الله؛ ليس المفروض في المرأة أن تثير غريزتك، ولكن المفروض في المرأة أن تكون مصرفًا، إن هاجت غريزتك كيماويًا بطبيعتها وجدت لها مصرفًا. فأنت لا تحتاج لواحدة تغريك لتحرك فيك الغريزة؛ ولذلك قال ﷺ: **«إذا رأى أحدكم امرأة حسناء فأعجبته فليأت أهله فإن البضع واحد ومعها مثل الذي معها»**[1].

---

(١) **حديث صحيح**: رواه ابن حبان، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٥٢) بلفظ: **«إذا رأى أحدكم المرأة التي تعجبه فليرجع إلى أهله حتى يقع بهم، فإن ذلك معهم»**.

أي إن قطعة اللحم واحدة إن هاجت غريزتك بطبيعتها فأي مصرف يكفيك، ولذلك عندما جاء رجل سيدنا عمر ﷺ وقال: يا أمير المؤمنين أنا كاره لامرأتي وأريد أن أطلقها، قال له: أو لم تُبن البيوت إلا على الحب، فأين القيم؟ لقد ظن الرجل أن امرأته ستظل طول عمرها خاطفة لقلبه، ويدخل كل يوم ليقبلها، فيلفته سيدنا عمر إلى أن هذه مسألة وجدت أولاً وبعد ذلك تنبت في الأسرة أشياء ترتبط الرجل بالمرأة وتربط المرأة بالرجل.

لذلك يقول الحق: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ أنت كرهتها في زاوية وقد تكون الزاوية التي كرهتها فيها هي التي ستجعلها تحسن في عدة زوايا؛ لكي تعوض بإحسانها في الزوايا الأخرى هذه الزاوية الناقصة، فلا تبن المسألة على أنك تريد امرأة عارضة أزياء لتثير غرائزك عندما تكون هادئًا، لا فالمرأة مصرف طبيعي إن هاجت غرائزك بطبيعتها وجدت لها مصرفًا، أما أن ترى في المرأة أنها ملهبة للغرائز فمعنى ذلك أنك تريد من المرأة أن تكون غانية فقط. وأن تعيش معك من أجل العلاقة الجنسية فقط، لكن هناك مسائل أخرى كثيرة، فلا تأخذ من المرأة زاوية واحدة هي زاوية الانفعال الجنسي، وخذ زوايا متعددة.

واعلم أن الله وزع أسباب فضله على خلقه، هذه أعطاها جمالاً، وهذه أعطاها عقلاً، وهذه أعطاها حكمة، وهذه أعطاها أمانة، وهذه أعطاها وفاءً، وهذه أعطاها فلاحًا، هناك أسبابا كثيرة جدًا، فإن كنت تريد أن تكون منصفًا حكيمًا فُخذ كل الزوايا، أما أن تنظر للمرأة من زاوية واحدة فقط هي زاوية إهاجة الغريزة، هنا نقول لك: ليست هذه هي الزاوية التي تصلح لتقدير المرأة فقط ﴿ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾.

وانظر إلى الدقة في العبارة ﴿ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا ﴾ فأنت تكره؛ وقد تكون محقًا في الكراهية أو غير محق، إنما إن كرهت شيئًا يقول لك الله عنه:

﴿ وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ فاطمئن إنك إن كرهت في المرأة شيئًا لا يتعلق بدينها، فاعلم أنك إن صبرت عليه يجعل الله لك في بقية الزوايا خيراً كثيراً. وما دام ربنا هو من يجعل هذا الخير الكثير فاطمئن إلى أنك لو تنبهت لزاوية أنت تكرهها ومع ذلك تصبر عليها، فأنت تضمن أن ربنا سيجعل لك خيراً في نواح متعددة، إن أي زاوية تغلبت على كرهك سيجعل الله فيها خيراً كثيراً.

إن الحق يطلق القضية هنا في بناء الأسرة ثم يُعمم، وكان بإمكانه أن يقول: فعسى أن تكرهوهن ويجعل الله فيهن خيراً، لا . فقد شاء أن يجعلها سبحانه قضية عامة في كل شيء قد تكرهه، وتأتي الأحداث لتبين صدق الله في ذلك، فكم من أشياء كرهها الإنسان ثم تبين له وجه الخير فيها. وكم من أشياء أحبها الإنسان ثم تبين له وجه الشر فيها، ليدلك على أن حكم الإنسان على الأشياء دائمًا غير دقيق، فقد يحكم بكره شيء وهو لا يستحق الكره، وقد يحكم بحب شيء وهو لا يستحق الحب.

إذن فالحق سبحانه وتعالى يأتي بالأشياء مخالفة لأحكامك ﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ فقدر دائمًا في المقارنة أن الكره منك وجعل الخير في المرأة من الله، فلا تجعل جانب الكره منك يتغلب على جانب جعل الخير من الله.

* * *

الصفة العاشرة: إرواء عاطفتها وإعفافها

قال الحق - سبحانه -:

﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾[1]. والزوج يؤجر على هذه المباشرة.

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله -:

ويقول الحق: ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ فلم يشأ أن يترك المباشرة على عنانها فقال: أنت في المباشرة لا بد أن تتذكر ما كتبه الله، وما كتبه الله هو الإعفاف بهذا اللقاء والإنجاب، فالمرأة تقصد إعفاف الرجل حتى لا تمتد عينه إلى امرأة أخرى، وهو يقصد أيضًا بهذه العملية أن يعفها حتى لا تنظر إلى غيره، والله يريد الإعفاف في تلك المسألة لينشأ الطفل من هذا اللقاء على أرض صلبة من الطهر والنقاء.

وحتى لا يتشكك الرجل في بضع منه هم أبناؤه، والحق سبحانه يريد طهارة الإنسان، فكل نسل يجب أن يكون محسوبًا على ما استمتع، وبعد الاستمتاع، عليه أن يتحمل التبعة، فلا يصح لمسلم أن يستمتع ويتحمل سواه تبعة ذلك، فالمسلم يأخذ كل أمر بحقه ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي ما كتب الله من أن الزواج للإعفاف والإنجاب. وفي ذلك طهارة لكل أفراد المجتمع. ولذلك قال ﷺ:

«**وفي بضع أحدكم صدقة**». قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»[2] ا.هـ.

---

(١) [البقرة: ١٨٧].

(٢) رواه مسلم وغيره.

قال الإمام ابن حزم - رحمه الله تعالى -: وفُرض على الرجل أن يجامع امرأته التي هي زوجته، وأدنى ذلك مرة في كل طُهر، إن قدر على ذلك. وإلا فهو عاصٍ لله تعالى.. بُرهانُ ذلك قول الله عز وجل:

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وذهب جمهور العلماء إلى ما ذهب إليه ابن حزم من الوجوب على الرجل إذا لم يكن له عُذر. ونص أحمد على أنه مُقدر بأربعة أشهر، لأن الله قدره في حق المولى بهذه المدة، فكذلك في حق غيره.

وإذا سافر عن امرأته، فإن لم يكن له عُذر مانع من الرجوع، فإن أحمد ذهب إلى توقيته بستة أشهر.. وسُئل: كم يغيب الرجل عن زوجته؟

قال: ستة أشهر يُكتب إليه، فإن أبي أن يرجع فرق الحاكم بينهما.. وحُجته ما رواه أبو حفص بإسناده عن زيد بن أسلم، قال:

بينما عمر بن الخطاب يحرس المدينة؛ فمر بامرأة في بيتها وهي تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه ... وطَالَ على أن لا خليل ألاعبه

والله لولا خشية الله وحده ... لحرك من هذا السرير جوانبه

ولكن ربي والحياء يكفني ... وأكرم بعلي أن تُوطأ مراكبه

فسأل عنها عمر، فقيل له: هذه فلانة، زوجها غائب في سبيل الله، فأرسل إليها تكون معه، وبعث إلى زوجها، فأقفله[1] ثم دخل على حفصة، فقال: يا بنية... كم تصبر المرأة على زوجها؟

فقالت: سبحان الله. مثلك يسأل مثلي عن هذا؟

فقال: لولا أني أريد النظر للمسلمين ما سألتك.

---

(١) أقفله: أرجعه.

قالت: خمسة أشهر... ستة أشهر.

فوقت للناس في مغازيهم ستة أشهر، يسيـرون شهراً، ويقيمون أربعة أشهر ويسيرون راجعين شهراً.

وعن محمـد بن معنٍ الغفاري قال: «أتت امـرأة إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقـالت: يا أمير المؤمنين: إن زوجي يصـوم النهار، ويقـوم الليل، وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله عز وجل فقال لها:

نعم الزوج زوجك، فجعلت تكرر هذا القول ويكرر عليـها الجواب.. فقال له كعب الأسدي: يا أمير المؤمنين هذه المرأة تشكو زوجـها في مباعدته إياها عن فراشه، فقال عمر:

كما فهمت كلامها فاقض بينهما.

فقال كعب: «علي بزوجها» فأُتي به، فقال له:

إن امرأته هذه تشكوك. قال:

أفي طعام، أو شراب؟ قال: لا.

فقالت المرأة:

يا أيهـا القـاضي الحكيم رشده ... ألهى خليلي عن فراشي مسجـده
زهده في مـضـجـعـي تعـبـده ... فاقضِ القضاء، كعب، ولا تردده
نـهـاره ولـيـلـه مـا يـرقـده ... فلست فـي أمـر النسـاء أحمـده

فقال زوجها:

زهـدني فـي النساء وفـي الحـجـل[1] ... أنـي امـرؤ أذهـلنـي مـا نـزل
في سورة النحل وفي السبع الطـول ... وفـي كتاب الله تخويـف جلل

---

(١) الحجل: السرير.

فقال كعب:

إن لها عليك حقًّا يا رجل نصيبها في أربع لمن عقل
فأعطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال:

إن الله عز وجل قد أحل لك من النساء مثنى وثُلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهن ربك، فقال، عمر:

والله ما أدري من أي أمريك أعجب؟ أمن فهمك أمرهما، أم من حُكمك بينهما؟... اذهب فقد وليتك قضاء البصرة[1].

وعن «آداب الجماع» يقول الإمام الغزالي- رحمه الله تعالى - ما مختصره:

«ويستحب أن يبدأ باسم الله تعالى. قال عليه الصلاة والسلام: **«لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا. فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان»**[2].

وليقدم التلطف بالكلام والتقبيل... ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة وليلته تحقيقًا لأحد التأويلين من قوله ﷺ:

«رحم الله من غسل واغتسل» الحديث.

ثم إذا قضى وطره فليتمهل على أهله حتى تقضي هي أيضًا نهمتها، فإن إنزالها ربما يتأخر فيهيج شهوتها، ثم القعود عنها إيذاءً لها، والاختلاف في طبع الإنزال يوجب التنافر مهما كان الزوج سابقًا إلى الإنزال، والتوافق في وقت الإنزال ألذ عندها ليشتغل الزوج بنفسه عنها، فإنها ربما تستحي.

---

(١) «فقه السنة» (٢/١٢٧-١٢٩) باختصار.

(٢) متفق عليه.

وينبغي أن يأتيها في كل أربع ليال مرة فهو أعدل، إذ عدد النساء أربعة فجاز التأخير إلى هذا الحد، نعم ينبغي أن يزيد أو ينقص بحسب حاجتها في التحصين، فإن تحصينها واجب عليه، وإن كان لا يثبت المطالبة بالوطء فذلك لعسر المطالبة والوفاء بها.

ولا يأتيها في المحيض، ولا بعد انقضائه وقبل الغسل، فهو محرم بنص الكتاب، وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض، وله أن يستمني بيدها، وأن يستمتع بما تحت الإزار بما يشتهي سوى الوقاع.

وينبغي أن تتزر المرأة بإزار من حقوها إلى فوق الركبة في حال الحيض، فهذا من الأدب.

وله أن يؤاكل الحائض، ويخالطها في المضاجعة وغيرها، وليس عليه اجتنابها.

وإن أراد أن يجامع ثانيًا بعد أخرى فليغسل فرجه أولاً.

وإن احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول» اهـ.

❊ ❊ ❊

الصفة الحادية عشرة: لا يهضم حق زوجته

ومن هذه الحقوق:

١-المهر:

﴿ وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾[١].

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله -:

والمقصود بـ «صدقاتهـن» هو المهور، و «النحلة» هي العطية، وهل الصداق عطية؟ لا إنـه حق وأجر بضع. ولكن الله يريد أن يوضح لنا: أي فليكن إيتاء المهور للنساء نحلة، أي وازع دين لا حكم قضاء، والنحلة هي العطية.

وانظر إلى اللمسات الإلهية والأداء الإلهي للمعاني، لأنك إن نظرت إلى الواقع فستجد الآتي:

الرجل يتزوج المرأة، وللرجل في المرأة متعة، وللمرأة أيضًا متعة أي أن كلاً منهما له متعة وشركة في ذلك، وفي رغبة الإنجاب، وكان من المفترض ألا تأخذ شيئًا، لأنها ستستمتع وأيضًا قد تجد ولدًا لها، وهي ستعمل في المنزل والرجل سيكدح خارج البيت، ولكن هذه عطية قررها الله كرامة للنساء ﴿ وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ والأمر في «آتوا» لمن؟ إما أن يكـون للزوج فقوله: ﴿ وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ ﴾ يدل على أن المرأة صارت زوجة الرجل، وصار الرجل ملزمًا بالصداق ومن الممكن أن يكون دينًا إذا تزوجها بمهر في ذمته يؤديه لها عند يساره، وإما أن يكون الأمر لولي أمرها فالذي كان يزوجه أخته مثلاً، كان يأخذ المهر له ويتركها دون أن يعطيها مهرها، والأمر في هذه الآية - إذن - إما أن

(١) [النساء: ٤].

يكون للأزواج وإما أن يكون لـلأولياء. وحين يُشرع الحق لحماية الحقوق فإنه يفتح المجال لأريحيات الفضل.

لذلك يقول: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾.

لقد عرف الحق الحقوق أولاً بمخاطبة الزوج أو ولي الأمر في أن مهر الزوجة لها لأنه أجر البضع. ولكنه سبحانه فتح باب أريحية الفضل فإن تنازلت الزوجة فهذا أمر آخر، وهذا أدعى أن يؤصل العلاقة الزوجية وأن يؤدم بينهما. والمراد هنا هو طيب النفس، وإياك أن تأخذ شيئًا من مهر الزوجة التي تحت ولايتك بسبب الحياء، فالمهم أن يكون الأمر عن طيب نفس. ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ والهنيء هو الشيء المأكول وتستسيغه حين يدخل فمك لكنك قد تأكل شيئًا هنيئًا في اللذة وفي المضغ وفي الأكل ولكنه يورث متعبة صحية. إنه هنيء، لكنه غير مريء والمقصود هو أن يكون طيب الطعم وليس له عواقب صحية رديئة. وهو يختلف عن الطعام الهنيء غير المريء الذي يأكله الإنسان فيطلب من بعده العلاج.

إذن فكل أكل يكون هنيئًا ليس من الضروري أن يكون مريئًا وعلينا أن نلاحظ في الأكل أن يكون هنيئًا مريئًا.

والإمام علي- رضوان الله عليه وكرم وجهه - جاء له رجل يشتكي وجعًا، والإمام علي- كما نعرف - مدينة العلم والفتيا، وهبه الله مقدرة على إبداء الرأي والفتوى.

لم يكن الإمام علي طبيبًا.. لكن الرجل كان يطلب علاجًا من فهم الإمام علي وإشراقاته.

قال الإمام علي للرجل: خذ من صداق امرأتك درهمين واشتر بهما عسلاً،

وأذب العسل في مـاء مطر نازل لساعـته- أي قريب عـهد بالله- واشـربه فإني سمعت الله يقول في الماء ينزل من السماء:

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴾ [ق: ٩].

وسمعته سبحانه وتعالى يقول في العسل:

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل: ٦٩].

وسمعته يقول في مهر الزوجة:

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ [النساء: ٤].

فإذا اجتـمع في دواء البركة والشفاء الهنيء والمريء عـافاك الله إن شاء الله.

لقد أخذ الإمام علي- رضوان الله عليه وكرم الله وجـهه- عناصر أربعة ليمزجها ويصنع منها دواءً ناجعًا، كما يصنع الطبيب العلاج من عناصر مختلفة وقد صنع الإمام علي علاجًا من آيات القرآن.

٢-النفقة والسكنى:

والمقصـود بالنفقة هنا: توفـير ما تحتـاج إليه الزوجة من طعـام، ومسكن، وخدمة، ودواء وإن كانت غنية. وهي واجبة بالكتاب، والسنة، والإجماع:

١- قال تعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٦].

ومعنى قوله تعالى: «من وجدكم» أي: من سعتكم.

٢- وقال تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق: ٧].

٣- وعن عمـرو بن الأحوص الجُـشمي رضي الله عنه أنه سـمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في

«حُجة الوداع» يقول: «بعد أن حمد الله وأثنى عليه»، وذكر ووعظ. ثم قال:

«**ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هُن عوان[(١)] عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربًا غير مُبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حقًّا، فحقكم عليهن أن لا يُوطئن فُرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهم في كسوتهن وطعامهن**»[(٢)].

٤- وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال:

قلت يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟

قال: «**أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح**[(٣)]**، ولا تهجر إلا في البيت**»[(٤)].

٥- وعن عائشة رضي الله عنها: أن هندًا بنت عُتبة قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني وولدي إلا ما أخذت منه- وهو لا يعلم- قال: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[(٥)].

سبب وجوب النفقة:

أوجب الإسلام النفقة على الزوج لزوجته، لأن الزوجة بمقتضى عقد الزواج الصحيح تُصبح مقصورة على زوجها، ومحبوسة لحقه ؛ لاستدامة الاستمتاع

---

(١) عوان: أسيرات.

(٢) حسن: «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥١٣).

(٣) لا تقبح: أي: لا تسمعها المكروه، ولا تشتمها، ولا تقل: قبحك الله، ونحو ذلك.

(٤) حسن صحيح: «صحيح سنن أبي داود» (١٨٧٥).

(٥) رواه البخاري ومسلم.

بها، ويجب عليها طاعته، والقرار في بيته، وتدبير منزله، وحضانة الأطفال وتربية الأولاد، وعليه نظير ذلك أن يقوم بكفايتها والإنفاق عليها، ما دامت الزوجية بينهما قائمة، ولم توجد نشوز، أو سبب يمنع من النفقة عملاً بالأصل العام: كل من احتبس لحق غيره ومنفعته، فنفقته على من احتبس لأجله.

شروط استحقاق النفقة:

ويشترط لاستحقاق النفقة الشروط الآتية:

١-أن يكون عقد الزواج صحيحًا.

٢-أن تُسلم نفسها إلى زوجها.

٣-أن تمكنه من الاستمتاع بها.

٤-ألا تمتنع من الانتقال حيث يريد الزوج[١].

٥-أن يكون من أهل الاستمتاع.

فإذا لم يتوفر شرط من هذه الشروط، فإن النفقة لا تجب[٢].

* * *

(١) إلا إذا كان الزوج يريد الإضرار بها بالسفر، أو لا تأمن على نفسها أو مالها.

(٢) «فقه السنة» (٢/١١٦).

الصفة الثانية عشرة: العدل بين أزواجه:
لما أباح الإسلام التعدد، أمر بالعدل

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله تعالى -:

«وسبحانه وتعالى يريد أن يحل مشكلة نفسية قد تتعرض لها الأسر التي لا توجد فيها خميرة عقدية إيمانية، لا عند الرجل ولا عند المرأة، ولو كانت هذه الأسر تملك الخميرة الإيمانية المسبقة وأخذت أحكام الله بحقها لما وجدت هذه المشكلة، إنها مشكلة التعدد.

ظاهر الأمر أن الرجل حين يعدد زوجاته يكون محظوظًا؛ لأنه غير مقيد بواحدة بل له إلى أربع والمغبون هي المرأة؛ لأنها مقيدة بزوج واحد، فليست كل امرأة مهضومة، لأن الزوجة الجديدة تشعر بالسعادة. وقد نجد امرأة قال لها زوجها: سأتزوج بثانية، ورضيت هي بذلك، بعد أن وازنت بين أمورها فاختارت خير الأمور.

روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها، وكان لها منه ولد فقالت لا تطلقني ودعني أقوم على ولدي وتقسم لي فقال: إن كان هذا يصلح فهو أحب إلي فأقرها . إذن فالغمة في زواج الرجل من زوجة أخرى لا تعم كل النساء، فإن أحدث الزواج الغم والحزن عند الزوجة الأولى فهو يحدث سرورًا عند الزوجة الثانية. والمرأة معذورة في ذلك لأن الرجل أخذ حكم الله في أن يعدد ولم يأخذ مع هذا الحكم أن يعدل. والرجل يظلم المرأة حين يأخذ الحكم الذي في صالحه وهو إباحة التعدد ولا يأخذ من مبيح التعدد وهو المشرع الأعلى- وهو الله- الأمر بأن يعدل بين زوجاته.

لقد جنحت المجتمعات لأنهم رأوا الرجل حين يتزوج بأخرى لا يلتفت إلا

للزوجة الجديدة، ويهمل القديمة وأولاده منها؛ لذلك فالنساء معذورات في أن يغضبن من هذه المسألة. ولو أن الرجل أخذ حكم الله بالعدل كما أخذ إباحة الله في التعدد لحدث التوازن. وحين تعرف المرأة الأولى أن حقها لن يضيع لا في نفسها ولا في بيتها ولا في رعاية أولادها. فهي تقول: «من الأفضل أن يكون متزوجًا أمام عيني بدلاً من أن يدس نفسه في أعراض الناس».

إذن فالذي يثير المسألة كإشكال أن الرجل يأخذ بعض الكتاب فيعمل به ويترك بعضه فلا يطبقه ولا يعمل به. والذين يأخذون إباحة الله في التعدد لا بد أن يأخذوه بأصوله التي وضعها الله في إطار العدالة. وحين يكون للرجل امرأتان مثل سيدنا معاذ بن جبل، فكل امرأة لها حق في البيتوتة، ليلة لزوجة وليلة لأخرى مثلاً، وكان ﷺ لا يتوضأ عند واحدة في ليلة الأخرى مع أن الوضوء قربة لله، والأعجب من ذلك عندما ماتت الزوجتان في الطاعون، أمر بدفن الاثنتين في قبر واحد.

والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخلق وأمر بالعدالة في المستطاع، وعلى الرجل أن يعدل زمنًا، ويعدل نفقة، ويعدل ابتسامة، ويعدل مؤانسة ومواساة، والرجل في كل ذلك يستطيع، لكنه لا يستطيع أن يعدل في ميل القلب، وهو أمر مكتوم، لذلك قال الحق:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾(١).

أي إن العدل الحبي مستحيل. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**» - يعني القلب -(٢).

(١) [النساء: ١٢٩].

(٢) رواه أحمد وغيره.

إذن ففيه فرق بين ميل القلب وهو مواجيد نفسية والنزوع النفسي. والعملية الوجدانية لا يقدر عليها أحد، ولا يوجد تقنين يقول للرجل: «أحب فلانة».. إلا إذا أراد الحب العقلي، أما الحب العاطفي فلا. والذي يأمر به الشرع هو أن يحب الإنسان بالعقل، أما حب العاطفة فلا تقنين له أبدًا.

وقد يحب الإنسان الدواء المر بعقله لا بعاطفته ويسر الإنسان من صديق جاء بهذا الدواء من الخارج؛ لأن الدواء سيشفيه بإذن الله.

إذن ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ المَيْلِ﴾، ما هو كل الميل؟ ويوضحه- سبحانه- بقوله: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ وهي المرأة التي لا هي أيم أي لا زوج لها فتطلب الزواج، ولا هي متزوجة فتستمتع بوجود زوج، ويحجزها الرجل دون أن يمارس مسئوليته عنها، فيوضح الحق: أنا لا أطلب منك أن تميل بقلبك هنا، أو هناك؛ لأن هذه المسألة ليست ملكًا لك، ولكني أريد العدالة في الموضوعات الأخرى؛ كأن تسوي في البيتوتة والنفقة، ومطلوبات أولادك، وأن تعدل بين أزواجك في المؤانسة. أما المعني الآخر وهو ميل القلب فأنالا أكلف به.

وسبحانه حين يشرع لخلقه أعلم بمن خلق، وقد جعل لكل مخلوق منا عواطف ينشأ عنها ميل، وجعل له غرائز، وخيارات في الانفعالات ولو أراد سبحانه أن يحجر على الميل لما خلقه، ولكنه- جل وعلا- يطلق الميول لتتم بالميول مصالح الكون مجتمعة، فحين يمنح القلب أن يحب، يعلم سبحانه أن عمارة الكون تنشأ بالحب فلو لم يحب العالم أن يكتشف أسرار الله في خلقه لما حمل نفسه متاعب البحث والاطلاع والتجربة، وكل ما يترتب على ذلك من مشقات.

ولو لم يحب الإنسان اتقان عمله لما رأيت عملاً مجودًا. ولو لم يحب الإنسان أولاده لما تحمل المشقة في تبعات تربيتهم. إذن فالحب له مهمة. والله لا

يريد منا أن نمنع الحب. لكنه يريد منا أن نعلي مطالب الحب، فنجعل للحب مجالاته المشروعة لا أن ينطلق الحب في الكون ليعربد في أعراض الناس.

إنك حين تجعل الحب موجهًا إلى خير لا يأتيك منه أو للناس شر. وعندما ننظر - مثلاً- إلى دافع وغريزة حب الاستطلاع نجد أن الله قد خلقها في الإنسان ليصعد ابتكاراته المسعدة في الحياة. ولو لم توجد غرائز حب الاستطلاع لما تعب المكتشف في أن يبتكر شيئًا أو يخترعه ويكتشفه حتى يريحنا نحن البشر، ولما فكر الإنسان في أن يستعمل البخار ليحمل عن الناس مشقات السفر ومشقات حمل الثقيل إن هذا الاكتشاف أراحنا باختراع الباخرة أو القطار.

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلي غريزة حب الاستطلاع فينبغي أن نجعلها في مجالها المشروع فلا نجعلها تجسسًا على عورات الناس مثلاً، وكذلك جعل الله غريزة حب المال في الإنسان؛ لأن حب المال يدفع الإنسان إلى أن يعمل، ويستفيد الناس من عمله أراد أو لم يرد. كذلك غريزة الجنس جعلها الله في الإنسان ولها سعار ليحفظ بها النوع الإنساني. إنه سبحانه لا يريد منها أن تنطلق انطلاقًا يلغ في أعراض الناس. إذن فالغرائز خلقها الله لمهمة. والشرائع جاءت لتحفظ الغرائز في مجال مهمتها وتمنع عنها انطلاقاتها المسعورة في غير المجالات التي حددها لها المنهج.

إذن فالميل أمر فطرى في النفس البشرية وقد أوضح الحق سبحانه: أنا خلقت الميل ليخدم في عمارة الكون، ولكن أريد منكم أن تصعدوا الهوى وتعلوه في هذا الميل، وحين تعددون الزوجات. لا أطلب منكم البعد عن كل الميل ؛ لأن ذلك أمر لا يحكمه منطق عقلي، ولكن أحب أن تحددوا الميل وتجعلوه في مجاله القلبي فقط، ولا يصح أن يتعدى الميل عند أحدكم إلى ميله القالبي.

أحب أيها العبد المؤمن من شئت وأبغض من شئت، لكن لا تجعل هذا الحب يقود قالبك لتعطي من تحب خير غيره ظلمًا، وأبغض أيها العبد من شئت، فلا يستطيع مقنن أن يقنن للقلب أن يبغض أو يحب، لكن بغضك لا تعديه عن قلبك إلى جوارحك لتظلم من تبغض.

ولنا الأسوة في سيدنا عمر بن الخطاب- رضوان الله عليه- حينما مر عليه قاتل أخيه، ولفت نظره جليس له: هذا قاتل أخيك.

هنا قال عمر ﷺ: وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام؟ كأن إسلام هذا القاتل قد أنهى المسألة عند عمر ﷺ. وعندما جاء هذا القاتل لمجلس عمر، قال له سيدنا عمر: إذا أقبلت على إلو وجهك عني، لأن قلبي لا يرتاح لك. فسأل الرجل: أو عدم حبك لي يمنعني حقًا من حقوقي؟ قال عمر: لا.

قال الرجل: إنما يبكي على الحب النساء. هذا عمر وهو الخليفة، والرجل من الرعية. لكن عمر الخليفة يخاف من الظلم، ويملك هذا الشخص وهو تحت إمرة وحكم الخليفة عمر ﷺ قدرة الرفض لمشاعر الحب أو الكراهية ما دامت لا تمنع حقوقه كمواطن.

إن الحق سبحانه وتعالى حينما يخلق ميول القلوب يضع أيضًا القاعدة: إياك أيها المؤمن أن تعدي ميل القلب إلى القالب، وليكن ميل القلب كما تحب. كذلك إن أنت أيها المؤمن تزوجت وبعد ذلك تزوجت امرأة أخرى فالمنهج لا يطلب منك أن تعدل العدل المطلق الذي ينصب على شيء لا تملكه وهو ميل قلبك. ولكن المنهج يضع لك القواعد التي يسير عليها سلوك قالبك. وعليك أن تعدل في قسمة الزمن والنفقة والكسوة وبشاشة الوجه وحسن الحديث. ولا تخضع ذلك لميل القلب، وبعد ذلك أنت وقلبك أحرار.

ونرى بعضًا من الذين يحبون أن يظهـروا بين الناس كفاهمين للقرآن أو دعاة تجديد، يركبون الموجة ضد التـعدد. ونقول: قبل أن يركب الواحد منكم الموجة ضد التعـدد، ويقف منه موقف الرافض له مدعيًا أنه يفـهم النص القرآني، إننا نقول له: عـليك أن تبحث عن أسـباب السخط عـلى التعدد، هي لـيست من التعدد في ذاته، ولكـنها تأتي من أن المسلم يأخذ إباحة الله للتـعدد. ولا يأخذ حكم الله في العدالة. فلو إن المسلم أخذ بالعدالة مع الـتعدد لما وجدنا مثل هذه الأزمة. ولذلـك يقول الواحد مـن هؤلاء: إن الحق سبحـانه وتعالى أمـر بلزوم واحدة والاقتصار عليها عند خوف ترك العدل في التعدد فقال:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء: ٣].

ثم جاء في آية أخرى وقال: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾.

ونقول: إن الواحـد منكم إن أراد أن يفهم الـقرآن، فعليـه أن يعلم أن الحق سبحانه لم يقف في هذه الآية عند قوله: ﴿ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ إنما فرع على عدم الاستطاعة في العدل فقال: ﴿ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ إنه - سبحانه - فرع على عدم الاستطاعة في العدل فـأمر بعدم الميل كل الميل. وتلك حكمة المشرع الأول الذي يعلم من خلق وكيـف خلق. ولو أن الحق لم يفرع على «ولن تستطيـعوا» لجاز لهـؤلاء الذين يركبـون الموجة المطالبـة بعدم التعـدد أن يقولوا مـا يقولون؛ لذلك نقول لهم: انتبـهوا إلى أن الحق سبحانه أوضح: عدم اسـتطاعتكم للعدل هو أمر أنا أعلمه، ولذلك أطلب منكم ألا تمـيلوا كل الميل وذلك باستطاعتكم. ومعنى هذا أنه سبحانه قد أبقى الحكم ولم يسلبه.

﴿ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ وفي هذا القول أمر بألا يترك الرجل زوجته الأولى كـالمعلقة وهي المرأة التي لم يتحدد مصيـرها ومسارها في

الحياة، فلا هي بغير زوج فتتزوج، ولا هي متزوجة فتأخذ قسمها وحظها من زوجها، بل عليه أن يعطيها حظها في البيتوتة والنفقة والملبس وحسن الاستقبال والبشاشة والمؤانسة والمواساة.

ويقول الحق من بعد ذلك: ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقوله: «تصلحوا» دليل على أنه كان هناك إفساد موجود والمطلوب أن نقوم بالبحث عن الأسباب التي جعلت الرجل يفسد في علاقته الزوجية ليقضي عليها، وبعد ذلك على المسلم أن يستأنف تقوى جديدة في المعاملة على ضوء ما شرع الله، وحين يصلح المسلم ما أفسد من جعل الزوجة الأولى كالمعلقة ويعطيها حقها في البيتوتة والنفقة ورعاية أولادها والإقبال عليها وعلى الأولاد بصورة طيبة فالله سبحانه يغفر ويرحم، ولا يصلح المسلم ما أفسد إلا وهو ينوي ألا يستأنف عملاً إلا إذا كان على منهج التقي، ويجد الحق غفوراً لما سبق ورحيمًا به .

وإن لم يستطيع الرجل هذا، ولا قبلت المرأة أن تتنازل عن شيء من قسمها ترضيه له تكن التفرقة- هنا - أمراً واجبًا. فليس من المعقول أن نحكم الحياة الزوجية والحياة الأسرية بسلاسل من حديد، ولا يمكن أن نربط الزوجين بعدم الافتراق إن كانت القلوب متنافرة وكذلك لا نأمن على المرأة أن تعيش هكذا.

إن الذي يقول: لا يصح أن نفرق بين الزوجين، نقول له: كيف تريد أن تحكم الحياة الزوجية بالسلاسل؟ والزواج صلة مبناها السكن والمودة والرحمة، فإن انعدمت هذه العناصر فكيف يستمر الزواج وكيف ترغم زوجًا على أن يعايش زوجة لا يحبها ولا يقبلها وترغم زوجة أن تعيش مع زوج لا تحبه؟ إن التفريق بينهما في مثل هذه الحالة قد يكون وسيلة أرادها الله سبحانه وتعالى ليرزق الزوج خيراً منها ويرزق الزوجة خيراً منه.

وكثيراً ما شهدنا هذا في واقع الحياة، وعاش الزوج مع الزوجة الجديدة سعيداً، وعاشت الزوجة مع الزوج الجديد سعيدة، أما الذين تشدقوا بمسألة عدم التفريق مع استحالة الحياة الزوجية وهاجموا الإسلام في هذا المجال. فهم يرددون ما كان عند أهل الغرب: من أن الزواج لا انفصال فيه.

إننا نرى العالم كله الآن بكل النصارى واليهود وغيرهم من الملل والنحل يلجأون إلى الطلاق؛ لأن الأحداث اضطرتهم إلى أن يشرعوا الطلاق، فكأنهم ذهبوا إلى الإسلام لا على أنه إسلام، ولكن على أنه الحل الوحيد لمشكلاتهم. فإذا ثبت أن الذين يهاجمون جزئية من جزئيات الدين يضطرون إليها تحت ضغط الأحداث فيجب أن ننبههم إلى عدم التسرع والعجلة والحكم على قضايا الدين الإسلامي بأنها غير صالحة؛ لأن الحق أرغم من لم يكن مسلمًا على أن ينفذ قضية إسلامية. فهو القائل:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾[1].

وسبحانه عنده الفضل الواسع، وهو القادر أن يرزق الزوج زوجة صالحة تشبع كل مطالبه، ويرزق الزوجة زوجًا آخر يشبع كل احتياجاتها ويقبل دمامتها لو كانت دميمة، ويجعله الله صاحب عيون ترى نواحي الخير والجمال فيها. وقد نجد رجلاً قد عضته الأحداث بجمال امرأة كان متزوجًا بها وخبلته وجعلت أفكاره مشوشة مضطربة وبعد ذلك يرزقه الله بمن تشتاق إليه، بامرأة أمينة عليه، ويطمئن عندما يغترب عنها في عمله. ولا تملأ الهواجس صدره؛ لأن قلبه قد امتلأ ثقة بها وإن كانت قليلة الحظ من الجمال.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ فإياك أن تظن بأن الله ليس عنده ما يريح كل إنسان. فسبحانه عنده كل ما يريح كل

---

(١) [النساء: ١٣٠].

الناس. وصيدلية منهج الله مليئة بالأدوية، وبعض الخلق لا يفقهون في استخدام هذه الأدوية لعلاج أمراضهم.

ومن الحكمة أنه سبحانه لا يرغم اثنين على أن يعيش معًا وهما كارهان؛ لأنهما افتقدا المودة والرحمة فيما بينهما.

* * *

الصفة الثالثة عشرة: التسريح بإحسان عند الطلاق

يقول الحق:

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾(١) .

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله -:

فإذا ضاقت بكل المسائل، بعد أن عاشرت بالمعروف ولم يعد ممكنًا أن تستمر الحياة الزوجية في إطار يرضي عنه الله، وتخاف أن تنفلت من نفسك إلى ما حرم الله، ماذا تفعل؟ يقول سبحانه: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾ أي لك أن تستبدل ما دامت المسألة ستصل إلى جرح منهج الله، وعليك في هذا الاستبدال أن ترعى المنهج الإيماني مثلما أشار به سيدنا الحسن ﷺ على الرجل الذي كان يستشيره في واحد جاء ليخطب ابنته . قال سيدنا الحسن ﷺ: إن جاءك الرجل الصالح فزوجه، فإنه إن أحب ابنتك أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها.

والحق يقول: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾ فهذا يعني أن الرغبة قد انصرفت عن الأولى نهائيًا، ولا يمكن التغلب عليها بغير الانحراف عن المنهج. وقد يحدث أن يضيق الرجل بزوجته وهو لا يعاني من إلحاح في الناحية الغريزية، فيطلقها ولا يتزوج، فما شروط المنهج في هذا الأمر؟

يقول الحق: ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ كلمة «قنطار» وكلمة «قنطرة» مأخوذة من الشيء العظيم. وقنطار تعني «المال». وقدروه قديمًا بأنه ملء مسك البقرة، و «المسك» هو الجلد، فعندما يتم سلخ البقرة يصبح

---

(١) [النساء: ٢٠].

جلدها مثل القربة، وملء مسكها يسمى قنطاراً، والقنطار المعروف عندنا الآن له سمة وزنية، والحق حين يعظم المهر بقنطار يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ فهو يأتي لنا بمثل كبير وينهانا بقوله: ﴿فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا﴾. لماذا؟ لأنك يجب أن تفهم أن المهر الذي تدفعه ليس منساحًا على زمن علاقتك بالمرأة إلى أن تنتهي حياتكما، بل المهر مجعول ثمنًا للبضع الذي أباحه الله لك ولو للحظة واحدة، فلا تحسبها بمقدار ما مكثت معك، لا، إنما هو ثمن البضع، فقد كشفت نفسها لك وتمكنت منها ولو مرة واحدة.

إذن فهذا القنطار عمره ينتهي في اللحظة الأولى، لحظة تمكنك منها. ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ وهذه هي المسألة التي قال فيها سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: أخطأ عمر وأصابت امرأة، لأنه كان يتكلم في غلاء المهور؛ فقالت له المرأة: كيف تقول ذلك والله يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾، فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

عن عمر ﷺ أنه نهى وهو على المنبر عن زيادة صداق المرأة على أربعمائة درهم ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾؟ فقال: اللهم عفواً كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فركب المنبر فقال: «إني كنت قد نهيتكم أن تزيدوا في صدقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب»[(١)].

وعن عبد الله بن مصعب أن عمر ﷺ قال: «لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية من فضة، فمن زاد أوقية جعلت الزيادة في بيت المال، فقالت امرأة: ما ذاك لك، قال ولم؟ فقالت: لأن الله تعالى يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ فقال عمر: «امرأة أصابت ورجل أخطأ».

---

(١) رواه سعيد بن منصور، وأبو يعلى.

ثم ينكر القرآن مجرد فكرة الأخذ فيقول: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ لماذا؟ لأنه ليس ثمن استمتاعك بها طويلاً، بل هو ثمن تمكنك منها، وهذا يحدث أول ما دخلت عليها. وإن أخذت منها شيئًا من المهر بعد ذلك فأنت آثم، إلا إذا رضيت بذلك، والإثم المبين هو الإثم المحيط.

ويأتي الحق من بعد ذلك بمزيد من الاستنكار فيقول: «وكيف تأخذونه» إنه استنكار لعملية أخذ شيء من المهر بحيثية الحكم فيقول:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[1].

فلو أدركتم كل الكيفيات فلن تجدوا كيفية تبرر لكم الأخذ، لماذا؟ لأن الحق قال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ وانظر للتعليل: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾. إذن فثمن البُضع هو الإفضاء، وكلمة ﴿أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ كلمة من إله؛ لذلك تأخذ كل المعاني التي بين الرجل والمرأة، و«أفضى» مأخوذة من «الفضاء» والفضاء هو المكان الواسع، و«أفضى بعضكم» يعني دخلتم مع بعض دخولاً غير مضيق.

إذن فالإفضاء معناه: أنكم دخلتم معًا أوسع مداخلة، وحسبك من قمة المداخلة أن عورتها التي تسترها عن أبيها وعن أخيها وحتى أمها وأختها تبينها لك، ولا يوجد إفضاء أكثر من هذا، ودخلت معها في الاتصال الواسع، أنفاسك، ملامستك، مباشرتك، معاشرتك، مدخلك، مخرجك، في حمامك، في المطبخ، في كل شيء حدثت إفضاءات، وأنت ما دمت قد أفضيت لها وهي قد أفضت لك كما قال الحق أيضًا في المداخلة الشاملة:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

---

(١) [النساء: ٢١].

أي شيء تريد أكثر من هذا!؟ ولـذلك عندما تشتد امرأة على زوجـها، قد يغـضب، ونقـول له: يكفيـك أن الله أحل لك منها مـا حـرمـه على غيـرك، وأعطتك عرضـها، فـحين تشتد عليك لا تغـضب، وتذكر حـديث رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»(١).

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ والميثـاق هو: العهد يؤخذ بين اثـنين، ساعة سألت وليـها: «زوجني» فقال لك: زوجـتك، ومفهوم أن كلمة الزواج هذه ستـعطي أسرة جديدة، وكل ميثاق بين خلق وخـلق في غير العرض هو ميثاق عـادي، إلا الميثاق بين الرجل والمرأة التي يتزوجها ؛ فهذا هو الميثاق الغليظ، أي غير اللين، والله لم يصف به إلا ميثاق النبيين فوصفه بأنه غليظ(٢)، ووصف هذا الميثاق بأنه غليظ. ففي هذه الآية ﴿أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ فهنا إفـضاء وفي آية أخـرى يكون كل من الزوجين لباسًا وسترًا للآخر ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ لهذا كان الميثاق غليظًا، وهذا الميثاق الغليظ يحتم عليك إن تعثرت العـشرة أن تتحملها وتعاملها بالمعروف، وإن تعذرت وليس هناك فائدة من استدامتها فيصح أن تستبدلها، فإن كنت قـد أعطيتـهـا قنطارًا إياك أن تأخـذ منه شيـئًـا، لماذا؟ لأن ذلك هو ثمن الإفضاء، ومـا دام هذا القنطار هو ثمن الإفضاء وقـد تم، فلا تأخذ منه شيئًا، فالإفضاء ليس شائعًا في الزمن كي توزعه، لا.

والحق يقول: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ هنا يجب أن نفهم أن الحق حين يشرع فهو يشرع الحقوق، ولكنه لا يمنع الفضل، بدليل أنه قال:

---

(١) رواه الترمـذي عن عائشـة، ورواه ابن ماجـه عن ابن عباس ورواه الـطبراني في الكبـير عن معاوية.

(٢) الآية رقم ٧ من سورة الأحزاب.

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ [النساء: ٤].

إذن ففيه فرق بين الحق وما طاب لكم، والأثر يحكي عن القاضي الذي قال لقومه: أنتم اخترتموني لأحكم في النزاع القائم بينكم فماذا تريدون مني؟! أأحكم بالعدل أم بما هو خير من العدل؟ فقالوا له: وهل يوجد خير من العدل؟ قال: نعم، الفضل. فالعدل: أن كل واحد يأخذ حقه، والفضل: أن تتنازل عن حقك وهو يتنازل عن حقه، وتنتهي المسألة، إذن فالفضل أحسن من العدل، والحق سبحانه وتعالى حين يشرع الحقوق يضع الضمانات، ولكنه لا يمنع الفضل بين الناس:

فيقول - جل شأنه -:

﴿ وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ويقول الحق في آية الدين:

﴿ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ويأمركم الحق أن توثقوا الدين .. لأنكم لا تحمون مال الدائن فحسب بل تحمون المدين نفسه، لأنه حين يعلم أن الدين موثق عليه ومكتوب عليه فلن ينكره، لكن لو لم يكن مكتوبًا فقد تُحدثه نفسه أن ينكره، إذن فالحق يحمي الدائن والمدين من نفسه قال: ﴿ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ ﴾، وقال بعدها:

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

فقد تقول لمن يستدين منك: لا داعي لكتابة إيصال وصك بيني وبينك، وهذه أريحية لا يمنعها الله فما دام قد أمن بعضكم بعضًا فليستح كل منكم وليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه.

وما دام قد جعل للفضل مجالاً مع تسجيل الحقوق فلا تنسوا ذلك. فما بالنا بالميثاق الغليظ بين الرجل والمرأة. وغلظ الميثاق إنما يتأتى بما يتطلبه الميثاق، ولا يوجد ميثاق أغلظ مما أخذه الله من النبيين ومما بين الرجل والمرأة؛ لأنه تعرض لمسألة لا تباح من الزوجة لغير زوجها، ولا من الزوج لغير زوجته. إن على الرجل أن يوفي حق المرأة ولا يصح أن ينقصها شيئًا إلا إذا تنازلت هي. فقد سبق أن قال الحق:

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ [النساء: ٤].

وما دامت النفس قد طابت، إذن فالرضا بين الطرفين موجود، وذلك استطراق أنسى بين الرجل والمرأة. فالمهر حقها، ولكن لا يجب أن يقبض بالفعل، فهو في ذمة الزوج، إن شاء أعطاه كله أو أخره كله أو أعطى بعضه وأخر بعضه. ولكن حين تنفصل الزوجة بعد الدخول يكون لها الحق كاملاً في مهرها، إن كان قد أخره كله فالواجب أن تأخذه، أو تأخذ الباقي لها إن كان قد دفع جزءًا منه كمقدم صداق. ولكن حين تنتقل ملكية المهر إلى الزوجة يفتح الله باب الرضا والتراضي بين الرجل والمرأة فقال: ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ فهو هبة تخرج عن تراضٍ. وذلك مما يؤكد دوام العشرة والألفة والمودة والرحمة بين الزوجين. وبعد ذلك يبقى حكم آخر. هب أن الخلاف استعر بين الرجل والمرأة.

حالة تكره هي وتحب أن تخرج منه لا جناح أن تفتدي منه نفسها ببعض المال لأنها كارهة، وما دامت هي كارهة، فسيضطر هو إلى أن يبنى بزوجة جديدة، إذن فلا مانع أن تختلع المرأة منه بشيء تعطيه للزوج:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا الدليل على أن حق المرأة يجب أن يحفظ لها، ولذلك جاء بأسلوب تناول مسألة أخذ الزوج لبعض مهر الزوجة في أسلوب التعجب:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

فكأن «وكيف تأخذونه» هذه دليل على أنه لا يوجد وجه من وجوه الحق يبيح لك أن تأخذ منها مهرها، فساعة يستفهم فيقول: «كيف» فهذا تعجيب من أن تحدث هذه، وقلنا: إن كل المواثيق بين اثنين لا تعطي إلا حقوقًا دون العرض، ولكن ميثاق الزواج يعطي حقوقًا في العرض، ومن هنا جاء غلظ الميثاق، وكل عهد وميثاق بين اثنين قد ينصب إلى المال، وقد ينصب إلى الخدمة، وقد ينصب إلى أن تعقل عنه الدية، وقد ينصب إلى أنك تعطيه مثلاً المعونة، هذه ألوان من المواثيق إلا مسألة العرض، فمسألة العرض عهد خاص بين الزوجين، ومن هنا جاء الميثاق الغليظ.

❋ ❋ ❋

الصفة الرابعة عشرة: لا يخطب المرأة في عدتها

قال تعالى:

﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[1].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله -:

و«عرضتم» مأخوذة من التعريض، والتعريض: هو أن تدل على شيء لا بما يؤديه نصًّا، ولكن تعرض به تلميحًا.

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل للعواطف تنفيسًا من هذه الناحية، والتنفيس ليس مجرد تعبير عن العاطفة، ولكنه رعاية للمصلحة، فمن الجائز أنه لو حرم التعريض لكان في ذلك ضياع فرصة الزواج للمرأة، أو قد يفوت- هذا المنع- الفرصة على من يطلبها من الرجال؛ لذلك يضع الحق القواعد التي تفرض على الرجل والمرأة معًا أدب الاحتياط، وكأنه يقول لنا: أنا أمنعكم أن تخطبوا في العدة أو تقولوا كلامًا صريحًا وواضحًا فيها، لكن لا مانع من التلميح من بعيد.

مثلاً يثني الرجل على المرأة؛ ويعدد محاسنها بكلام لا يعد خروجًا على آداب الإسلام مثل هذا الكلام هو تلميح وتعريض، وفائدته أنه يعبر عما في نفس قائله تجاه المطلقة فتعرف رأيه فيها، ولو لم يقل ذلك فربما سبقه أحد إليها وقطع عليه السبيل لإنفاذ ما في نفسه، ومنعه من أن يتقدم لخطبتها بعد

(١) [البقرة: ٢٣٥].

انتهاء العدة، وقد يدفعه ذلك لأن يفكر تفكيراً آخر للتعبير بأسلوب وشكل خاطئ.

إذن فالتعريض له فائدة في أنه يُعرف المطلقة رأى فلان فيها حتى إن جاءها غيره لا توافق عليه مباشرة. وهكذا نرى قبسًا من رحمة الحق سبحانه وتعالى بنا، بأن جعل العدة كمنطقة حرام تحمي المرأة، وجعل التعريض فرصة للتعبير عن العاطفة التي تؤسس مصلحة من بعد ذلك.

إن الحق يقول: ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء﴾ والخطبة مأخوذة من مادة «الخاء» و «الطاء» و «الباء» وتدل على أمور تشترك في عدة معالم: منهم خُطبة بضم الخاء، ومنها خطب وهو الأمر العظيم، ومنها المعنى الذي نحن بصدده وهو الخطبة بكسر الخاء. وكل هذه المعالم تدل على أن هناك الأمر العظيم الذي يُعالج، فالخطب أمر عظيم يهز الكيان، وكذلك الخُطبة لا يلقيها الخطيب إلا في أمر ذي بال، فيعظ المجتمع بأمر ضروري.

والخطبة كذلك أمر عظيم؛ لأنه أمر فاصل بين حياتين: حياة الانطلاق، وحياة التقيد بأسرة وبنظام. وكلها معان مشتركة في أمر ذي بال، وأمر خطير. وهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي لا جناح عليكم أن وضعتم في أنفسكم أمرًا يخفي على المرأة وللمسلم أن يكتن ويخفي في نفسه ما يشاء، ولكن ما الذي يُدري ويعلم المطلقة أنها في بالك يا من أسررت أمرها في نفسك؟ إنك لابد أن تلمح وأن تعرض بأسلوب يليق باحترام المرأة.

ويقول الحق: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾، إن الذي خلقك يعلم أنها ما دامت في بالك، ومات زوجها عنها أو طلقها فقد أصبحت أملاً بالنسبة لك، فلو أنه ضيق عليك لعوق عواطفك، ولضاعت منك الفرصة لأن تتخذها زوجة من بعد ذلك، ولهذا أباح الحق التعريض حتى لا يقع أحدكم في المحظور وهو

﴿لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًا﴾ بأن تأخذوا عليهن العهد ألا يتزوجن غيركم، أو يقول لها: تزوجيني بل عليه أن يعرض ولا يفصح ولا يصرح. إن المواعدة في السر أمر منهي عنه، لكن المسموح به هو التعريض بأدب، ﴿إلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ كأن يقول «يا سعادة من ستكون له زوجة مثلك» . ومثل ذلك من الثناء الذي يُطرب المرأة.

ونعلم جميعًا أن المرأة في مثل حال المطلقة أو المتوفي عنها زوجها تملك شفافية وألمعية تلتقط بها معنى الكلام ومراده.

ويتابع الحق: ﴿وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ وهكذا نرى أن مجرد العزم الأكيد أمر نهى عنه والعزم مقدم على الفعل فإذا نهى عنه كان النهي عن الفعل أقوى وأشد وأنهى، فلك أن تنوي الزواج منها وتتوكل على الله، لكن لا تجعله أمرًا مفروغًا منه، إلا بعد أن تتم عدتها، فإن بلغ الكتاب أجله وانتهت عدتها فاعزموا عقدة النكاح. فكأن عقدة النكاح تمر بثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: وهي التعريض أي التلميح.

والمرحلة الثانية: هي العزم الذي لا يصح ولا يستقيم أن يتم إلا بعد انتهاء فترة العدة.

والمرحلة الثالثة: هي العقد.

والمقصود بهذه المراحل أن يأخذ كل طرف فرصته للتفكير العميق في هذا الأمر الجاد، فإن كان التفكير قد هدى إلى العزم فإن للإنسان أن يعقد بعد انتهاء العدة، وإن كان التفكير قد اهتدى إلى الابتعاد وصرف النظر عن مثل هذا الأمر فللإنسان ما يريد.

ويريد الحق من هذه المراحل أن يعطي الفرصة في التراجع إن اكتشف أحد

الطرفين في الآخر أمرًا لا يعجبه. وكل هذه الخطوات تدل على أن العقد لا يكون إلا بعزم، فلا يوجد عقد دون عزم، إن الحق يريد من المسلم ألا يقدم على عقدة النكاح إلا بعد عزم. والعز معناه التصميم على أنك تريد الزواج بحق الزواج وبكل مسئولياته، وبكل مهر الزواج، ومشروعيته، وإعفافه؛ فالزواج بدون أرضية العزم مصيره الفشل.

ومعنى العزم: أن تفكر في المسألة بعمق وروية في نفسك حتى تستقر على رأى أكيد، ثم لك أن تقبل على الزواج على أنه أمر له ديمومة وبقاء لا مجرد شهوة طارئة ليست لها أرضية من عزيمة النفس عليها.

ولذلك فإن الزواج القائم على غير روية، والمعلق على أسباب مؤقتة كقضاء الشهوة لا يستمر ولا ينجح. ومثل ذلك زواج المتعة؛ فالعلة في تحريم زواج المتعة أن المقدم عليه لا يريد به الاستمرار في الحياة الزوجية، وما دام لا يقصد منه الديمومة فمعناه أنه هدف للمتعة الطارئة.

والذين يبيحون زواج المتعة مصابون في تفكيرهم؛ لأنهم يتناسون عنصر الإقبال بديمومة على الزواج، فما الداعي لأن تقيد زواجك بمدة؟ إن النكاح الأصيل لا يُقيد بمثل هذه المدة. وتأمل حمق هؤلاء لتعلم أن المسألة ليست مسألة زواج، إنما المسألة هي تبرير زني، وإلا لماذا يشترط في زواج المتعة أن يتزوجها لمدة شهر أو أكثر؟

إن الإنسان حين يشترط تقييد الزواج بمدة فذلك دليل على غباء تفكيره وسوء نيته؛ لأن الزواج الأصيل هو الذي يدخل فيه بديمومة، وقد ينهيه بعد ساعة إن وجد أن الأمر يستحق ذلك، ولن يعترض أحد على مثل هذا السلوك، فلماذا تقيد نفسك بمدة؟ إن المتزوج للمتعة يستخدم الذكاء في غير محله، قد يكون ذكيًّا في ناحية ولكنه قليل الفطنة في ناحية أخرى.

إن على الإنسان أن يدخل على الزواج بعزيمة بعد تفكير عميق وروية ثم ينفذ العزم إلى عقد. حذار أن تضع في نفسك مثل هذا الزواج المربوط على مطامع وأهداف في نفسك كعدم الديمومة أو لهدف المتعة فقط، فكل ما يفكر فيه بعض الناس من أطماع شهوانية ودنيوية هي أطماع زائلة. اصرف كل هذه الأفكار عنك؛ لأنك إن أردت شيئًا غير الديمومة في الزواج، وإرادة الإعفاف؛ فالله سبحانه وتعالى يعلمه وسيرد تفكيرك نقمة عليك فاحذره.

إن الله سبحانه لا يحذر الإنسان من شيء إلا إذا كان مما يغضبه سبحانه. لذلك يذيل الحق هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ وهو سبحانه يعلم ضعف النفس البشرية وأنها قد تضعف في بعض الأحيان، فإن كان قد حدث منها شيء فالله يعطيها الفرصة في أن يتوب صاحبها لأنه سبحانه هو الغفور الحليم.

❋ ❋ ❋

الصفة الخامسة عشرة: تعلمه أحكام الطلاق

وهذا فقه مهم حتى يأمن الزوج من العيش في سفاح وهو لا يدري.

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله -:

يأتي الإسلام بتشريعاته السامية لتناسب كل ظروف الحياة فيقول الحق سبحانه:

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ ﴾(١).

الآية كلها تتضمن أحكامًا تكليفية، والحكم التكليفي الأول هو: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ ولنا أن نلحظ أن الحكم لم يرد بصيغة الأمر ولكن جاء في صيغة الخبر، فقال: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾، وحين يريد الحق سبحانه وتعالى حكمًا لازمًا لا يأتي له بصيغة الأمر الإنشائي، ولكن يأتي له بصيغة الخبر، هذا آكد وأوثق للأمر كيف؟

معنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حين يأمر فالأمر يصادف من المؤمنين به امتثالاً، ويطبق الامتثال في كل الجزئيات حتى لا تشذ عنه حالة من الحالات فصار واقعًا يُحكى وليس تكليفًا يُطلب، وما دام قد أصبح الأمر واقعًا يُحكى فكأن المسألة أصبحت تاريخًا يُرى هو: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ ويجوز أن نأخذ الآية على معنى آخر هو أن الله قد قال: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ فيكون كلامًا خبريًا.

---

(١) [البقرة: ٢٢٨].

وقلنا إن الكلام الخبري يحتمل الصدق والكذب، إن الله قد قال ذلك فمن أراد أن يصدق كلام الله فلينفذ الحكم، ومن أراد أن يبارز الله بالتكذيب ولا يصدقه فلا ينفذ الحكم، ويرى في نفسه آية عدم التصديق وهي الخسران المبين، أليس ذلك أكثر إلزامًا من غيره؟

إذن فقول الحق: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ هو حكم تكليفي يستحق النفاذ لمن يؤمن بالله، وقوله: «يتربصن» أي ينتظرن، واللفظ هنا يناسب المقام تمامًا، فالمتربصة هي المطلقة، ومعنى مطلقة أنها مزهود فيها، وتتربص وتنتظر انتهاء عدتها حتى ترد اعتبارها بصلاحيتها للزواج من زوج آخر. ولم ينته القول الكريم بقوله: «يتربصن» وإنما قال: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ مع أن المتربصة هي نفسها المطلقة؛ ذلك لأن النفس الواعية المكلفة والنفس الأمارة بالسوء تكونان في صراع على الوقت وهو «ثلاثة قروء»، «وقروء» جمع «قرء» وهو إما الحيضة وإما الطهر الذي بين الحيضتين. وقوله الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ ما المقصود به؟

هل هو الحيضة أو الطهر؟ إن المقصود به الطهر؛ لأنه قال: «ثلاثة» بالتاء، ونحن نعرف أن التاء تأتي مع المذكر، ولا تأتي مع المؤنث، و «الحيضة» مؤنثة و«الطهر» مذكر، إذن، «ثلاثة قروء» هي ثلاثة أطهار متواليات. والعلة هي استبراء الرحم وإعطاء مهلة للزوجين في أن يراجعا نفسيهما، فربما بعد الطهر الأول أو الثاني يشتاق أحدهما للآخر، فتعود المسائل لما كانت عليه، لكن إذا مرت ثلاثة أطهار فلا أمل ولا رجاء في الرجوع.

ثم يقول الحق بعد ذلك: ﴿وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ وما معنى الخلق؟ الخلق هو إيجاد شيء كان معدومًا، وهذا الشيء الذي كان معدومًا إما أن يكون حملاً وإما أن يكون حيضًا، وللحامل عدة جاءت في قوله الحق.

﴿ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤].

أما المرأة الحائل وهي التي بدون حمل، فعدتها أن تحيض وتطهر ثلاث مرات وهناك حالة ثالثة هي:

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ [الطلاق: ٤].

أي إن المرأة التي انقطعت عنها الدورة الشهرية فعدتها «ثلاثة أشهر» الحكم نفسه للصغيرة التي لم تحض بعد، أي عدتها ثلاثة أشهر، إذن فنظام العدة له حالات:

* إن كانت غير حامل فعدتها ثلاثة قروء أي ثلاثة أطهار إن كانت ممن يحضن.

* إن كانت حاملاً فعدتها أن تضع حملها.

* وإن لم تكن حاملاً وقد بلغت سن اليأس ولم تعد تحيض، أو كانت صغيرة لم تصل لسن الحيض، هذه وتلك عدتها ثلاثة أشهر.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ يدل على أن المرأة لها شهادتها لنفسها في الأمر الذي يخصها ولا يطلع عليه سواها. وهي التي تقرر المسألة بنفسها، فتقول: أنا حامل أو لا، وعليها ألا تكتم ذلك، فقد يجوز أن تكون حاملاً وبعد ذلك تكتم ما في بطنها حتى لا تنتظر طول مدة الحمل وتتزوج رجلاً آخر فينسب الولد لغير أبيه، فغالبًا ما يستمر الحمل تسعة أشهر ولكن فيه استثناء، فهناك حمل مدته سبعة شهور، وأحيانًا ستة شهور. وقد تتزوج المرأة المطلقة بعد ثلاثة شهور وتدعي أنها حامل من الزوج الجديد وأن حملها لم يستمر سوى سبعة أشهر أو ستة أشهر.

وبعضنا يعرف قصة الحامل في ستة شهور، فقد جاءوا بامرأة لسيدنا عثمان ﷺ لأنها ولدت لستة أشهر، فأراد أن يقيم عليها حد الزنا، فتدخل الإمام علي بن أبي طالب وقال: كيف تقيم عليها الحد لأنها ولدت لستة أشهر، ألم تقرأ قول الحق سبحانه وتعالى؟ قال عثمان: وماذا قال الحق في ذلك؟ فقرأ الإمام علي قول الله:

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

أي إنها ترضع الوليد لمدة أربعة وعشرين شهرًا، وفي آية أخرى قال الحق:

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥].

فإذا أخذنا من الآية الأولى أربعة وعشرين شهراً وهي مدة الرضاع وطرحناها من الثلاثين شهراً التي تجمع بين الحمل والرضاع في الآية الثانية فهمنا أن الحمل قد يكون ستة أشهر. هنا قال سيدنا عثمان متعجبًا: والله ما فطنت لهذا.

إذن فحمل الستة الشهور أمر ممكن، ومن هنا نفهم الحكمة في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾، حتى لا تدعى المرأة أنها ليست حاملاً وتتزوج رجلاً آخر وتنسب إليه ولدًا ليس من صلبه ويترتب على ذلك أكثر من إشكال، منها ألا يرث الولد من الأب الأول، وأن محارمه لم تعد محرمة عليه، فأخته من أبيه لم تعد أخته، وكذلك عماته وخالاته وتنقلب الموازين، هذا من جانب الأب الأصلي.

أما من جانب الزوج الثاني فالطفل يكتسب حقوقًا غير مشروعة له، سيرث منه، وتصبح محارم الرجل الثاني محارمه فيدخل عليهن بلا حق ويرى عوراتهن، وتحدث تداخلات غير مشروعة.

إذن فقوله الحق: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ هو قول يريد به الحق أن تقوم الحياة على طهر وعلى شرف وعلى عفاف، ولا يتعدى أحد على حقوق الآخر. هذا بالنسبة للحمل. فكيف يكون الحال بالنسبة للحيض؟

أيضًا لا يحل لها أن تكتم حيضها لتطيل زمن العدة مع زوجها. ويقول الحق: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فما علاقة الإيمان هنا بالحكم الشرعي؟ إنها علاقة وثيقة؛ لأن الحمل أو الحيض مسائل خفية لا يحكمها قانون ظاهر، إنما الذي يحكمها هو عملية الإيمان، ولذلك قيل: «الغيب لا يحرسه إلا غيب» وما دام الشيء غائبًا فلن يحرسه إلا الغيب الأعلى وهو الله تعالى.

ويتابع الحق: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ والبعل هو الزوج، وهو الرب والسيد والمالك، وفي أثناء فترة التربص يكون الزوج أحق برد زوجته إلى عصمته، وقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ هل يعني ذلك أن هناك أناسًا يمكن أن يشاركوا الزوج في الرد؟ لأن الحق جاء بكلمة «أحق» وفي ظاهرها تعطي الحق لغير الأزواج أن يراجعوا؟ لا، إنما المقصود هو أنه لا حق لأحد هنا إلا للزوج، فالرد خلال العدة من حق الزوج، فليس للزوجة أن تقول: لا، وليس لولي الزوجة أن يقول: لا فالزوج إذا أراد مراجعة زوجته وأبت وامتنعت هي وجب إيثار وتقديم رغبته على رغبتها، وكان هو أحق منها، ولا ينظر إلى قولها، فإنه ليس لها في هذا الأمر حق فقد رضيت به أولاً. أما إذا انتهت العدة فالصورة تختلف، لا بد من الولي، ولا بد من عقد ومهر جديدين واشتراط موافقة الزوجة.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ هذا إن أرادوا إصلاحًا والإرادة عمل غيبي، فكأنها تهديد للزوجين، إن التشريع يجيز لهما العودة، لكن إذا كان الزوج يريد أن يردها ليوقع بها الضرر لسبب في نفسه

فالدين يقول له: لا، ليس لك ذلك. وإن كان القضاء يجيز له ردها، إلا أن الله يحرم عليه ذلك الظلم، إن من حق الزوج أن يرد زوجته ردًّا شرعيًّا للعفة والإحصان ولغرض الزوجية لا لشيء آخر، أما غير ذلك كالإضرار بها والانتقام منها فلا يجيز له الدين ذلك.

أما قضائيًّا فالقضاء يعطيه الحق في ردها ولا يستطيع أحد أن يقف أمامه مهما كانت الأسباب الكامنة في نفسه، لكن عليه أن يتحمل وزر ذلك العمل. ويتابع الحق: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي إن للزوجة مثل ما للزوج، لكن ما الذي لهن وما الذي عليهن؟

المثلية هنا في الجنس، فكل منهما له حق على الآخر حسب طبيعته، الزوج يقدم للزوجة بعضًا من خدمات، والزوجة تقدم له خدمات مقابلة؛ لأن الحياة الزوجية مبنية على توزيع المسئوليات، إن الرجل عليه مسئوليات تقتضيها طبيعته كرجل، والمرأة عليها مسئوليات تحتمها طبيعتها كأنثى. والرجل مطالب بالكدح والسعي من أجل الإنفاق. والمرأة مطالبة بأن توفر للرجل البيت المناسب ليسكن إليها عندما يعود من مهمته في الحياة. ولذلك يقول الله عز وجل:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

والسكن إلى شيء هو نقيض التحرك، ومعنى ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي إنكم تتحركون من أجل الرزق طوال النهار ثم تعودون للراحة عند زوجاتكم، فالرجل عليه الحركة، والمرأة عليها أن تهيئ له حسن الإقامة، وجمال العشرة وحنان وعطف المعاملة. فالمسئوليات موزعة توزيعًا عادلاً، فهناك حق لك هو واجب على غيرك، وهناك حق لغيرك وهو واجب عليك.

ويقول الحق: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وهي درجة الولاية والقوامة.

ودرجة الولاية تعطينا مفهومًا أعم وأشمل، فكل اجتماع لا بد له من قيم، والقوامة مسئولية وليست تسلطًا، والذي يأخذ القوامة فرصة للتسلط والتحكم فهو يخرج بها عن غرضها؛ فالأصل في القوامة أنها مسئولية لتنظيم الحركة في الحياة.

ولا غضاضة على الرجل أن يأتمر بأمر المرأة فيما يتعلق برسالتها كامرأة وفي مجالات خدمتها، أي في الشئون النسائية، فكما أن للرجل مجاله، فللمرأة مجالها أيضًا والدرجة التي من أجلها رُفع الرجل هي أنه قوام أعلى في الحركة الدنيوية، وهذه القوامة تقتضي أن ينفق الرجل على المرأة تطبيقًا لقول الحق:

﴿ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤].

إذن فالإنفاق واجب الرجل ومسئوليته، وليعمل أن الله عزيز لا يحب أن يستذل رجل امرأة هي مخلوق لله، والله حكيم قادر على أن يقتص للمرأة لو فهم الرجل أن درجته فوق المرأة هي للاستبداد، أو فهمت المرأة أن وجودها مع الرجل هي منة منها عليه، فلا استذلال في الزواج؛ لأن الزواج أساسه المودة والمعروف. ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[1].

هنا يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن الطلاق بعد أن تحدث عن المطلقة في عدتها وكيفية ردها ومراجعتها، إنه سبحانه يتحدث عن الطلاق في حد ذاته،

---

(١) [البقرة: ٢٢٩].

والطلاق مأخوذ من الانطلاق والتحرر، فكأنه حل عقدة كانت موجودة وهي عقدة النكاح، وعقدة النكاح هي العقدة التي جعلها الله عقداً مغلظًا وهي الميثاق الغليظ، فقال تعالى:

﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١].

إنه ميثاق غليظ لأنه أباح للزوجين عورات الآخر، في حين أنه لم يقل عن الإيمان إنه ميثاق غليظ، قال عنه: «ميثاق» فقط، فكأن ميثاق الزواج أغلظ من ميثاق الإيمان. والحق سبحانه وتعالى يريد أن يربي في الناس حل المشكلات بأيسر الطرق. لذلك شرع لنا أن نحل عقدة النكاح، ونهاية العقدة ليست كبدايتها، ليست جذرية، فبداية النكاح كانت أمراً جذريًا، أخذناه بإيجاب وقبول وشهود. وأنت حين تدخل في الأمر تدخله وأنت دارس لتبعاته وظروفه، لكن الأمر في عملية الطلاق يختلف؛ فالرجل لا يملك أغيار نفسه، فربما يكون السبب فيها هينًا أو لشيء كان يمكن أن يمر بغير الطلاق؛ فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل للناس أناة وروية في حل العقدة فقال: «الطلاق مرتان» يعني مرة ومرة، ولقائل أن يقول: كيف يكون مرتين، ونحن نقول ثلاثة؟ وقد سأل رجل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «الطلاق مرتان» فلم صار ثلاثًا؟

فقال ﷺ مبتسمًا: «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» فكأن معنى «الطلاق مرتان»، أي إن لك في مجال اختيارك طلقتين للمرأة، إنما الثالثة ليست لك، لماذا؟ لأنها من بعد ذلك ستكون هناك بينونة كبرى ولن تصبح مسألة عودتها إليك من حقك، وإنما هذه المرأة قد أصبحت من حق رجل آخر..

﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

أما قول الرجل لزوجته أنت «طالق ثلاثًا» يُعتبر ثلاث طلقات أم لا؟ نقول: إن الزمن شرط أساسي في وقوع الطلاق، يطلق الرجل زوجته مرة، ثم تمضي

فترة من الزمن، ويطلقها مرة أخرى فتصبح طلقة ثانية، وتمضي أيضًا فترة من الزمن وبعد ذلك نصل لقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ ولذلك فالآية نصها واضح وصريح في أن الطلاق بالثلاث في لفظ واحد لا يوقع ثلاث طلقات، وإنما هي طلقة واحدة، صحيح أن سيدنا عمر ﷺ جعلها ثلاث طلقات؛ لأن الناس استسهلوا المسألة، فرأى أن يشدد عليهم ليكفوا، لكنهم لم يكفوا، وبذلك نعود لأصل التشريع كما جاء في القرآن وهو ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾.

وحكمة توزيع الطلاق على المرات الثلاث لا في العبارة الواحدة، أن الحق سبحانه يعطي فرصة للتراجع. وإعطاء الفرصة لا يأتي في نفس واحد وفي جلسة واحدة. إن الرجل الذي يقول لزوجته: أنت طالق ثلاثًا لم يأخذ الفرصة ليراجع نفسه ولو اعتبرنا قولته هذه ثلاث طلقات لتهدمت الحياة الزوجية بكلمة. ولكن عظمة التشريع في أن الحق سبحانه وزع الطلاق على مرات حتى يراجع الإنسان نفسه، فربما أخطأ في المرة الأولى، فيمسك في المرة الثانية ويندم. وساعة تجد التشريع يوزع أمرًا يجوز أن يحدث ويجوز ألا يحدث، فلا بد من وجود فاصل زمني بين كل مرة. وبعض المتشدقين يريدون أن يبرروا للناس تهجمهم على منهج الله فيقولون: إن الله حكم بأن تعدد الزوجات لا يمكن أن يتم فقال:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

ويقولون: إن الله اشترط في التعدد العدل، ثم حكم بأننا لن نستطيع أن نعدل بين الزوجات مهما حرصنا، فكأنه رجع في التشريع، هذا منطقهم. ونقول لهم: أكملوا قراءة الآية تفهموا المعنى، إن الحق يقول: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ ثم فرع على النفي فقال: ﴿فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ﴾. [النساء: ١٢٩].

وما دام النفي قد فُرع عليه فقد انتفى، فالأمر كما يقولون: نفي النفي إثبات، أن الاستطاعة ثابتة وباقية وكان قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ إشارة إليها . وكذلك الأمر هنا ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾. فما دام قد قال: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ وقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ أي إن لكل فعل زمنًا، فذلك يتناسب مع حلقات التأديب والتهذيب، وإلا فالطلاق الثلاث بكلمة واحدة في زمن واحد، يكون عملية قسرية واحدة، وليس فيها تأديب أو إصلاح أو تهذيب، وفي هذه المسألة يقول الحق: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ لأن المفروض في الزوج أن يدفع المهر نظير استمتاعه بالبضع، فإذا ما حدث الطلاق لا يحل للمطلق أن يأخذ من مهره شيئًا، لكن الحق استثنى في المسألة فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يجعل للمرأة مخرجًا إن أريد بها الضرر وهي لا تقبل هذا الضرر. فيأتي الحق ويشرع: ما دام قد خافا ألا يقيما حدود الله، فقد أذن لها أن افتدى نفسك أيتها المرأة بشيء من مال، ويكره أن يزيد على المهر إلا إذا كان ذلك ناشئًا عن نشوز منها ومخالفة للزوج فلا كراهة إذن في الزيادة على المهر.

وقد جاء الواقع مطابقًا لما شرع الله عندما وقعت حادثة «جميلة» أخت «عبد الله بن أبي» حينما كانت زوجة لعبد الله بن قيس، فقد ذهبت إلى رسول الله ﷺ وقالت: «أنا لا أتهمه في دينه ولا خلقه ولكن لا أحب الكفر في الإسلام» وهي تقصد أنها عاشت معه وهي تبغضه، لذلك لن تؤدي حقه وذلك هو كفر العشير أي إنكار حق الزوج وترك طاعته.

وهي قد قالت: إنها لا تتهمه لا في دينه ولا في خلقه لتعبر بذلك عن

معانٍ عاطفية أخرى، فأراد رسول الله ﷺ أن يعلم منها ذلك، فقالت: لقد رفعت الخباء فوجدته في عدة رجال فرأيته أشدهم سوادًا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهًا، فقال لها ﷺ: «**أتردين حديقته**»؟ فقالت: وإن شاء زدته، فقال ﷺ: «**لا حاجة لنا بالزيادة، ولكن رُدي عليه حديقته**».

ويُسمى هذا الأمر بالخلع، أي أن تخلع المرأة نفسها من زوجها الذي تخاف ألا تؤدي له حقًّا من حقوق الزوجية، إنها تخلع نفسها منه بمال حتى لا يصيبه ضرر، فقد يريد أن يتزوج بأخرى وهو محتاج إلى ما قدم من مهر لمن تريد أن تخلع نفسها منه (١) ويتابع الحق سبحانه: ﴿**وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا**﴾ وهذا الشيء هو الذي قال عنه الله في مكان آخر:

﴿**وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا**﴾ [النساء: ٢٠]

ويتابع الحق الآية بقوله: ﴿**إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ**﴾ والمقصود هنا هما الزوجان، ومن بعد ذلك تأتي مسئولية أولياء أمر الزوجين والمجتمع الذي يهمه أمرهما في قوله: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾.

وحدود الله هي ما شرعه الله لعباده حدًّا مانعًا بين الحل والحرمة. وحدود الله إما أن ترد بعد المناهي، وإما أن ترد بعد الأوامر، فإن وردت بعد الأوامر فإنه يقول:

﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا**﴾ أي آخر غايتكم هنا، ولا تتعدوا الحد، ولكن إن جاءت بعد النواهي يقول: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا**﴾، لأن

---

(١) أما الخلع لمجرد الهوى فهو مذموم لما يترتب عليه من هدم للبيوت وتشريد للأولاد، وفي الحديث الشريف: «المختلعات هن المنافقات» حديث حسن: رواه الترمذي.

الحق يريد أن يمنع النفس من تأثير المحرمات على النفس، فتلح عليها أن تفعل، فإن كنت بعيداً عنها فالأفضل أن تظل بعيداً.

وأنظر جيداً فيما قال رسول الله ﷺ: **«إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه»**[١].

وما دامت الحدود تشمل مناهي الله وتشمل أوامر الله فكل شيء مأمور به وكل شئ منهي عنه يجب أن يظل في مجاله من الفعل في «افعل» ومن النهي في «لا تفعل». وإذا انتقل نظام «افعل» إلى دائرة «لا تفعل» وانتقل ما يدخل في دائرة «لا تفعل» إلى دائرة «افعل»، هنا يختل نظام الكون، وما دام نظام الكون أصابه الخلل فقد حدث؛ فالظلم هو أن تنقل حق إنسان وتعطيه لإنسان آخر، وتشريع الطلاق حد من حدود الله، فإن حاولت أن تأتي بأمر لا يناسب ما أمر الله به في تنظيم اجتماعي فقد نقلت المأمور به إلى حيز المنهي عنه، وبذلك تُحدث ظلمًا.

والحق سبحانه وتعالى حينما يعالج قضايا المجتمع يعالجها علاجًا يمنع وقوع المجتمع في الأمراض والآفات، والبشر إن أحسنا الظن بهم في أنهم يشرعون للخير وللمصلحة، فهم يشرعون على قدر علمهم بالأشياء، لكننا لا نأمن أن يجهلوا شيئًا يحدث ولا يعرفوه، فهم شرعوا لما عرفوا، وإذا شرعوا لما عرفوا وفوجئوا بأشياء لم يعرفوها ماذا يكون الموقف؟ إن كانوا مخلصين بحق داسوا على كبرياء غرورهم التشريعي وقالوا: نُعدل ما شرعنا، وإن ظلوا في غلوائهم فمن الذي يشقى؟ إن المجتمع هو الذي يشقى بعنادهم.

---

(١) رواه البخارية ومسلم وغيرهما.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

وسبق أن قال الحق: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾ وبعدها قال: ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ . وهنا يتحدث الحق عن التسريح بقوله: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ وذلك حتى يبين لنا أنه إن وصلت الأمور بين الزوجين إلى مرحلة اللاعودة فلا بد من درس قاس؛ فلا يمكن أن يرجع كل منهما للآخر بسهولة. لقد أمهلهما الله بتشريع البينونة الصغرى التي يعقبها مهر وعقد جديدان فلم يرتدعا، فكان لا بد من البينونة الكبرى، وهي أن تتزوج المرأة بزوج آخر وتجرب حياة زوجية أخرى. وبذلك يكون الدرس قاسيًا.

وقد يأخذ بعض الرجال المسألة بصورة شكلية، فيتزوج المرأة المطلقة ثلاثًا زواجًا كامل الشروط من عقد وشهود ومهر، لكن لا يترتب على الزواج معاشرة جنسية بينهما، وذلك هو «المحلل» الذي نسمع عنه وهو ما لم يقره الإسلام .

فمن تزوج على أنه محلل ومن وافقت على ذلك المحلل فليعلما أن ذلك حرام على الاثنين، فليس في الإسلام محلل، ومن يدخل بنية المحلل لا تجوز له الزوجة، وليس له حقوق عليها، وفي الوقت نفسه لو طلقها ذلك الرجل لا يجوز لها الرجوع لزوجها السابق، لأن المحلل لم يكن زوجًا وإنما هو تمثيل زوج، والتمثيل لا يُثبت في الواقع شيئًا. ولذلك قال الحق: ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ .

والمقصود هنا النكاح الطبيعي الذي ساقت إليه الظروف دون افتعال ولا قصد

---

(١) [البقرة ٢٣٠]

للتحليل. وعندما يطلقها ذلك الرجل لظروف خارجة عن الإرادة وهي استحالة العشرة، وليس لأسباب متفق عليها، عندئذ يمكن للزوج السابق أن يتزوج المرأة التي كانت في عصمته وطلقها من قبل ثلاث مرات.

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي أن يغلب على الظن أن المسائل التي كانت مثار خلاف فيما مضى قد انتهت ووصل الاثنان إلى درجة من التعقل والاحترام المتبادل، وأخذا درسًا من التجربة تجعل كلاً منهما يرضى بصاحبه. وبعد ذلك يقول الحق:

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١).

ولنلاحظ قوله: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ ونسأل: هل إذا بلغت الأجل وانتهت العدة، هل يوجد بعدها إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان؟ هل يوجد إلا التسريح؟ إن هناك آية بعد ذلك تقول:

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

إذن نحن أمام آيتين كل منهما تبدأ بقوله: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ لكن تكملة الآية الأولى هو: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ

---

(١) [البقرة: ٢٣١].

بِمَعْرُوفٍ﴾ وتكملة الآية الثانية هو: ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ ما سر هذا الاختلاف إذن؟

نقول: إن البلوغ يأتي بمعنيين، المعنى الأول: أن يأتي البلوغ بمعنى المقاربة مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي عندما تقارب القيام إلى الصلاة فافعل ذلك. والمعنى الثاني: يطلق البلوغ على الوصول الحقيقي والفعلي. إن الإنسان عندما يكون مسافرًا بالطائرة ويهبط في بلد الوصول فهو يلاحظ أن الطيار يعلن أنه قد وصل إلى البلد الفلاني. إذن مرة يطلق البلوغ على القرب ومرة أخرى يطلق على البلوغ الحقيقي.

وفي الآية الأولى ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ هنا طلق الرجل زوجته لكن عدتها لم تنته بل قاربت على الانتهاء قربًا يمكنه أن يسرحها أو يمسكها بإحسان، وأصبح للزوج قدر من زمن العدة يبيح له أن يمسك أو يسرح، لكنه زمن قليل. إن الحق يريد أن يتمسك الزوج بالإبقاء إلى آخر لحظة ويستبقي أسباب الالتقاء وعدم الانفصال حتى آخر لحظة، وهذه علة التعبير بقوله: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربن بلوغ الأجل. إن الحق يريدنا أن نتمسك باستبقاء الحياة الزوجية إلى آخر فرصة تتسع للإمساك، فهي لحظة قد ينطق فيها الرجل بكلمة يترتب عليها إما طلاق، وإما عودة الحياة الزوجية.

أما الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ فالله سبحانه وتعالى يريد أن يحصر مناقشة الأسباب في الانفصال أو الاستمرار بين الزوج والزوجة فقط فلا تتعدى إلى غير الزوج والزوجة؛ لأن بين الاثنين من الأسباب ما قد تجعل الواحد منهما يُلين جانبه للآخر.

لكن إذا ما دخل طرف ثالث ليست عنده هذه فسوف تكبر في نفسه

الخصومة ولا توجد عنده الحاجة فلا يبقى على عشرة الزوجين. فإذا ما دخل الأب أو الأخ أو الأم في النزاع فسوف تشتعل الخصومة، وكل منهم لا يشعر بإحساس كل من الزوجين للآخر، ولا بليونة الزوج لزوجته، ولا بمهادنة الزوجة لزوجها، فهذه مسائل عاطفية ونفسية لا توجد إلا بين الزوج والزوجة، أما الأطراف الخارجية فلا يربطها بالزوج ولا بالزوجة إلا صلة القرابة. ومن هنا فإن حرص تلك الأطراف الخارجية على بقاء عشرة الزوجين لا يكون مثل حرص كل من الزوجين على التمسك بالآخر.

ولذلك يجب أن نفهم أن كل مشكلة تحدث بين زوج وزوجته ولا يتدخل فيها أحد تنتهي بسرعة بدون أم أو أب أو أخ، ذلك لأنه تدخل طرفٍ خارجي لا يكون مالكًا للدوافع العاطفية والنفسية التي بين الزوجين، أما الزوجان فقد تكفي نظرة واحدة من أحدهما للآخر لأن تعيد الأمور إلى مجاريها. فقد يُعجب الرجل بجمال المرأة ويشتاق إليها، فينسى كل شيء. وقد ترى المرأة في الرجل أمرًا لا تحب أن تفقده منه فتنسى ما حدث بينهما، وهكذا.

لكن أين ذلك من أمها وأمه، أو أبيها وأبيه؟ ليس بين هؤلاء وبين الزوجين أسرار وعواطف ومعاشرة وغير ذلك.

ولهذا فأنا أنصح دائمًا بأن يظل الخلاف محصورًا بين الزوج والزوجة؛ لأن الله قد جعل بينهما سيالاً عاطفيًّا. والسيال العاطفي قد يسيل إلى نزوع ورغبة في شيء ما، وربما تكون هذه الرغبة هي التي تصلح وتجعل كلاً من الطرفين يتنازل عن الخصومة والطلاق. ولذلك شاءت إرادة الله عز وجل ألا يطلق الرجل زوجته وهي حائض، لماذا؟

لأن المرأة في فترة الحيض لا يكون لزوجها رغبة فيها، وربما ينفر منها، لكن يريد الحق عز وجل ألا يطلق الرجل زوجته إلا في طهر لم يسبق له أن عاشرها

فيه معاشرة الزوج زوجته وبعد أن تغتسل من الحيض، وذلك حتى لا يطلقها إلا وهو في أشد الأوقات رغبة لها.

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن تكون الخلافات بين الزوج والزوجة في إطار الحياة الزوجية، حتى يحفظهما سياج المحبة والمودة والرحمة. لكن تدخل الأطراف الأخرى يحطم هذا السياج، أيًا كان الطرف أمًا أو أبًا أو أخًا.

ويقول الحق: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ أي لا تبق أيها الرجل على الحياة الزوجية من أجل الإضرار بالمرأة وإذلالها، ومعنى الضرار أنك تصنع شيئًا في ظاهره أنك تريد الخير وفي الباطن تريد الشر. ولذلك أطلق اللفظ على «مسجد الضرار» فظاهر بنائه أنه مسجد بني للصلاة فيه، وفي الباطن كان الهدف منه هو الكفر والتفريق بين المؤمنين. وكذلك الضرار في الزواج؛ يقول الرجل أنا لا أريد طلاقها وسأعيدها لبيتها، يقول ذلك ويُبيت في نفسه أن يعيدها ليذلها وينتقم منها، وذلك لا يقره الإسلام؛ بل وينهي عنه.

إن الحق عز وجل يحذر من مثل هذا السلوك فيقول: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ فإياك أن تظن أنك حين تعتدي على زوجتك بعد أن تراجعها أنك ظلمتها هي، لا، إنما أنت تظلم نفسك؛ لأنك حين تعتدي على إنسان فقد جعلت ربه في جانبه، فإن دعا عيك قبل الله دعوته، وبذلك تحرم نفسك من رضا الله عنك، فهل هناك ظلم أكثر من الظلم الذي يأتيك بسخط الله عليك.

ويتابع الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي خذوا نظام الله على أنه نظام جاء ليحكم حركة الحياة حكمًا بلا مراوغة وبلا تحليق في خيال كاذب، إنما هو أمر واقعي، فلا يصح أن يهزأ أحد بما أنزله الله من أنظمة تصون حياة وكرامة الإنسان رجلاً كان أو امرأة.

﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ ونعمة الله عليهم التي يذكرهم الله بها في معرض الحديث عن الطلاق هي أنه -سبحانه- يلفتهم إلى ما كانوا عليه قبل أن يشرع لهم أين كان حظ المرأة في الجاهلية في أمور الزواج والطلاق، وما أصبحت عليه بعد نزول القرآن؟ لقد صارت حقوقها مصونة بالقرآن.

إن الحق عز وجل يمتن على المؤمنين ليلفت نظرهم إلى حالتهم قبل الإسلام؛ فقد كان الرجل يطلق امرأته ويعيدها، ثم يطلقها ويعيدها ولو ألف مرة دون ضابط أو رابط. وكان يحرم عليها المعاشرة الزوجية شهوراً ويتركها تتعذب بلوعة البعد عنه، ولا تستطيع أن تتكلم .

وكانت المرأة إذا مات زوجها تنفي من المجتمع فلا تظهر أبدًا ولا تخرج من بيتها وكأنها جرثومة، وقبل ذلك كله كانت مصدر عار لأبيها، فكان يقتلها قبل أن تصل إلى سن البلوغ بدعوى الحرص على عرضه وشرفه.

باختصار كان الزواج أقرب إلى المهازل منه إلى الجد، فجاء الإسلام، فحسم الأمور حتى لا تكون فوضى بلا ضوابط وبلا قوانين. فاذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم بالإسلام، وانظروا إلى ما أنعم به عليكم من نظام أسري يلهث العالم شرقه وغربه ليصل إلى مثله.

كنتم أمة بلا حضارة وبلا ثقافة، تعبدون الأصنام وتقيمون الحرب وتشعلونها بينكم على أتفه الأسباب وأدونها، وتجهلون القراءة والكتابة، ثم ينزل الله عليكم هذا التشريع الراقي الناضج الذي لم تصل إليه أية حضارة حتى الآن. ألا تذكرون هذه النعمة التي أنتم فيها بفضل من الله؟ لذلك قال سبحانه: ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ والكتاب هو القرآن، والحكمة هي سنة رسول الله ﷺ ويختتم الحق تلك الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

فإياكم أن تتهموا دينكم بأنه قد فاته شيء من التشريع لكم، فكل تشريع جاهز في الإسلام، لأن الله عليم بما تكون عليه أحوال الناس، فلا يستدرك كون الله في الواقع على ما شرع الله في كتابه، لأنه سبحانه خالق الكون ومنزل التشريع. وبعد ذلك يقول الحق:

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

«فبلغن أجلهن» هنا أي فانتهت العدة، ولم يستنفد الزوج مرات الطلاق، ولم يعد للزوج حق في أن يراجعها إلا بعد عقد ومهر جديدين. هب أن الزوج أراد أن يعيد زوجته إلى عصمته مرة أخرى، وهنا قد يتدخل أهل اللدد والخصومة من الأقارب، ويقفون في وجه إتمام الزواج، والزوجان ربما كان كل منهما يميل إلى الآخر، وبينهما سيال عاطفي ونفسي لا يعلمه أحد، لكن الذين دخلوا في الخصومة من الأهل يقفون في وجه عودة الأمور إلى مجاريها، خوفًا من تكرار ما حدث أو لأسباب أخرى، ونقول لهؤلاء: ما دام الزوجان قد تراضيا على العودة فلا يصح أن يقف أحد في طريق عودة الأمور إلى ما كانت عليه.

وقوله الحق: ﴿ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ نعرف منه أن العضل هو المنع، والكلام للأهل والأقارب وكل من يهمه مصلحة الطرفين من أهل المشورة الحسنة. و﴿ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ أي الذين طلقوهن أولاً.

والمعنى: لا تمنعوا الأزواج أن يعيدوا إلى عصمتهم زوجاتهم اللائي طلقوهن من قبل. وليعلم الأهل الذين يصرون على منع بناتهم من العودة لأزواجهن

---

(١) [البقرة: ٢٣٢].

أنهم بالتمادي في الخصومة يمنعون فائدة التدرج في الطلاق التي أرادتها حكمة الله.

إن حكمة التشريع في جعل الطلاق مرة، ومرتين هي أن من لم يصلح في المرة الأولى قد يصلح في المرة الثانية، وإذا كان الله العليم بنفوس البشر قد شرع لهم أن يطلقوا مرة ومرتين، وأعطى فسحة من الوقت لمن أخطأ في المرة الأولى ألا يخطئ في الثانية، لذلك فلا يصح أن يقف أحد حجر عثرة أمام إعادة الحياة الزوجية من جديد.

وقوله الحق: ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ ونلحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى ينسب النكاح للنسوة، فقال: «ينكحن» وهذا يقتضي رضاء المرأة عن العودة للزوج فلا يمكن أن يطلقها أولاً ثم لا يكون لها رأى في العودة إليه.

﴿إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ وما داموا تراضوا ورأوا أن عودة كل منهما للآخر أفضل، فليبتعد أهل السوء الذين يقفون في وجه رضا الطرفين، وليتركوا الحلال يعود إلى مجاريه ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ إن هذا تشريع ربكم وهو موعظة لكم يا من تؤمنون بالله ربًا حكيمًا مشرعًا وعالمًا بنوازع الخير في نفوس البشر.

وكلمة «وأطهر» تلفتنا إلى حرمة الوقوف في وجه المرأة التي تريد أن ترجع لزوجها الذي طلقها ثم انتهت العدة، وأراد هو أن يتزوجها من جديد، إن الحق يبلغنا: لا تقفوا في وجه رغبتهما في العودة لأي سبب كان، لماذا يا رب؟

وتأتي الإجابة في قوله الحق: ﴿وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ تأمل جمال السياق القرآني وكيف خدم قوله تعالى: ﴿وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ المعنى الذي تريده الآيات. إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون أن في عودة الأمور لمجاريها بين الزوجين أزكى وأطهر.

أحكام الطلاق قبل الدخول

قال الحق- سبحانه -:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله -:

نحن نلاحظ أن الكلام فيما تقدم كان عن الطلاق للمدخول بها، أو عن المرأة التي دخل بها زوجها ومات عنها. ولكن قد تحدث بعض من المسائل تستوجب الطلاق لامرأة غير مدخول بها. وتأتي هذه الآية لتتحدث عن المرأة غير المدخول بها، وهي إما أن يكون الزوج لم يفرض لها صداقًا، وإما أن يكون قد فرض لها صداقًا.

والطلاق قبل الدخول له حكمان: فُرضت في العقد فريضة، أو لم تفرض فيه فريضة، فكأن عدم فرض المهر ليس شرطًا في النكاح،بل إذا تزوجته ولم يفرض في هذا الزواج مهر فقد ثبت لها مهر المثل والعقد صحيح. ودليل ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ ومعنى ذلك أنها كانت زوجة ولم يحدث دخول للزوج بها.

ولنا أن نسأل ما هو المس؟ ونقول: فيه مس، وفيه لمس، وفيه ملامسة، فالإنسان قد يمس شيئًا، ولكن الماس لا يتأثر بالممسوس، أي لم يدرك طبيعته أو حاله هل هو خشن أو ناعم؟ دافئ أو بارد، وإلى غير ذلك.

---

(١) [البقرة: ٢٣٦].

أما اللمس فلا بد من الإحساس بالشيء الملموس، أما الملامسة فهي حدوث التداخل بين الشيئين. إذن فعندنا ثلاث مراحل: الأولى هي: مس. والثانية: لمس. والثالثة: ملامسة. كلمة «المس» هنا دلت على الدخول والوطء، وهي أخف من اللمس، وأيسر من أن يقول: لامستم أو باشرتم، ونحن نأخذ هذا المعنى؛ لأن هناك سياقًا قرآنيًا في مكان آخر قد جاء ليكون نصًا في المعنى، ولذلك نستطيع من سياقه أن نفهم المعنى المقصود بكلمة «المس» هنا، فقد قالت السيدة مريم:

﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

إن القرآن الكريم يوضح على لسان سيدتنا مريم أن أحدًا من البشر لم يتصل بها ذلك الاتصال الذي ينشأ عنه غلام، والتعبير في منتهى الدقة، ولأن الأمر فيه تعرض لعورة وأسرار؛ لذلك جاء القرآن بأخف لفظ في وصف تلك المسألة وهو المس، وكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يثبت لها إعفافًا حتى في اللفظ، فنفى مجرد مس البشر لها، وليس الملامسة أو المباشرة برغم أن المقصود باللفظ هو المباشرة؛ لأن الآية بصدد إثبات عفة مريم.

ولنتأمل أدب القرآن في تناول المسألة في الآية التي نحن بصددها؛ فكأن الحق سبحانه وتعالى يعبر عن اللفظ بنهاية مدلوله وبأخف التعبير.

والحق يقول: ﴿أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ وتعرف أن «أو» عندما ترد في الكلام بين شيئين فهي تعني «إما هذا وإما ذاك»، فهل تُفرض لهن فريضة مقابل المس؟ إن الأصل المقابل في «ما لم تمسوهن» هو أن تمسوهن. ومقابل «تفرضوا لهن فريضة» هو: أن لا تفرضوا لهن فريضة. كأن الحق عز وجل يقول: لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن سواءً فرضتم لهن فريضة أو لم تفرضوا لهن فريضة. وهكذا يحرص الأسلوب القرآن على تنبيه الذهن في ملاحظة المعاني.

ولنا أن نلاحظ أن الحق قد جاء بكلمة «إن» في احتمال وقوع الطلاق، و«إن» -كما نعرف- تُستخدم للشك، فكأن الله عز وجل لا يريد أن يكون الطلاق مجترءاً عليه ومحققًا، فلم يأت بـ «إذا»، بل جعلها في مقام الشك حتى تُعزز الآية قول الرسول ﷺ: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»(١).

ثم يقول الحق عز وجل بعد ذلك: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ﴾ أي إنك إذا طلقت المرأة قبل الدخول، ولم تفرض لها فريضة فأعطها متعة، وقال العلماء في قيمة المتعة: إنها ما يوازي نصف مهر مثيلاتها من النساء؛ لأنه كان من المفروض أن تأخذ نصف المهر، وما دام لم يُحدد لها مهر فلها مثل نصف مهر مثيلاتها من النساء. ويقول الحق: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ﴾ أي ينبغي أن تكون المتعة في حدود تناسب حالة الزوج؛ فالموسع الغني: عليه أن يعطي ما يليق بعطاء الله له، والمقتر الفقير: عليه أن يعطي في حدود طاقته.

وقول القرآن: «الموسع» مشتق من «أوسع» واسم الفاعل «موسع» واسم المفعول «مُوسع عليه»، فأي اسم من هؤلاء يطلق على الزوج؟ إن نظرت إلى أن الرزق من الحق فهو «موسع عليه»، وإن نظرت إلى أن الحق يطلب منك أن توسع حركة حياتك ليأتيك رزقك، وعلى قدر توسيعها يكون اتساع الله لك، فهو «موسع».

إذن فالموسع: هو الذي أوسع على نفسه بتوسيع حركة أسبابه في الحياة. والإقتار هو الإقلال، وعلى قدر السعة وعلى قدر الإقتار تكون المتعة. والحق سبحانه وتعالى حينما يطلب حكمًا تكليفيًا لا يقصد إنفاذ الحكم على المطلوب منه فحسب، ولكنه يوزع المسئولية في الحق الإيماني العام؛ فقوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ﴾ يعني إذا وُجد من لا يفعل حكم الله

(١) حديث ضعيف: رواه أبو داود وغيره.

فلابد أن تتكاتفوا على إنفاذ أمر الله في أن يمتع كل واحد طلق زوجته قبل أن يدخل بها. والجمع في الأمر وهو قوله: «ومتعوهن» دليل على تكاتف الأمة في إنفاذ حكم الله. وبعد ذلك قال:

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١).

أي ما دام لم يدخل بها ولم يتمتع بها فلا تأخذ المهر كله، إنما يكون لها النصف من المهر. ولنعلم أن هناك فرقًا بين أن يوجد الحكم بقانون العدل، وبين أن يُنظر في الحكم ناحية الفضل، وأحكى هذه الواقعة لنتعلم منها:

ذهب اثنان إلى رجل ليحكم بينهما فقالا: احكم بيننا بالعدل، قال: أتحبون أن أحكم بينكما بالعدل؟ أم بما هو خير من العدل؟ فقالا: وهل يوجد خير من العدل؟ قال: نعم. الفضل.

إن العدل يعطي كل ذي حق حقه، ولكن الفضل يجعل صاحب الحق يتنازل عن حقه أو عن بعض حقه. إذن فالتشريع حين يضع موازين العدل لا يريد أن يُحرم النبع الإيماني من أريحية الفضل؛ فهو يعطيك العدل، ولكنه سبحانه يقول بعد ذلك: ﴿وَلاَ تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ؛فالعدل وحدة قد يكون شاقًا وتبقى البغضاء في النفوس، ولكن عملية الفضل تنهي المشاحة والمخاصمة والبغضاء.

والمشاحة إنما تأتي عندما أظن أني صاحب الحق، وأنت تظن أنك صاحب الحق، ومن الجائز أن تأتي ظروف تزين لي فهمي، وتأتي لك ظروف تزين لك فهمك، فحين نتمسك بقضية العدل لن نصل إلى مبلغ التراضي في النفوس البشرية. ولكن إذا جئنا للفضل تراضينا وانتهينا.

---

(١) [البقرة: ٢٣٧].

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي من قبل أن تدخلوا بهن ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ يعني سميتهم المهر ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾ والمقصود بـ «يعفون» هو الزوجة المطلقة.

إن بعض الجهلة يقولون والعياذ بالله: إن القرآن فيه لحن. وظنوا أن الصحيح في اللغة أن يأتي القول: إلا أن يعفوا بدلاً من «إلا أن يعفون». وهذا اللون من الجهل لا يفرق بين «واو الفعل» و «واو الجمع» إنها هنا «واو الفعل» فقول الحق: «إلا أن يعفون» مأخوذة من الفعل «عفا» و «يعفو».

وهكذا نفهم أن للزوجة أن تعفو عن نصف مهرها وتتنازل عنه لزوجها، ويتابع الحق: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ والمقصود به الزوج وليس الولي، لأن سياق الآية يُفهم منه أن المقصود به هو الزوج، مع أن بعض المفسرين قالوا: إنه ولي الزوجة، ولنا أن نعرف أن الولي ليس له أن يعفو في مسألة مهر المرأة؛ لأن المهر من حق الزوجة، فهو أصل مال، وأصل رزق في حياة الناس؛ لأنه نظير التمتع بالبضع.

ولذلك تجد بعض الناس لا يصنعون شيئًا بصداق المرأة، ويدخرونه لها بحيث إذا مرض واحد اشترت له من هذا الصداق ولو قرص إسبرين مثلاً؛ لأنه علاج من رزق حلال، فقد يجعل الله فيه الشفاء. فالمرأة تحتفظ بصداقها الحلال لمثل هذه المناسبات لتصنع به شيئًا يجعل الله فيه خيرًا، لأنه من رزق حلال لا غش فيه ولا تدليس.

وأرد على المفسرين الذين نادوا بأن ولي الزوجة هو الذي يعفو وأقول: لماذا يأتي الله بحكم تتنازل فيه المرأة عن حقها وأن تعفو عن النصف، والرجل لا يكون أريحيًا ليعفو عن النصف؟ لماذا تجعل السماء الغرم كله على المرأة؟ هل من المنطقي أن تعفو النساء أو يعفو الذي بيده عقد النكاح يعني أولياء الزوجة، فنجعل العفو يأتي من الزوجة ومن أوليائها ؛ أي من جهة واحدة؟

إن علينا أن نحسن الفهم لسياق الفضل الذي قال الله فيه: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، إن التقابل في العفو يكون بين الاثنين، بين الرجل والمرأة، ونفهم منه المقصود بقوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ أنه هو الزوج، فكما أن للمرأة أن تعفو عن النصف المستحق لها فللزوج أن يعفو أيضًا عن النصف المستحق له.

ويقول الحق: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾؛ لأن من الجائز جدًا أن يظن أحد الطرفين أنه مظلوم، وإن أخذ النصف الذي يستحقه. لكن إذا لم يأخذ شيئًا فذلك أقرب للتقوى وأسلم للنفوس. ولنا أن نتذكر دائمًا في مثل هذه المواقف قول الحق: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ فحتى في مقام الخلاف الذي يؤدي إلى أن يفترق رجل عن امرأة لم يدخل بها يقول الله: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي لا تجعلوها خصومة وثأرًا وأحقادًا، واعلموا أن الحق سبحانه يجعل من بعض الأشياء أسبابًا مقدورة لمقدور لم نعلمه. وهذه المسألة تجعل الإنسان لا يعتقد أن أسبابه هي الفاعلة وحدها.

ومثال ذلك: قد نجد رجلاً قد أعجب بواحدة رآها فتزوجها، أو واحدة أخرى رآها شاب ولم تعجبه، ثم جاء لها واحد آخر فأعجب بها، معنى ذلك أن الله عز وجل كتب لها القبول ساعة رأت الشاب أهلاً لها ورآها هي أهلاً له. ولذلك كان الفلاحون قديمًا يقولون: لا تحزن عندما يأتي واحد ليخطب ابنتك ولا تعجبه؛ لأنه مكتوب على جبهة كل فتاة: أيها الرجال عفوًا- بكسر العين وتشديد الفاء- عن نساء الرجال؛ فهي ليست له، ولذلك فليس هذا الرجل من نصيبها. وعلينا ألا نهمل أسباب القدر في هذه الأمور؛ لأن هذا أدعى أن نحفظ النفس البشرية من الأحقاد والضغائن.

ويختم الحق الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إنه سبحانه يعلم ما في الصدور وما وراء كل سلوك. وبعد ذلك تأتي آية لتثبت قضية إيمانية،

هذه القضية الإيمانية هي أن تكاليف الإسلام كلها تكاليف مجتمعة، فلا تستطيع أن تفصل تكليفًا عن تكليف، فلا تقل: «هذا فرض تعبدي» و«هذا مبدأ مصلحي» و«هذا أمر جنائي»، لا. إن كل قضية مأمور بها من الحق هي قضية إيمانية تكون مع غيرها منهجًا متكاملاً.

تنبيه:

الطلاق قبل الدخول يقع طلقة واحدة بائنة وليست رجعية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾[١].

* * *

(١) [الأحزاب: ٤٩].

الصفة السادسة عشرة: بر الوالدين وصلة الرحم

جاءت الوصية بالوالدين في عدة مواطن من القرآن منها:

قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾[1] .

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله - في تفسيره لهذه الآيات:

ها هي أول الأحكام في منهج الله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ..﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقد آثر الحق سبحانه الخطاب بـ ﴿رَبُّكَ﴾ على لفظ «الله»؛ لأن الرب هو الذي خلقك ورباك، ووالى عليك بنعمه، فهذا اللفظ أدعى للسمع والطاعة، حيث يجب أن يخجل الإنسان من عصيان المنعم عليه وصاحب الفضل.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ ..﴾ [الإسراء: ٢٣].

الخطاب هنا مُوجه إلى النبي محمد ﷺ؛ لأنه هو الذي بلغ المرتبة العليا في التربية والأدب، وهي تربية حقة؛ لأن الله تعالى هو الذي رباه، وأدبه أحسن تأديب.

قضى: معناها: حكم ؛ لأن القاضي هو الذي يحكم، ومعناها أيضًا: أمر، وهي هنا جامعة للمعنيين، فقد أمر الله ألا تعبدوا إلا إياه أمراً مؤكدًا، كأنه قضاء وحكم لازم.

---

(١) [الإسراء: ٢٣-٢٥].

وقد تأتي قضى بمعنى: خلق . كما في قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ..﴾ [فصلت: ١٢].

وتأتي بمعنى: بلغ مراده من الشيء، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا..﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقد تدل على انتهاء المدة كما في: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ..﴾ [القصص: ٢٩].

وتأتي بمعنى: أراد كما في: ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

إذن: قضى لها معان مُتعددة، لكن تجتمع كلها لتدل على الشيء اللازم المؤكد الذي لا نقص فيه.

وقوله: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ..﴾ [الإسراء: ٢٣].

العبادة: هي إطاعة آمر في أمره ونهيه، فتنصاع له تنفيذًا للأمر، واجتنابًا للنهي، فإن ترك لك شيئًا لا أمر فيه ولا نهى فاعلم أنه ترك لك الاختيار، وأباح لك: تفعل أو لا تفعل.

لذلك، فالكفار الذين عبدوا الأصنام والذين أتوا بها حجارة من الصحراء، وأعملوا فيها المعاول والأدوات لينحتوها، وتكسرت منهم فعالجوها، ووقعت فأقاموها، وهم يرون كم هي مهينة بين أيديهم لدرجة أن أحدهم رأى الثعلب يبول برأس أحد الأصنام فقال مستنكرًا حماقة هؤلاء الذين يعبدونها:

أرب يبول الثعلبان برأسه　　　لقد ذل من بالت عليه الثعالب

فإذا ما تورطوا في السؤال عن آلهتهم هذه قالوا: إنها لا تضر ولا تنفع، وما نعبدها إلا ليقربونا إلى الله زُلفى، كيف والعبادة طاعة أمر واجتناب نهي. فبأي شيء أمرتكم الأصنام؟ وعن أي شيء نهتكم؟! إذن: كلامُكم كذب في كذب.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ.. ﴾ [الإسراء: ٢٣].

أسلوب يسمونه أسلوب قصر، يفيد قصر العبادة وإثباتها لله وحده، بحيث لا يشاركه فيها أحد. فلو قالت الآية: وقضى ربك أن تعبدوه.. فلقائل أن يقول: ونعبد غيره لأن باب العطف هنا مفتوح لم يُغلق، كما لو قُلت: ضربت فلانًا وفلانًا وفلانًا.. هكذا باستخدام العطف . إنما لو قلت: ما ضربت إلا فلانًا فقد أغلقت باب العطف.

إذن: جاء التعبير بأسلوب القصر ليقول: اقصروا العبادة عليه سبحانه، وانفوها عن غيره.

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى التكليف والأمر الثاني بعد عبادته: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا.. ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقد قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا.. ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا.. ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا.. ﴾ [العنكبوت: ٨].

لكن، لماذا قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين؟ أتريد أن نقرب الأولى بالثانية، أم نقرب الثانية بالأولى؟

نقول: لا مانع أن يكون الأمران معًا؛ لأن الله تعالى غيب، والإيمان به يحتاج إلى إعمال عقل وتفكير، لكن الوالدين بالنسبة للإنسان أمر حسي، فهما سر وجوده المباشر، وهما ربياه ووفرا له كل متطلبات حياته، وهما مصدر العطف والحنان.

إذن: التربية والرعاية في الوالدين محسة، أما التربية والرعاية من الله فمعقولة، فأمر الله لك بالإحسان إلى الوالدين دليل على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، فهو سبحانه الذي خلقك، وهو سبب وجودك الأول، وهو مُربيك وصاحب رعايتك، وصاحب الفضل عليك قبل الوالدين، وهل رباك الوالدان بما أوجداه هما، أم بما أوجده الله سبحانه؟

إذن: لا بد أن يلتحم حق الله بحق الوالدين، وأن نأخذ أحدهما دليلاً على الآخر.

ونلاحظ أن الحق تبارك وتعالى حين أمرنا بعبادته جاء بأسلوب النفي: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ..﴾ [الإسراء: ٢٣].

يعني نهانا أن نعبد غيره سبحانه، أما حين تكلم عن الوالدين فلم يقل مثلاً: لا تسيئوا للوالدين، فيأتي بأسلوب نفي كسابقه، لماذا؟

قالوا: لأن فضل الوالدين واضح لا يحتاج إلى إثبات، ولا يحتاج إلى دليل عقلي، وقولك: لا تسيئوا للوالدين يجعلهما مظنة الإساءة، وهذا غير وارد في حقهما، وغير مُتصور منهما، وأنت إذا نفيت شيئًا عن من لا يصح أن ينفي عنه فقد ذممته، كأن تنفي عن أحد الصالحين المشهورين بالتقوى والورع، تنفي عنه شرب الخمر مثلاً فهل هذا في حقه مدح أم ذم؟

لأنك ما قلت: إن فلانًا لا يشرب الخمر إلا إذا كان الناس تظن فيه ذلك.

ومن هنا قالوا: نفى العيب عمن لايستحق العيب عيب.

إذن: لم يذكر الإساءة هنا؛ لأنها لا ترد على البال، ولا تُتصور من المولود لوالديه.

وبعد ذلك، ورغم ما للوالدين من فضل وجميل عليك فلا تنس أن فضل الله عليك أعظم؛ لأن والديك قد يلدانك ويسلمانك إلى الغير، أما ربك فلن يسلمك إلى أحد.

وقوله تعالى: ﴿إِحْسَانًا..﴾ [الإسراء: ٢٣].

كأنه قال: أحسنوا إليهم إحسانًا، فحذف الفعل وأتى بمصدره للتأكيد.

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

الحق سبحانه وتعالى حينما يوصينا بالوالدين، مرة تأتي الوصية على إطلاقها، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا..﴾ [الأحقاف: ١٥].

ومرة يُعلل لهذه الوصية، فيقول ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ..﴾ [لقمان: ١٤].

والذي يتأمل الآيتين السابقتين يجد أن الحق سبحانه ذكر العلة في بر الوالدين، والحيثيات التي استوجبت هذا البر، لكنها خاصة بالأم، ولم تتحدث أبدًا عن فضل الأب، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا..﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ..﴾ [لقمان: ١٤].

فأين دور الأب؟ وأين مجهوداته طوال سنين تربية الأبناء؟

المتتبع لآيات بر الوالدين يجد حيثية مُجملة ذكرت دور الأب والأم معًا في قوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا..﴾ [الإسراء: ٢٤].

لكن قبل أن يُربي الأب، وقبل أن يبدأ دوره كان للأم الدور الأكبر؛ لذلك حينما تخاصم الأب والأم لدى القاضي على ولد لهما، قالت الأم: لقد حمله خفًّا وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة ووضعته كرهًا.

لذلك ذكر القرآن الحيثياتِ الخاصة بالأم؛ لأنها تحملتها وحدها لم يشاركها

فيها الزوج؛ ولأنها حيثيات سابقة لإدراك الابن فلم يشعر بها، فكأنه سبحانه وتعالى أراد أن يُذكرنا بفضل الأم الذي لم ندركه ولم نُحس به.

وذلك على خلاف دور الأب فهو محسوس ومعروف للابن، فأبوه الذي يوفر له كل ما يحتاج إليه، وكلما طلب شيئًا قالوا: حينما يأتي أبوك، فدور الأب- إذن- معلوم لا يحتاج إلى بيان.

والآية هنا أوصت بالوالدين في حال الكبر، فلماذا خصت هذه الحال دون غيرها؟

قالوا: لأن الوالدين حال شبابهما وقُوتهما ليسا مظنة الإهانة والإهمال، ولا مجال للتأفف والتضجر منهما، فهما في حال القوة والقدرة على مواجهة الحياة، بل العكس هو الصحيح نرى الأولاد في هذه الحال يتقربون للآباء، ويتمنون رضاهما، لينالوا من خيرهما.

لكن حالة الكبر، ومظهر الشيخوخة هو مظهر الإعالة والحاجة والضعف، فبعد أن كان مُعطيًا أصبح آخذًا، وبعد أن كان عائلاً أصبح عالة.

لذلك، فالنبي ﷺ في حديث الآمينات والمراغم، وكان على المنبر، فسمعه الصحابة يقول: «آمين»، ثم سكت برهة. وقال: «آمين» وسكت . ثم قال: «آمين». فلما نزل قالوا: يا رسول الله سمعناك تقول: آمين ثلاثًا. فقال:

«جاءني جبريل فقال: رغم أنف من ذُكرت عنده ولم يُصل عليك، قل: آمين، فقلت: آمين، ورغم أنف من أدرك رمضان فلم يُغفر له، قل:آمين . فقلت: آمين، ورغم أنف من أدرك والديه- أو أحدهما - فلم يدخل بهما الجنة، قل: آمين . فقلت: أمين»[(١)]-.

فخص الحق سبحانه حال الكبر، لأنه حال الحاجة وحال الضعف، لذلك

(١) **حديث صحيح**: أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٤٦)، والترمذي في «سننه» (٣٥٤٥).

قال أحد الفلاسفة: خير الزواج مبكره، فلما سُئل قال: لأنه الطريق الوحيد لإنجاب والد يعولك في طفولة شيخوختك، وشبه الشيخوخة بالطفولة لأن كليهما في حال ضعف وحاجة للرعاية والاهتمام.

وصدق الحق سبحانه حين قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً..﴾ [الروم: ٥٤].

فمن تزوج مبكراً فسوف يكون له من أولاده من يعينه ويساعده حال كبره.

والمتأمل في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ..﴾ [الإسراء: ٢٣].

لم تأت صفة الكبر على إطلاقها، بل قيدها بقوله: ﴿عندك﴾ فالمعنى: ليس لهما أحد غيرك يرعاهما، لا أخ ولا أخت ولا قريب يقوم بهذه المهمة، وما دام لم يعد لهما غيرك فلتكن على مستوى المسئولية، ولا تتنصل منها؛ لأنك أولى الناس بها.

ويمتد البر بالوالدين إلى ما بعد الحياة بالاستغفار لهما، وإنجاز ما أحدثاه من عهد، ولم يتمكنا من الوفاء به، وكذلك أن نصل الرحم التي لا توصل إلا بهما من قرابة الأب والأم، ونصل كذلك أصدقاءهم وأحبابهما ونودهم.

وانظر إلى سمو هذا الخلق الإسلامي، حينما يُعدي هذه المعاملة حتى إلى الكفار، فقد جاءت السيدة أسماء إلى رسول الله ﷺ تسأله في أمها التي أتتها، وأظهرت حاجة مع أنها كافرة، فقال لها: «صلي أمك»[1].

بل وأكثر من ذلك، إن كان الوالدان كافرين ليس ذلك فحسب بل ويدعوان

---

(١) عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدمت على أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدهم، فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قدمت على أمي وهي راغبة، أفاصل أمي؟ قال: «نعم صلي أمك». أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٠٣) والبخاري في صحيحه (٥٩٧٩).

الابن إلى الكفر، ويجاهدانه عليه، ومع هذا كله يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا..﴾ [لقمان: ١٥].

فهذه ارتقاءات ببر الوالدين تُوضح عظمة هذا الدين ورحمة الخالق سبحانه وبالوالدين حتى في حال كفرهما ولددهما(١) في الكفر.

وقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وهذا توجيه وأدب إلهي يراعي الحالة النفسية للوالدين حال كبرهما، وينصح الأبناء أن يكونوا على قدر من الذكاء والفطنة والأدب والرفق في التعامل مع الوالدين في مثل هذه السن.

الوالد بعد أن كان يعطيك وينفق عليك أصبح الآن مُحتاجًا إليك، بعد أن كان قويًا قادرًا على السعي والعمل أصبح الآن قعيد البيت أو طريح الفراش، إذن: هو في وضع يحتاج إلى يقظة ولباقة وسياسة عالية، حتى لا نجرح مشاعره وهي مُرهفة في هذه الحال.

وتأمل قول الله تعالى: ﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ..﴾ [الإسراء: ٢٣].

وهي لفظة بسيطة أقل ما يقال، وهذه لفظة قسرية تخرج من صاحبها قهرًا دون أن تمر على العقل والتفكير، وكثيرًا ما نقولها عند الضيق والتبرم من شيء، فالحق سبحانه يمنعك من هذا التعبير القسري، وليس الأمر الاختياري.

و﴿أُفٍّ﴾ اسم فعل مضارع بمعنى: اتضجر، وهذه الكلمة تدل على انفعال طبيعي، ولكن الحق سبحانه يُحذرك منه، ويأمرك بأن تتمالك مشاعرك، وتتحكم في عواطفك، ولا تنطق بهذه اللفظة.

---

(١) اللدد: العداوة الشديدة. والشديد الخصومة.

ومعلوم أنه سبحانه إذا نهاني عن هـذه فقد نهاني عن غيرها من باب أولي، وما دامت هي أقل لفظة يمكن أن تقال. إذن: نهاني عن القول وعن الفعل أيضًا. ثم أكد هذا التوجيه بقوله: ﴿وَلاَ تَنْهَرْهُمَا..﴾ [الإسراء: ٢٣].

والنهر هو الزجر بقسوة، وهو انفعال تال للتضجر وأشد منه قسوة، وكثيراً ما نرى مثل هذه المواقف في الحياة، فلو تصورنا الابن يعطي والده كوبًا من الشاي مثلاً فارتعشت يده فأوقع الكوب فوق سجادة ولده الفاخرة، وسريعًا ما يتأفف الابن لما حدث لسجادته، ثم يقول للوالد من عبارات التأنيب ما يؤلمه ويجرح مشاعره.

إذن: كُن على حذر من التأفف، ومن أن تنهر والديك، كُن على حذر من هذه الألفاظ التي تسبق إلى اللسان دون فكر، ودون تعقل.

ثم بعد هذا النهي المؤكد يأتي أمر جديد ليؤكد النهي السابق: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وفي هذا المقام تُروى قصة الشاب الذي أوقع أبوه إناء الطعام على ثيابه، فأخذ الولد يلعق الطعام الذي وقع على ثوبه وهو يقول لوالده: أطعمك الله كما أطعمتني. فحول الإساءة إلى جميل يحمد عليه.

والآخر الذي ذهب يتمرغ تحت أقدام أمه، فقالت له: كفى يا بني، فقال: إن كنت تُحبينني حقًا فلا تمنعيني من عمل يُدخلني الجنة.

والقول الكريم هنا نوع من التصرف واللباقة في معاملة الوالدين، خاصة حال الشيخوخة التي قد تُقعد صاحبها، أو المرض الذي يحتاج إلى مساعدة الغير، والأولاد هم أولى الناس بإعالة الوالدين في هذه الظروف، حيث سيبدو من الإنسان ما لا يصح الاطلاع عليه إلا لأولاده وأقرب الناس إليه.

إذن: نستطيع أن نأخذ من هذا إشارة دقيقة يجب ألا نغفل عنها، وهي: إن

كان بر الوالدين واجبًا عليك في حال القوة والشباب والقدرة، فهو أوجب حال كبرهما وعجزهما، أو حال مرضهما.

ثم يرشدنا الحق سبحانه إلى حسن معاملة الوالدين، فيقول:

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

﴿ وَاخْفِضْ ﴾: الخفض ضد الرفع.

﴿ جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾: الطائر معروف أنه يرفع جناحه ويرفرف به، إن أراد أن يطير، ويخفضه إن أراد أن يحنو على صغاره، ويحتضنهم ويغذيهم.

وهذه صورة محسة لنا، يدعونا الحق سبحانه وتعالى أن نقتدي بها، وأن نعامل الوالدين هذه المعاملة، فنحنو عليهم، ونخفض لهم الجناح، كناية عن الطاعة والحنان والتواضع لهما، وإياك أن تكون كالطائر الذي يرفع جناحيه ليطير بهما مُتعاليًا على غيره.

وكثيراً ما يعطينا الشرع الحكيم أمثلة ونماذج للرأفة والرحمة في الطيور، ويجعلها قدوة لنا بني البشر. والذي يرى الطائر يحتضن صغاره تحت جناحه، ويزقهم [1] الغذاء يرى عجبًا، فالصغار لا يقدرون على مضغ الطعام وتكسيره، وليس لديهم اللعاب الذي يساعدهم على أن يزدردوا الطعام، فيقوم الوالدان بهذه المهمة، ثم يناولانهم غذاءهم جاهزاً يسهل بلعه، وإن تيسر لك رؤية هذا المنظر فسوف ترى الطائر وفراخه يتراقصون فرحة وسعادة.

إذن: قوله تعالى: ﴿ جناح الذل.. ﴾ [الإسراء: ٢٤].

كناية عن الخضوع والتواضع، والذل قد يأتي بمعنى القهر والغلبة، وقد يأتي بمعنى العطف والرحمة، يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن

(١) زقه: أطعمة بفيه (بفمه) [لسان العرب- مادة: زقق].

دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين.. ﴾ [المائدة: ٥٤].

فلو كانت الذلة هنا بمعنى القهر لقال: أذلة للمؤمنين، ولكن المعنى: عطوفين على المؤمنين. وفي المقابل ﴿ أعزة على الكافرين.. ﴾ [المائدة: ٥٤].

أي: أقوياء عليهم قاهرين لهم.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم.. ﴾ [الفتح: ٢٩].

لأن الخالق سبحانه لم يخلق الإنسان رحيمًا على الإطلاق، ولا شديدًا على الإطلاق، بل خلق في المؤمن مرونة تمكنه أن يتكيف تبعًا للمواقف التي يمر بها، فإن كان على الكافر كان عزيزًا، وإن كان على المؤمن كان ذليلاً متواضعًا.

فيقول تعالى: ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة.. ﴾ [الإسراء: ٢٤].

إذن: الذلة هنا ذلة تواضع ورحمة بالوالدين، ولكن رحمتك أنت لا تكفي، فعليك أن تطلب لهما الرحمة الكبرى من الله تعالى ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ [الإسراء: ٢٤].

لأن رحمتك بهما لا تفي بما قدموه لك، ولا ترد لهما الجميل، وليس البادئ كالمكافئ، فهم أحسنوا إليك بداية وأنت أحسنت إليهما ردًّا؛ لذلك ادع الله أن يرحمهما، وأن يتكفل سبحانه عنك برد الجميل، وأن يرحمهما رحمة تكافئ إحسانهما إليك.

وقوله تعالى: ﴿ كما ربياني.. ﴾ [الإسراء: ٢٤].

كما: قد تفيد التشبيه، فيكون المعنى: ارحمهما رحمة مثل رحمتهما بي حين ربياني صغيرًا. أو تفيد التعليل: أي ارحمهما لأنهما ربياني صغيرًا، كما قال تعالى: ﴿ واذكروه كما هداكم.. ﴾ [البقرة: ١٩٨].

و ﴿ربياني﴾ هذه الكلمة أدخلت كل مُـرب للإنسان في هذا الحكم، وإن لم يكن من الوالدين، لأن الولد قـد يُربيه غيـر والديه لأي ظرف من الظروف، والحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً، فإن رباك غـير والديك فلهما ما للوالدين من البر والإحسان وحسن المعاملة والدعاء.

وهذه بشرى لمن ربى غير ولده، ولاسيمـا إن كان المربي يتيماً، أو في حكم اليتيم.

وفي ﴿رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] اعـتراف من الابن بما للوالدين من فضل عليه وجميل يستحق الرد .

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه في تذييل هذا الحكم بقضية تشترك فيها معاملة الابن لأبويه مع معاملته لربه عز وجل، فيقول تعالى:

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾.

وقد سبق أن تكلمنا عن الإيمان والنفاق، وقلنا: إن المؤمن منطقي مع نفسه؛ لأنه آمن بقلبـه ولسانه، وأن الكافر كـذلك منطقي لأنه كفـر بقلبه ولسـانه، أما المنافق فغير منطقي مع نفسه؛ لأنه آمن بلسانه وجحد بقلبه.

وهذه الآية تدعـونا إلى الحـديث عن النفـاق؛ لأنه ظاهرة مـن الظواهر المصاحـبة للإيمان بالله، وكما نـعلم فإن النفاق لم يظهـر في مكة التي صادمت الإسـلام وعـاندته، وضـيـقـت عليـه، بل ظهـر في المدينة الـتي احـتـضنت الدين،وانساحت به في شتى بقاع الأرض، وقد يتساءل البعض: كيف ذلك؟

نـقـول: النفاق ظاهرة صـحية إلى جـانب الإيمان؛ لأنه لا يُنافق إلا القوى، والإسـلام في مكـة كان ضـعيفًا، فكان الكفار يُجـابهونه ولا ينافقونه، فلما تحول إلى المدينة اشتد عوده، وقويت شوكته، وبدأ ضعاف النفوس ينافقون المؤمنين.

لذلك يقول أحدهم: كيف وقد ذم الله أهل المدينة، وقال عنهم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ..﴾ [التوبة: ١٠١].

نقول: لقد مدح القرآن أهل المدينة بما لا مزيد عليه، فقال تعالى في حقهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ ..﴾ [الحشر: ٩].

وكأنه جعل الإيمان محلاً للنازلين فيه.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ..﴾ [الحشر: ٩].

فإن قال بعد ذلك: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ..﴾ [التوبة: ١٠١].

فالنفاق في المدينة ظاهرة صحية للإيمان؛ لأن الإيمان لو لم يكن قويًّا في المدينة لما نافقه المنافقون.

ومن هنا جعل الله المنافقين في الدرك الأسفل من النار، لأنه مندس بين المؤمنين كواحد منهم، يعايشهم ويعرف أسرارهم، ولا يستطيعون الاحتياط له، فهو عدو من الداخل يصعب تمييزه على خلاف الكافر، فعداوته واضحة ظاهرة معلنة، فيمكن الاحتياط له وأخذ الحذر منه.

ولكن لماذا الحديث عن النفاق ونحن بصدد الحديث عن عبادة الله وحده وبر الوالدين؟

الحق سبحانه وتعالى أراد أن يُعطينا إشارة دقيقة إلى أن النفاق كما يكون في الإيمان بالله، يكون كذلك في بر الوالدين، فنرى من الأبناء من يبر أبويه نفاقًا وسمعة ورياء، لا إخلاصًا لهما، أو اعترافًا بفضلهما، أو حرصًا عليهما.

ولهؤلاء يقول تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ..﴾ [الإسراء: ٢٥].

لأن من الأبناء من يبر أبويه، وهو يدعو الله في نفسه أن يُريحه منهما، فجاء الخطاب بصيغة الجمع: ﴿ربكم﴾ أي: رب الابن، ورب الأبوين؛ لأن مصلحتكم عندي سواء، وكما نداقع عن الأب ندافع أيضًا عن الابن، حتى لا يقع فيما لا تُحمد عُقباه.

وقوله: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ..﴾ [الإسراء: ٢٥].

أي: إن توفر فيكم شرط الصلاح، فسوف يُجازيكم عليه الجزاء الأوفى. وإن كان غير ذلك وكنتم في أنفسكم غير صالحين غير مخلصين، فارجعوا من قريب، ولا تستمروا في عدم الصلاح، بل عودوا إلى الله وتوبوا إليه.

﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥].

والأبوان هم الذين اعترفوا بذنوبهم ورجعوا تائبين إلى ربهم ا.هـ.

أما صلة الأرحام: فسيأتي الحديث عنها في صفات أولي الألباب.

وبالجملة: فالزوج الصالح:

(١) من عباد الرحمن الذين وصفهم الحق- سبحانه- بقوله:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا

بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[1].

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله- في تفسيره لهذه الآيات - ما مختصره-:

يعطينا الحق - تبارك وتعالى- صورة للعبودية الحقة، ونموذجًا للذين اتبعوا المنهج، كأنه- سبحانه وتعالى- يقول لنا: دعكم من الذين أعرضوا عن منهج الله وكذبوا رسوله، وانظروا إلى أوصاف عبادي الذين آمنوا بي، ونفذوا أحكامي، وصدقوا رسولي.

وأول ما نلحظ في هذه الآية أنه تعالى أضاف العباد إلى الرحمن، حتى لا نظن أن العبودية لله ذلة، وأن القرآن كلام رب وُضع بميزان، ثم يذكر - سبحانه وتعالى- صفات هؤلاء العباد، صفاتهم في ذواتهم، وصفاتهم مع مجتمعهم، وصفاتهم مع ربهم، وصفاتهم في الارتقاء بالمجتمع إلى الطهر والنقاء.

أما في ذواتهم، فالإنسان له حالتان هما محل الاهتمام: إما قاعد، وإما سائر، ونُخرج حالة النوم لأنه وقت سكون، أما حال القعود فالحركة محدودة في ذاته، والمهم حال الحركة والمشي، وهذا هو الحال الذي ينبغي الالتفات إليه.

لذلك يوضح لنا ربنا- عز وجل - كيف نمشي فيقول: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا.. ﴾ [الفرقان: ٦٣].

يعني: برفق وفي سكينة، وبلين دون اختيال، أو تكبر، أو غطرسة، لماذا؟ لأن المشي هو الذي سيعُرضك لمقابلة مجتمعات متعددة، وهذا الأدب الرباني في المشي يُحدث في المجتمع استطراقًا إنسانيًا يُسوي بين الجميع.

---

(١) [الفرقان: ٦٣-٧٦].

وفي موضع آخر يقول تعالى في هذه المسألة: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا..﴾ [لقمان: ١٨] ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٧].

وتصعير الخد أن تُميله كبرًا وبطرًا وأصله (الصعر) مرض في البعير يصيب عنقه فيسير مائلاً، ومن أراد أن يسير مُتكبرًا مختالاً فليتكبر بشئ ذاتي فيه، وهل لديك شيء ذاتي تستطيع أن تضمنه لنفسك أو تحتفظ به؟

إن كنت غنيًّا فقد تفتقر، وإن كنت قويًّا صحيحًا قد يصيبك المرض فيُقعدك، وإن كنت عزيزًا اليوم فقد تذل غدًا. إذن: فكل دواعي التكبر ليست ذاتية عندك، إنما هي موهوبة من الله، فعلام التكبر إذن؟!

لذلك يقولون في المثل (اللي يخرز يخرز على وركه) إنما يخرز على ورك غيره؟! وأصل هذا المثل أن صانع السروج كأن يأتي بالصبي الذي يعمل تحت يده، ويجعله يمد رجله، ويضع السرج على وركه، ثم يأخذ في خياطته، فرآه أحدهم فرق قلبه للصبي فقال للرجل: إنه ضعيف لا يتحمل هذا، فإن أردت فاجعله على وركك أنت. كذلك الحال هنا، من أراد أن يتكبر فليتكبر بشيء ذاتي فيه، لا بشيء موهوب له.

والمتكبر شخص ضُرب الحجاب على قلبه، فلم يلتفت إلى ربه الأعلى، ويرى أنه أفضل من خلق الله جميعًا، ولو استحضر كبرياء ربه لاستحى أن يتكبر على خلق الله، فتكبره دليل على غفلته عن هذه المسألة.

لذلك يقول الناظم:

فدع كل طاغية للزمان   فإن الزمان يقيم الصعر

يعني: سيري من الزمان ما يقوم اعوجاجه، ويرغم أنفه.

ومعنى ﴿مرحًا..﴾ [لقمان: ١٨] المرح: الفرح ببطر. والبطر: أن تأخذ

النعمة وتنسى المنعم، وتتنعم بها، وتعصى من وهبك إياها، إذن: المنهي عنه الفرح المصاحب للبطر، وإنكار فضل المنعم، أما الفرح المصاحب للشكر فمحمود، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا..﴾ [يونس: ٥٨].

وفي موضع آخر يُعلمنا أدب المشي، فيقول: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ..﴾ [لقمان: ١٩].

وقالوا: إن المراد بالمشي الهون، هو الذي يسير فيه الإنسان على سجيته دون افتعال للعظمة أو الكبر، لكن دون انكسار وذلة، وسيدنا عمر ﷺ حينما رأى رجلاً يسير متماوتًا ضربه، ونهاه عن الانكسار والتماوت في المشية، وهكذا فمشيه المؤمن وسط، لا متكبر ولا متماوت متهالك.

ثم تتحدث الآية بعد ذلك عن صفات عباد الرحمن وعلاقتهم بالناس: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا..﴾ [الفرقان: ٦٣] والجاهل: هو السفيه الذي لا يزن الكلام، ولا يضع الكلمة في موضعها، ولا يدرك مقاييس الأمور، لا في الخلق ولا في الأدب.

والمعنى: إذا خاطبك الجاهل، فحذار أن تكون مثله في الرد عليه فتسفه عليه كما سفه عليك، بل قرعه بأدب وقل ﴿سَلامًا..﴾ [الفرقان: ٦٣] لتشعره بالفرق بينكما.

والحق- تبارك وتعالى- يوضح في آية أخرى ثمرة هذا الأدب، فيقول: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وما أجل ما قاله الإمام الشافعي في هذا المعنى:

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من إجابته السكوت

فإن كلمته فرجت عنه ... وإن خليته كمدًا يموت

فإن اشتد السفيه سفاهة، وطغى عليك وتجبر، فلا بد لك من رد العدوان بمثله؛ لأنك حلمت عليه، فلم يتواضع لك، وظن حلمك ضعفًا، وهنا عليك أن تريه الفرق بين الضعف وكرم الخلق، وللإمام علي كرم الله وجهه:

إن كنت محتاجًا إلى الحلم إنني	**إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج**
ولي فرس للحلم بالحلم ملجم	**ولي فرس للجهل بالجهل مسرج**
فمن رام تقويمي فإني مقوم	**ومن رام تعويجي فإني معوج**

ومعنى: ﴿ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] قالوا: المراد هنا سلام المتاركة، لا سلام الأمان الذي نقوله في التحية (السلام عليكم) فحين تتعرض لمن يؤذيك بالقول، ويتعدى عليك باللسان تقول له سلام يعني: سلام المتاركة.

وبعض العلماء يرى أن كلمة ﴿ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] هنا تعني المعنيين: سلام المتاركة، وسلام التحية والأمان، فحين تحلم على السفيه فلا تجاريه تقول له: لو تماديت معك سأوذيك، وأفعل بك كذا وكذا، فأنت بذلك خرجت من سلام المتاركة إلى سلام التحية والأمان.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

ألم يقل إبراهيم- عليه السلام- لعمه آزر لما أصر على كُفره: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي.. ﴾ [مريم: ٤٧].

والمعنى: لو وقفت أمامك لربما اعتديت عليك، وتفاقمت بيننا المشكلة.

وبعد أن تناولت الآيات حال عباد الرحمن في ذواتهم، وحالهم مع الناس، تتحدث الآن عن حالهم مع ربهم:

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾

والبيتوتة تكون بالليل، حين يأوي الإنسان إلى بيته بعد عناء اليوم وسعيه، وبعد أن تقلب في ألوان شتى من نعم الله عليه، فحين يأوى إلى مبيته يتذكر نعم الله التي تجلت عليه في ذلك اليوم، وهي نعم ليست ذاتية فيه، إنما موهوبة له من الله؛ لذلك يتوجه إليه سبحانه بالشكر عليها، فيبيت لله ساجداً وقائماً.

كما قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ..﴾ [الزمر: ٩].

وقال سبحانه: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

لكن، أيطلب الله تعالى منا ألا نهجع بالليل، وقد قال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾ [النبأ: ٩].

قالوا: ليس المراد قيام الليل كله، إنما جزء منه حين تجد عندك النشاط للعبادة، كما قال الحق سبحانه وتعالى في خطاب النبي ﷺ: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٢ ـ ٤].

حتى قال ابن عباس: من صلى بعد العشاء ركعتين فأكثر كان كمن بات لله ساجداً وقائماً (١).

فربك يريد منك أن تذكره قبل أن تنام، وأن تتأمل نعمه عليك فتشكره عليها.

وذكر سبحانه حالتي السجود والقيام ﴿سُجَّداً وَقِيَاماً﴾ [الفرقان: ٦٤] لأن بعض الناس يصعب عليهم أن يسجدوا، وآخرين يسهل عليهم السجود، ويصعب عليهم القيام، فذكر الله سبحانه الحالتين ليعدل فيهما.

---

(١) روى مسلم في «صحيحه» عن عثمان بن عفان، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله».

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾.

هذا القول يناسب عباد الرحمن الذين يفعلون الخيرات، طمعًا في الثواب، وخوفًا من العقاب، فهم الذين يقولون ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥] كلمة (غرام) نقولها بمعنى الحب والهيام والعشق، ومعناها: اللزوم، أي لازم لهم لا ينفك عنهم في النار أبدًا؛ لأن العاقبة إما جنة أبدًا، أو نار أبدًا.

فمعنى ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥] أي: لازمًا دائمًا، ليس مرة واحدة وتنتهي المسألة.

ومنه كلمة (الغريم)، وهو الذي يلازم المدين ليأخذ منه دينه.

وكلمة ﴿ اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ [الفرقان: ٦٥] كأنهم متصورون أن جهنم ستسعى إليهم، وأن بينها وبينهم لددًا، بدليل أنها ستقول: ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق: ٣٠].

ثم تذكر الآيات سبب هذه المقولة:

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾.

ساء الشيء أي: قبح، وضده حسن؛ لذلك قال تعالى عن الجنة في مقابل هذه الآية: ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٦] وهكذا السوء يلازمه القبح، والحسن يلازمه الحسن.

وقال: ﴿ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦] حتى لا يظنوا أن النار فترة وتنتهي، ثم يخرجون منها، فهي مستقرهم الدائم، ومقامهم الذي لا يفارقونه.

أو أن الحق- سبحانه وتعالى- راد بهذا نوعين من الناس: مؤمن أسرف في بعض السيئات، ولم يتب، أو لم يتقبل الله منه توبته، فهو في النار لحين، والمستقر هنا بمعنى المكان المؤقت، أما المقام فهو الطويل.

إذن: النار ساءت مستقرًا لمن أسرف على نفسه ولم يتب، أو لم يتقبل الله توبته، إنما ليست إقامة دائمة، والمقام يكون للخالدين فيها أبدًا.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾.

الإسراف: تبديد ما تملك فيما عنه غناء، فلا نقول (مسرف) مثلاً للذي يأكل ليحفظ حياته؛ لذلك يقول سيدنا عمر ﷺ لولده عاصم: كل نصف بطنك، ولا تطرح ثوبًا إلا إذا استخلقته، ولا تجعل كل رزقك في بطنك وعلى جسدك[1].

والإسراف أن تنفق في غير حل، فلا سرف في حل، حتى إن أسرف الإنسان في شيء من الترف المباح، فإنه يؤدي لنفسه بعض الكماليات، في حين يؤدي للمجتمع أشياء ضرورية، فالذي لا يرتدي الثوب إلا (مكويًا) كان بإمكانه أن يرتديه دون كي، فكي الثوب في حقه نوع من الترف، لكنه ضرورة بالنسبة (للمكوجي) حيث يسر له أكل العيش.

والذي يستقل سيارة أجرة وهو قادر على السير، أو يجلس على (القهوة) كل يوم ليمسح حذاءه وهو قادر على أن يمسحه بنفسه، هذه كلها ألوان من الترف بالنسبة لك، لكنها ضرورة لغيرك، فلا يُسمى هذا إسرافًا.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] أي: بين الإسراف والتقتير ﴿ قوامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] يعني: وسطًا أي: إن الإنفاق وسط بين طرفين، وقوام الشيء: ما به يقوم، والحياة كلها تقوم على عملية التوسط بين الإسراف والتقتير.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٧/ ٤٩٥١)، وفيه: «ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله في بطونهم وعلى ظهورهم».

ويروى أن عبد الملك بن مروان لما أراد أن يزوج ابنته فاطمة من عمر بن عبد العزيز اختبره بهذا السؤال ليعرف ميزانه في الحياة: يا عمر، ما نفقتك؟ قال: يا أمير المؤمنين، نفقتي حسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

فعلم الخليفة أن زوج ابنته يسير سيراً يضمن له ولزوجته مقومات الحياة، ويضمن كذلك المقومات العليا للنفس وللمجتمع.

وسبق أن ذكرنا أن الإنسان الذي ينفق كل دخله لا يستطيع أن يرتقي بحياته وحياة أولاده؛ لأنه أسرف في الإنفاق، ولم يدخر شيئًا ليبني مثلاً بيتًا، أو يشتري سيارة.. إلخ.

ومصيبة المجتمع أعظم في حال التقتير، فمصلحة المجتمع أن تنفق، وأن تدخر، كما قال سبحانه: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ..﴾ [الإسراء: ٢٩].

إذن: ربك يريدك أن تنفق شيئًا، وتدخر شيئًا يتيح لك تحقيق ارتقاءات حياتك وطموحاتها؛ لذلك ختمت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

ملوم النفس لما بددت من أموال لم ينتفع بها عيالك، ومحسوراً حينما ترى غيرك ارتقى في حياته وأنت لم تفعل شيئًا إذن: فالإنسان ملوم إن أسرف، محسور إن قتر، والقوام في التوسط بين الأمرين، وبالحسنة بين السيئتين، كما قال عمر بن عبد العزيز ﷺ، ولذلك قالوا: خير الأمور الوسط.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾. وهنا قد يسأل سائل: أبعد كل

هذه الصفات لعباد الرحمن نفي عنهم هذه الصفة ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨] وهم ما اتصفوا بالصفات السابقة إلا لأنهم مؤمنون بالإله الواحد سبحانه؟ قالوا: هذه المسألة عقيدة وأساس لا بد للقرآن أن يكررها، ويهتم بالتأكيد عليها.

ومعنى: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ..﴾ [الفرقان: ٦٨] أي: لا يدعون أصحاب الأسباب لمسبباتهم، وهذا هو الشرك الخفي. ومنه قولهم: توكلت على الله وعليك، فنقول له: انتبه ليس على شيء، الأمر كله على الله. فقل: توكلت على الله. وإن أردت فقل: ثم عليك(١).

ونسمع آخر يقول للأمر الهام: هذا على، والباقي على الله، فجعل الأصل المهم لنفسه، وأسند الباقي لله، أيليق هذا والمسألة كلها أصلها وفروعها على الله؟

إذن: يمكن أن تكون هذه الآية للمفتونين في الأسباب الذين ينتظرون منها العطاء، وينسون المسبب سبحانه، وهذا هو الشرك الخفي.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ..﴾ [الفرقان: ٦٨] سبق أن تحدثنا عن الفرق بين الموت والقتل، وقلنا: إن كليهما تذهب به الحياة، لكن في الموت تذهب الحياة أولاً، ثم تُنقض البنية بعد ذلك، أما في حالة القتل فتنقض البنية أولاً، ثم يتبعها خروج الروح. فالموت- إذن - بيد الله عز وجل، أما القتل فقد يكون بيد البشر.

وهنا نهي صريح عن هذه الجريمة؛ لأنه «ملعون من يهدم بنيان الله» ويقضي على الحياة التي وهبها الله تعالى لعباده.

---

(١) أخرج ابن ماجه في سننه (٢١١٧) من حديث ابن عباس ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «إذا حلف أحدكم فلا يقل: ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت».

وقوله تعالى: ﴿ **إلا بالحق** .. ﴾ [الفرقان: ٦٨] أي: حق يبيح القتل كرجم الزاني حتى الموت، وكالقصاص من القاتل، وكقتل المرتد عن دينه، فإن قتلنا هؤلاء فقتلهم بناءً على حق استوجب قتلهم.

فإن قال قائل: فأين حرية الدين إذن؟ نقول: أنت حر في أن تؤمن أو لا تؤمن، لكن اعلم أولاً أنك إن ارتددت عن إيمانك قتلناك، فإياك أن تدخل في ديننا إلا بعد اقتناع تام حتى لا تُعرض نفسك لهذه العاقبة.

وهذا الشرط يمثل عقبة وحاجزاً أمام من أراد الإيمان ويجعله يُفكر مليًا قبل أن ينطق بكلمة الإيمان ويحتاط لنفسه، إذن: فربك عز وجل ينبهك أولاً، ويشترط عليك، وليس لأحد بعد ذلك أن يقول: أين حرية الدين؟

وقوله تعالى: ﴿ **ولا يزنون** .. ﴾ [الفرقان: ٦٨] قلنا[1]: إن الإنسان الذي كرمه الله وجعله خليفة له في أرضه أراد له الطهر والكرامة، وأن يسكن الدنيا على مقتضى قانون الله، فلا يُدخل في عنصر الخلافة شيئًا يخالف هذا القانون؛ لأن الله تعالى يريد أن يبني المجتمع المؤمن على الطهر ويبنيه على عناية المربي بالمربى.

لذلك تجد الرجل يعتني بولده مطعمًا ومشربًا وملبسًا ويفديه بنفسه، لماذا؟ لأنه ولده من صلبه ومحسوب عليه، أما إن شك في نسب ولده إليه فإنه يُهمله، وربما فكر في الخلاص منه، وإن رُبي مثل هذا رُبي لقيطًا لا أصل له، وهذا لا يصلح لخلافة الله في أرضه، ولا لأن يحمل هذا الشرف.

وهذا يدل على أن الفطرة السليمة تأبى أن يوجد في كون الله شخص غير منسوب لأبيه الحق، من هنا نهى الإسلام عن الزنا، وجعل من صفات عباد الرحمن أنهم لا يزنون.

---

(١) يعني في غير هذا الموضع.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] أثامًا مثل: نكالاً وزنًا ومعنى، والآثام: عقوبة الإثم والجزاء عليه.

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾.

كيف نفهم مضاعفة العذاب في هذه الآية مع قوله تعالى في آية أخرى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا..﴾ [الشورى: ٤٠].

ويقول سبحانه: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

الحقيقة لا يوجد تناقض بين آيات القرآن الكريم، فالذي يرتكب هذه الفعلة يكون أسوة في المجتمع تُجرئ الغير على ارتكاب هذه الجريمة؛ لذلك عليه وزره كفاعل أولاً، وعليه وزر من اقتدى به.

كما جاء في قوله تعالى حكاية عن الكافرين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] إذن: فوجود الآباء كقدوة للشر يزيد من شر الأبناء، فكأنهم شركاء فيه.

لذلك يقول تعالى في موضع آخر: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ..﴾ [النحل: ٢٥].

وقال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ..﴾ [العنكبوت: ١٣].

فالوزر الأول لضلالهم في ذاته، والوزر الآخر؛ لأنهم أضلوا غيرهم، هذا هو المراد بمضاعفة العذاب(١).

وقوله تعالى: ﴿ويخلد فيه مُهانًا﴾ [الفرقان: ٦٩] معنى (مُهانًا): حينما وصف القرآن العذاب وصفه مرة بأنه أليم، ومرة عظيم، ومرة مُهين. فالذي

(١) وهذا من روائع البيان، فرحمة الله تعالى على الإمام.

ينظر إلى إيلام الجوارح يقول: هذا عذاب أليم؛ لأنه يُؤلم كل جارحة فيه، فالعذاب أمر حسي، أما الإهانة فأمر معنوي، ومن الناس من تؤلمه كلمة تنال من كرامته، ومنهم من يُضرب فلا يؤثر فيه.

والخالق- عز وجل- خلق الناس وعلم أزلاً أنهم أبناء أغيار، ليس معصومًا منهم إلا الرسل، إذن: فالسيئة مُحتملة منهم.

ومن تمام رحمته تعالى بربوبيته أن فتح باب التوبة لعباده، لمن أسرف منهم على نفسه في شيء؛ لأن صاحب السيئة إن يئس من المغفرة استشرى خطره وزاد فساده، لكن إن فتحت له باب التوبة والمغفرة عاد إلى الجادة، واستقام على الطاعة، وفي هذا رحمة بالمجتمع كله.

يقول تعالى: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

فربكم كريم ورحيم، إن تُبتم تاب عليكم وقبلكم، فإن قدمتم العمل الصالح واشتد ندمكم على ما فات منكم من معصية يُبدل سيئاتكم حسنات.

وللتوبة أمران: مشروعيتها من الله أولاً، وقبولها من صاحبها ثانيًا، فتشريعها فضل، وقبولها فضل آخر؛ لذلك يقول سبحانه: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ.. ﴾ [التوبة: ١١٨] والمعنى: تاب عليهم بأن شرع لهم التوبة حتى لا يستحوا من الرجوع إلى الله.

وقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا.. ﴾ [الفرقان: ٧٠] تاب وآمن لمن عمل معصية تُخرجه عن الإيمان، فالعاصي لم يقارف المعصية إلا في غفلة عن إيمانه، كما جاء في الحديث الشريف: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٧٥)، وكذا مسلم في صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان =

ولو استحضر العاصي جلال ربه ما عصاه، ولتضخمت عنده المعصية فانصرف عنها، وما دام قد غاب عنه إيمانه فلا بد له من تجديده، ثم بعد ذلك يُوظف هذا الإيمان في العمل الصالح.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا..﴾ [الفرقان: ٧٠] فالجزاء ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ..﴾ [الفرقان: ٧٠] وليس المراد أن السيئة تُبدل فتصير حسنة مباشرة، إنما يرفع العبد السيئة ويحل محلها التوبة، وبعد التوبة يضع الله له الحسنة(١).

وقد أطمعت رحمة الله ومغفرته بعض الناس، حتى قال الشاعر:

مولاي إني قد عصيتك عامداً لأراك أجمل ما تكون غفوراً
ولقد جنيت من الذنوب كبارها ضناً بعفوك أن يكون صغيراً

حتى وصل الحال ببعضهم أن يستكثر من السيئة طمعًا في أن تُبدل حسنات، لكن من يضمن له أن يعيش إلي أن يتوب، أو أنه إن تاب قبل الله منه؟

والعلة النفسية التي تكلم عنها العلماء في هذه المسألة أن الذي ابتعد عن المعصية فلم يقع في شراكها لم يدرك لذة الشهوة، فلا تأتي على باله، أما من خاض فيها، وذاق لذتها، وأسرف فيها على نفسه فيعاني كثيراً حينما يحجز نفسه وينأى بها عن معصية الله، فهذه المعاناة هي التي جعلت له هذه المنزلة.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾.

معنى ﴿يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١] يعني: توبة نصوحًا، لا

= من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) قال النحاس: «أحسن ما قيل فيه: أنه يكتب موضع كافر مؤمن، وموضع عاصٍ مطيع». وقال القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٧٥): «لا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة؛ وقد قال ﷺ لمعاذ: «اتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» ا.هـ. والحديث: رواه الترمذي، وإسناده حسن.

عودة بعدها إلى المعصية، لا يرجع في توبته كـالمستهزئ بربه، يقول: أفعل كذا ثم أتوب. وكلمة ﴿ متابًا ﴾ [الفرقـان: ٧١] تعني: العزم ساعـة أن يتوب ألا يعود، والخطر في أن يُقدم العبد على الذنب لوجود التوبة، فقد يُقبض في حال المعصية، وقبل أن يُمكنه التوبة(١).

ثم تذكر الآيات خصلة أخرى من خصال عباد الرحمن:

﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾.

الزور: الشيء الكذب، ويزور في الشهادة، أي: يُثبت الحق لغـير صاحبه، لكن نلاحظ أن الآية لم تقل: والذين لا يشهدون بالزور، مما يدل على أن للآية مـعنى أوسع من النطق بقـول الزور في مـجـال التقـاضي، حـيث تقـول عند القاضي: فلان فعل وهو لم يفعل.

فللشهادة معنى آخر: أي: لايـحضرون الزور، والزور كل ما خالف الحق، ومنه قوله تعالى في شـهر رمضان: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ.. ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فمعنى ﴿ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ.. ﴾ [الفرقان: ٧٢] أي: لا يحـضرون الباطل في أي لون من ألوانه قولاً أو فعلاً أو إقرارًا، وكل ما خالف الحق.

لذلك يقول الحق سبـحانه في موضع آخر: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

ويقول سبـحانه: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

---

(١) قال الإمام القرطبي- رحمه الله- في «تفسيره» (١٣/ ٧٦): «وقال القفال: يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، ولهذا قال: ﴿إلا من تاب وآمن﴾ ثم عطف عليه من تاب من المسلمين واتبع توبته عملاً صالحًا فله حكم التائبين أيضًا» ا.هـ.

وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ.. ﴾ [النساء: ١٤٠].

ومعلوم أن قول الزور والشهادة بغير حق تقلب الحقائق وتضر بالمجتمع؛ لأنك حين تشهد بالزور تأخذ الحق من صاحبه وتعطيه لغيره، وهذا يؤدي إلى تعطل حركة الحياة، وتجعل الإنسان لا يأمن على ثمار تعبه وعرقه، فيحجم الناس عن السعي والعمل ما دامت المسألة زوراً في النهاية.

لذلك قال النبي ﷺ **«ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور»**، وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»[1].

لماذا؟ لأن شهادة الزور تهدم كل قضايا الحق في المجتمع.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢] اللغو: هو الذي يجب في عُرف العاقل أن يُلغي ويترك، وهو الهراء الذي لا فائدة منه؛ لذلك قال فيمن يتركه ﴿ مروا كراماً ﴾ [الفرقان: ٧٢] والكرام يقابلها اللئام، فكأن المعنى: لا تدخل مع اللئام مجال اللغو والكلام الباطل الذي يُصادم الحق ليصرف الناس عنه.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾.

قوله تعالى ﴿ ذُكِّرُوا.. ﴾ [الفرقان: ٧٣] لا تُقال إلا إذا كان المقابل لك الذي تذكره عنده إلف بالذكر، وعنده علم به، والآيات التي تُذكر بها لها قدوم أول، ولها قدوم ثان: القدوم الأول: هو الإعلان الأول بها، والقدوم الثاني: حين تنسى نُذكرك بها.

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (٨٧) وغيره.

وسبق أن قُلنا: إن الآيات تُطلق على معان ثلاثة: إما آيات كونية تُلفت ظر إلى قدرة الله تعالى، وأنه صانع حكيم.. إلخ، وإما آيات معجزات اءت لتأييد الرسل وإثبات صدقهم في البلاغ عن الله، وإما آيات الذكر حكيم، والتي تُسمى حاملة الأحكام، وهي تُنبه من الغفلة، وتُذكر الناس.

فالمعنى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ..﴾ [الفرقان: ٧٣] أي: في قرآن الكريم: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] لم يخروا: ئر: هو السقوط بلا نظام وبلا ترتيب.

كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ سَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ..﴾ [النحل: ٢٦] فالسقف إن خر يخر بلا نظام وبلا ترتيب.

ومنه قوله تعالى في صفات المؤمنين: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ نَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ..﴾ [الإسراء: ١٠٨، ١٠٩] لأنهم خرون بانفعال قسري، ينشأ من سماع القرآن.

إذن: حين يُذكرون بآيات الله لم يخروا عليها صمًّا وعميانًا، إنما يخرون هم مصغون تمام الإصغاء، ومبصرون تمام الإبصار.

ثم يقول الحق سبحانه عنهم:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا مُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

هذه صفة أخرى من صفات عباد الرحمن، يطلبون فيها أمرين ﴿رَبَّنَا هَبْ ا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ..﴾ [الفرقان: ٧٤] والذرية لا تأتي إلا بعد زواج؛ لذلك جاء الدعاء للأزواج، ثم للذرية.

فالمعنى ﴿قرة أعين..﴾ [الفرقان: ٧٤] يعني: اجعل لنا من أزواجنا ما نُسر ، كما جاء في الحديث الشريف عن صفات الزوجة الصالحة: «ما استفاد

المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة: إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله»[1].

وهب لنا من ذرياتنا أولاداً ملتزمين بمنهج الله، لا يحيدون عنه، ولا يُكلفوننا فوق ما نطيق في قول أو فعل؛ لأن الولد إن جاء على خلاف هذه الصورة كان مصيبة كبرى لوالديه، بدليل أن الرجل قد يسرف على نفسه بأنواع المعاصي، وقد يُقصر في حق الله، لكن يحزن إن فعل ولده مثل فعله.

فالأب قد لا يصلي، لكن يحدث ولده على الصلاة، ويفرح له إن صلى واستقام، لماذا؟ لأنه يريد أن يرى وأن يُعوض ما فاته من الخير والجمال في ابنه، ولا يحب الإنسان أن يرى غيره أحسن منه إلا ولده؛ لأنه امتداده وعوضه فيما فات.

وإن أخذنا ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ..﴾ [الفرقان: ٧٤] على أنها بمعنى الاستقرار والثبات، فالمعنى أن تكون الزوجة على خلُق وأدب وجمال، بحيث تُرضى الزوج، فلا تمتد عينه إلى غيرها، وتسكن عندها لأنها استوفت كل الشروط، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ..﴾ [الحجر: ٨٨].

وكذلك إن وجد صفات الخير والأدب والجمال في أولاد بحيث لا تمتد عينه إلى أكثر من ذلك؛ لأنه يرى في أولاده كل تطلعاته، وكل ما يتمناه، فلا يتطلع إلى غيرهم؛ لذلك حين يمدحون، يقولون: فلان لم يعد عنده تطلعات، لماذا؟ لأنه حقق كل ما يريد.

---

(١) ضعيف بهذا اللفظ: رواه ابن ماجه (١٨٥٧). قال البوصيري في «الزوائد»: «في إسناده علي بن يزيد قال البخاري: منكر الحديث، وعثمان بن أبي العاتكة مختلف فيه»، والحديث رواه النسائي بسند صحيح بلفظ: سُئل رسول الله ﷺ عن خير النساء؛ فقال: **«التي تطيع إذا أمر وتسر إذا نظر، وتحفظه في نفسها وماله»**.

ويقولون في المدح أيضًا: فلان هذا قيد النظر، يعني: حين تراه تسكن عنده عينك، ولا تتحول عنه لجماله وكمال صفاته.

والولد حين يكون على هذه الصورة، يريح والديه في الدنيا وفي الآخرة؛ لأنه ولد صالح لا ينقطع بره بوالديه لموتهما، إنما يظل بارًّا بهما حتى بعد الموت فيدعو لهما. وفي الآخرة يجمعهم الله جميعًا في مستقر رحمته: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ..﴾ [الطور: ٢١].

وهكذا كله في الأزواج وفي الأولاد هبة ومنحة من الله.

ونلحظ أن بعض الأزواج يعيشون مع أزواجهم على مضض، وربما على كُره تحملهم عليه ظروف الحياة والأولاد واستقرار الأسرة، فإن قلت للزوج: إن زوجتك ستكون معك في الجنة يقول: كيف، حتى في الآخرة؟! وهو لا يعلم أن الله تعالى سيطُهرها من الصفات التي كرهها منها في الدنيا.

قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ..﴾ [آل عمران: ١٥].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٥،٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] نلحظ أن الدعوة هنا جماعية، ومع ذلك لم يقل أئمة، وذلك إمامًا بصيغة المفرد، فلماذا؟

قالوا: لأنه تعالى يُنبهنا إلى أن الإمام هو الذي يسير على وفق منهج الله ولا يحيد عنه؛ لذلك إن تعددت الأئمة فهم جميعًا في حكم إمام واحد؛ لأنهم يصدرون عن رب واحد، وعن منهج واحد لا تحكمهم الأهواء فتفرقهم كالأمراء مثلاً. فجمعهم في القول من كل منهم على حدة ووحدهم في الإمامة.

ثم يقول الحق سبحانه عن جزاء عباد الرحمن:

﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴾.

﴿ أُوْلَئِكَ.. ﴾ [الفرقان: ٧٥] خبر عن عباد الرحمن الذين تقدمت أوصافهم، فجزاؤهم ﴿ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ.. ﴾ [الفرقان: ٧٥] وجاءت الغرفة مفردة مع أنهم متعددون، يحتاج كل منهم إلى غرفة خاصة به.

قالوا: لأن الغرفة هنا معناها المكان العالي الذي يشتمل على غرفات، كما قال تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧].

وهذا الجزاء نتيجة ﴿ بِمَا صَبَرُوا .. ﴾ [الفرقان: ٧٥] صبروا على مشاق الطاعات، وقد أوضح النبي ﷺ هذه المسألة بقوله: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»[(١)].

فالجنة تستلزم أن أصبر على مشاق الطاعات، وأن أُقدر الجزاء على العمل، واستحضره في الآخرة، فإن ضقت بالطاعات وكذّبتَ بجزاء الآخرة، فلم العمل إذن؟

فالتكاليف الشرعية تستلزم الصبر، كما قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥].

فالحق - تبارك وتعالى - يريد منا ألا نعزل التكاليف عن جزائها، بل ضع الجزاء نُصب عينيك قبل أن تُقدم على العمل.

والإمام علي- كرم الله وجهه- يقول: لو كُشف عني الحجاب ما ازددت يقينًا. لماذا؟ لأنه بلغ من اليقين في الغيب إلى حد العلم والمشاهدة.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴾ [الفرقان: ٧٥].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ١٥٣)، ومسلم في «صحيحه» (٢٨٢٢)، وغيرهما.

التحية: أن نقول له: إننا نُحـيـيك يعني: نريد حياتك بأُنسك بنا، والسلام: الأمان والرحـمة، لكن ممن يكون السـلام؟ ورد السلام في القـرآن الكريم بمعان ثلاثة: سـلام من الله، كمـا في قوله تعـالى: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وسـلام من الملائكة: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم..﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وسلام مـن أهل الأعراف، وهم قـوم استـوت حسناتهم وسـيئـاتهم، فلم يدخلوا الجنة، ولم يدخلوا النار، وهؤلاء يـقولون: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦].

إذن: فعبـاد الرحمن يُلقون في الجنة سلامًـا من الله، وسلامًا من الملائكة، وسلامًا من أهل الأعراف.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

وسبق أن قال تعالى عن النار ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦] لأنها قبـيحة، ومقـابلها هنا ﴿حسنت ..﴾ [الفرقان: ٧٦] والمسـتقر: مكان الإقامة العابرة غير الدائمة، والمقام: مكان الإقامة الدائمة، ومعلوم أن من يدخل الجنة يقيم فيها إقامة أبدية دائمـة، أما من يدخل النار فقد يخرج منها، وإن كان مؤمنًا. فكيف قال عن كل منهما: مُستقرًا ومُقامًا؟

قـالوا: لأنهم ساعـة يأتيهم نعـيم وجزاء نـقول لهم: ليس هذا هو النعـيم الدائم، فالمستقر في نعمة واحدة، إنما المقام في نعم أخرى كثيرة مُترقية مُستعلية، لدرجة أن الكمالات في عطاء الله لا تتناهى.

(٢) وهو من أهل البر الذين وصفهم الحق - سبحانه - بقوله:

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[١].

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله تعالى- في تفسيره لهذه الآية:

عندما جاء الأمر من الحق سبحانه وتعالى بتحويل القبلة إلى الكعبة واتجاه المسلمين في صلواتهم إليها بعد أن كانوا يصلون وجهتهم إلى بيت المقدس، عند ذلك حدثت بلبلة، وصار لكل أتباع ملة قبلة خاصة: فالمسلمون يتجهون إلى الكعبة، واليهود يتجهون إلى بيت المقدس، والنصارى يتجهون إلى المشرق.

وهذه الآية تؤكد أن الخلاف ليس في مسألة اتجاه الصلاة، وقبل تحويل القبلة كان كل من يصلي يتجه إلى مُتجه، وتغيير المتجه ليس فيه مشقة.

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم: لا تجعلوا أمر الاتجاه إلى الكعبة هو كل البر؛ لأن هذا الأمر لا مشقة فيه؛ فلا مشقة في توجه المسلمين إلى الكعبة بعد أن كانوا متوجهين إلى بيت المقدس، إنما المسألة هي امتثال لأمر الآمر، فالبر إذن ليس في الأمور السهلة التي لا مشقة فيها، وإنما في الخير الواسع الكثير، ويشمل الإيمان، ويشمل التقوى، ويشمل الصدق، ويشمل الطاعة، ويشمل الإحسان، وكل وجوه الخير تدخل في كلمة «البر» فالبر معناه كبير واسع، وما دام معناه متسعًا هكذا فكل ناحية منه تحتاج إلى مشقة.

وانظروا إلى مطلوب البر، ومتعلقات البر التي تتطلب منكم المشقة، ولا

---

(١) [البقرة: ١٧٧].

تختلفوا في المسألة السهلة اليسيرة التي لا يوجد فيها أدنى تعب مثل مسألة تغيير اتجاه القبلة، فإن كنتم تعتقدون أن ذلك هو البر نقول لكم: لا، البر له مسئوليات تختلف، إن متعلق البر هو أن يختبر صدق الإيمان، ويظهر الإيثار لمطلوب الله على الراحة، ويتطلب من المؤمن أن يقبل على الطاعة وإن شقت عليه، ويتطلب أن يمتنع المسلم عن المعاصي؛ وأن يعرف أن للمعاصي لذة عاجلة، لكن عقابها كبير، كل ذلك هو من مطلوبات البر والإيمان، فلا تجعلوا مسألة التوجه إلى الكعبة أو إلى بيت المقدس، أو إلى المشرق هو المشكلة؛ لأن وجوهكم ستتولى إلى جهة ما وإن لم تُؤمروا. والبر كما نعلم هو الخير الواسع الذي يشمل كل وجوه الجمال في الكون. يقول الحق: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ ﴾.

ولماذا جعل الله الحديث عن البر حديثًا عن ذات مجسدة؛ برغم أن البر معنى؟ إن الحق يجسد المعنى وهو البر في ذات العبد الذي آمن لأنه سبحانه حينما يريد أن يؤكد معنى من المعاني يجعل الذات مجسدة فيه. وعلى سبيل المثال- ولله المثل الأعلى- عندما نقول: «فلان عادل»، أي نحن نصفه بما يحقق للسامع أنه رجل يعرف العدل. ولكن عندما نقول: «فلان عدل» فكأنه هو العدل ذاته، وكذلك عندما نقول: «فلان صادق» فمعنى ذلك أنه صاحب ذات اتصفت بالصدق، ومن الممكن للذات أن تنفصل عن الصدق يومًا، ولكن حين نقول: «فلان صدق» فمعنى ذلك أن الصدق قد امتزج به فلا ينحل عنه أبدًا، أو أن الحق يريد أن يقول لنا: لكن صاحب البر هو من آمن بالله، أو يقول: «ولكن البر هو بر من آمن بالله»، أو أن الإخبار بالذات «من آمن» عن الصفة «البر» دليل على امتزاج الذات في الصفة امتزاجًا لا تتخلى عنه أبدًا فكأن البر قد تجسد فيهم.

وكل هذه الأقوال يتسع لها النص القرآني الكريم.

والحق يقول: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ ﴾ هذه بداية الإيمان، ويأتي بعد ذلك

بنهاية الإيمان وهو ضرورة الإيمان بـ «اليوم الآخر»، إن بداية القوس هي الإيمان بالله وطرفه الأخير الإيمان باليوم الآخر.

وهنا نتساءل: وكيف يأتي الإيمان باليوم الآخر؟

نقول: يأتي الإيمان باليوم الآخر بأن تؤمن بالله ثم تؤمن بما يخبرك به الله، فلا تقل: أنا جعلتهما في صف واحد، بل الإيمان بالله أولاً، وبعد ذلك الإيمان بما أخبرني به الله، وقد أخبر سبحانه: أن هناك يومًا آخر، فصدقت ما أخبر به. وتأتي مسألة الإيمان بالملائكة فيقول الحق: «والملائكة» فكيف نؤمن بخلق من خلق الله لا نراه؟

إننا ما دمنا قد آمنا بالقمة، وهي الإيمان بالله، والله أخبرنا بأن هناك ملائكة، وحتى لو كان وجود الملائكة غيبيًا فنحن نؤمن بها ؛ لأن الذي أخبر بها هو الله، وكذلك نؤمن بالجن برغم أننا لا نراه، وكل ما يتعلق بالغيبيات هو إخبار ممن آمنت به؛ لذلك تؤمن بها.

والمسائل الإيمانية كلها غيبية، ولا تقول في الأمر الحسي: «إنني آمنت به»، إنما تقول: «آمنت» في الأمر الغيبي؛ لأنه أمر غيبي لا تأنس به الحواس والإدراكات، وتريد أن تجعله عقيدة، والعقيدة هي أمر يُعقد فلا ينحل أبدًا، ولأنه أمر غيبي فربما ينفلت منا؛ لأنه لو كان أمرًا مشهديًا لما غفل عنه الإنسان أبدًا؛ لأن مشهديته ستجعلك تتذكره، إنما هو أمر غيبي، ويسمى عقيدة، أي أمرًا معقودًا لا يُحل أبدًا.

والقمة العقدية هي أن تؤمن بالله، ثم تؤمن بما يخبرك به الله من غيبيات لا دليل لك عليها إلا أن الله قال بها، فإن رأيت في متعلقات الإيمان أمورًا محسة فاعلم أن الجهة في الإيمان منفكة؛ لأنه سيأتي ذكر الملائكة واليوم الآخر وكلاهما غيب، وبعد ذلك سيذكر الكتاب والنبيين، وهما محسوسان.

صحيح أن الكتاب أمر محس والنبيين كذلك، لكننا لم نحس أن الله أنزل الكتاب، وأن الله بعث النبيين. ونحن لم نكن على قيد الحياة وقت نزول الكتاب ولا وقت بعث النبي، وجاء إيماننا لأننا صدقنا أن الله أنزل وحيًا على محمد ﷺ، هذا الوحي نزل بالكتاب، وأن الله اختار محمداً ﷺ ليكون مبلغًا لهذا الوحي، وكل هذه أمور غيبية لم نرها.

والغيبيات هي أرضية الحركة الإيمانية؛ أو أساس الإيمان.

وبعد ذلك تنتقل الآية من الحديث عن الأمر العقدي، لتبين لنا أن البر مكون من أمور عقدية هي أساس لأمور حركية، والأمور الحركية هي المقصودة من كل تدين، فالحق سبحانه لا يعنيه أن يؤمن به أحد، ولا يعنيه أن تؤمن بملائكته، وكتبه ورسله، لكن الأمر الذي يريده الله هو أن تنظم حركة الحياة في الأرض بمنهج الله، ولذلك ينتقل الحديث إلى الأمر المادي فيقول: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ كأن الإنسان قد ملك المال وبعد ذلك «آتاه». وعندما تقول: «آتيت» فهي تعني أعطيت، وهي تختلف عن «أتيت» التي تعني «جئت».

وما هو المال؟ إن المال هو كل ما يتمول إلا أننا نصرفه إلى شيء يمكن أن يأتي بكل متمول وأسميناه بالنقد. وأصبحت له الغلبة؛ لأننا نشتري بالنقد كل شيء، لكن المعنى الأصلي للمال هو كل ما يتمول، وكيف يجيء المالك لك أو لي أو لأي إنسان؟ أخرج أحد منا من بطن أمه وهو يملك شيئًا؟ لا.

إن ما يملكه الإنسان يأتي إما من متحرك في الحياة قبلك إن كان والدك أو جدك، وإما من حركتك أنت.

إذن لا يقال: «أتى المال» إلا إذا ثبتت له حركة ذاتية يصير بها متمولاً، أو ورث عن متمول، والمتمول هو الذي يتحرك في الحياة حركة قد تكون لنفسه، وإن اتسعت حركته فستكون لأبنائه، وإن اتسعت أكثر فستكون لأحفاده.

والحق يقول: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ وكلمة الحب مصدر، والمصدر أحيانًا يضاف إلى فاعله، وأحيانًا يضاف إلى المفعول الواقع عليه، مثلاً كلمة «ضرب» نحن نقول: ضرب زيد عُمر، وهكذا نجد ضاربًا هو «زيد» ومضروبًا هو «عمر». وإذا قيل: «أعجبني ضرب زيد» إن قلت: «لعمر» عرفنا الضارب والمضروب، وإن سكت عند قولك: «أعجبني ضرب زيد» فهي تحتمل معنيين، الضرب الصادر من زيد، أو الضرب الواقع على زيد. فساعة تأتي بالمصدر ويضاف إلى شيء فيصح أن يضاف إلى فاعله وأن يضاف إلى مفعوله.

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ يمكن أن نفهمها على أكثر من معنى: يمكننا أن نفهمها على أنه يعطى المال وهو يحب المال، ويحتمل أن نفهمها على أنه يؤتى المال لأنه يحب أن يعطي مما يحبه من المال عملاً بقول الله تعالى ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.. وهي تحتمل المعنيين. ويمكن أن تُصعد المعني فيصير «وآتى المال على حب الإيتاء أي الإعطاء» أي يُحب الإعطاء وترتاح نفسه للإعطاء، ومن الممكن تصعيدها تصعيدًا آخر يشمل كل ما سبق فيصبح المعنى: وآتى المال على حب الله الذي شرع له ذلك، وكل هذه المعاني محتملة.

والحق يقول:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

ويقول سبحانه أيضًا:

﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وتعطينا كل هذه الآيات وضوح الفرق بين الملكية، وبين حب المملوك، فمن الممكن أن تكون لديك أشياء كثيرة أنت مالكها، ولكن ليس كل ما تملكه تحبه، فعندما تؤتي المال فمن المحتمل أن تكون قد نزعته من ملكيتك وأنت لا تحبه،

وبذلك أخرجته من ملكيتك فقط، وإما أن تكون محبًا للشيء الذي تعطيه لغيرك، وبذلك تكون قد أخرجته من ملكيتك، ومن حبك له.

وإما أن يكون المال الذي في يدك مجرد أداة لك ولغيرك وليس له مكانة في قلبك، ولذلك يقول الشاعر:

لا أبالي توفير مالي لدهري منفقًا فيه في رخاء وبأس

إن يكن في يدي وليس بقلبي فهو ملكي وليس يملك نفسي

إن قوله الحق: ﴿**آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ**﴾ تعطينا إما منزلة إخراجه من الملك وإما منزلة إخراجه من القلب الذي يحبه. ولذلك يعيب الحق على جماعة من الناس يريدون العمل على طاعة الله، لكنهم لا ينفقون لله إلا ما يكرهون. ويقول الله في حقهم ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ**﴾ [النحل: ٦٢].

ولكن لمن يكون ذلك المال الذي ينطبق عليه القول: ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ**﴾؟

إنه لـ «ذوي القربى» ألا ترون إنسانًا له حركة في الحياة قد اتسعت لنفسه، ثم نرى قرباه الذي لا يقدرون على الحركة محتاجين، كيف تكون حالة نفسيته إذن؟ لا بد أن تكون نفسية متعبة؛ لأن المفروض في الإنسان المؤمن أن يجعل كل الناس قرباه، ونذكر في هذا المقام قصة معاوية عندما كان أميرًا للمسلمين، ودخل عليه الحاجب وهو يقول: يا أمير المؤمنين رجل بالباب يدعى أنه «أخوك»، فقال معاوية: أبلغ بك الأمر ألا تعرف إخوتي؟ أدخله.

فلما دخل الرجل قال له معاوية: أي إخوتي أنت؟

قال: أخوك من آدم.

فماذا قال معاوية؟

قال: رحمٌ مقطوعة، والله لأكونن أول من وصلها. وأكرمه.

فإذا كان الإنسـان لا يستطيع أن يصل قرباه من الناس كافـة، ألا يستطيع أن يصل خاصة أقاربه؟. كيف يستطيـب المؤمن- إذن- نعيم الحياة وهو يجد أقاربه محـتاجين، حتى لو نظرنا بعـيدًا عن الدين والإنسـانية، ألا تستـحق المسألة أن يجود الإنسان بما عنده على أهله؟

وفي دائرة الإيمان حين يجـعل الله حـركة الحياة في الـتكافل دوائر، فهـو سبـحانه يريد أن يوزع خيـر المجتمع علـى المجتمع؛ لأنه سـبحانه حـينما أراد استبقاء النوع شرع لنا طهر الالتـقاء بين الرجل والمرأة بعقد علني وشهود، لماذا؟ لأن الثمرة من الزواج هي الأبناء التي ستأتي بقطاع جديد من البشر في الكون، وهذا القطاع لا بد أن يـكون مـحسـوبًا علـى الرجل أمـام الناس، وإن لم يرع الرجل في أبنائه حق الله يلمه الناس على ذلك لأنهم أبناؤه.

ولذلك عندما نرى شـخصًا يخفي زواجه، كـأن يتزوج زواجًا عـرفـيًا مثلاً نقول له: أنت تريد أن تأتي بثمـرة منك ثم تنكرها، فيأتي أبناء غير مـحسوبين عليك. ولذلك فلنكن عـلى ثقة من أن كل مـشرد في الأرض نراه هو نـتيـجة لخطيئة إمـا معلنة، وإما لا يقدر على إعلانها رجل لم يتـحمل مسئوليـة علاقته بالمرأة، ولا يهـمل رجل ولدًا منسوبًا له إلا إذا تشكك في نسـبه إليـه، وهذا ما يجعله ينكر نسبه.

إذن فعملية الطهر التي أرادها الله سبـحانه وتعالى في الالتقاءات بين الرجل والمرأة، إنما أرادها سبـحانه لأنه يشرع لبناء أجـيال جديدة، ينشـأ منها مجـتمع المسـتقـبل، وقـبل أن يوجـد هؤلاء الأبناء لا بد أن يكون لهم رصـيد وأسـاس يتحملهم، فجعل الله لنا الأولاد والأحفاد، ويوصي الله الأبناء على الوالدين قبل ذلك، ثم تتسع الدائرة للقرابة القريبة.

وهات واحدًا واصنع له هذه الدائرة، وهات آخر واصنع له الدائـرة نفسها، وثالثًا واصنع له دائرته، واصنع إحصاء للقادرين وحدد دوائرهم العائلية، ستجد

كل إنسان في الكون يدخل في دائرة من هذه الدوائر، فإن رأيت عوجًا فاعلم أن مركز الدائرة قد تخلى عن محيط الدائرة.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾، تأمل- إذن- الحث على البر تجد أن أول ما جاء فيه هو إيتاء ذوي القربى؛ لأن لهم مكانة خاصة؛ وعندما يؤتي كل منا قرباه ويحملهم على فائض ماله وفائض حركته فلن يوجد محتاج، وإذا وُجد المحتاج فسيكون نزرًا يسيرًا، وتتسع له الزكاة الواجبة.

أو كما قال بعض العلماء: المقصود بذوي القربى هم قربى رسول الله ﷺ يقولون ذلك ؛ لأن في القرآن آية تقول:

﴿لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣].

ولماذا قربى رسول الله؟

لأنهم ليس لهم حق في الزكاة ؛ حتى يبرأ المبلغ عن الله من أي نفع يعود عليه، أو يعود على آله، لذلك منع الله عنهم أي حق في الزكاة. وكأن الله يريد أن يقول لنا: لا يصح أن تجعلوا الناس الذين رفعهم الله وكرمهم عن أخذ الزكاة التي يأخذها أي فقير منكم ممنوعين من أخذ كل شيء، فلا بد أن تتخذوهم أقارب لكم بحيث لا تجعلونهم محتاجين.

وعلى فرض أن الآية تريد قربانًا نقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، فقرباه وآله أولى من قربانا وأهلنا.

وبعد ذلك جاء الله بقوله: «واليتامى»، ونعرف أن اليتيم هو من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال. واليتيم في الإنسان غير اليتيم في الحيوان؛ فاليتيم في الحيوان هو من فقد أمه، ولكن اليتيم في الإنسان هو من فقد أباه. واليتيم لا يكون له وصي إلا إذا كان عنده شيء من مال، عندئذ يكون هناك وصي لإدارة

أمور اليتيم. ولذلك جاء الحق بالأمر بإعطاء المال على حبه لليتامى، ولم يقل: «لذوي اليتامى». فربما كان هناك يتيم ضائع لا يتقدم أحد للوصاية عليه، وليس عنده ما يستحق الوصاية؛ لذلك فعلينا أن نؤتى اليتيم من مال الله حتى ندخل في صفات البر، أو نعطي للوصي على اليتيم لينفق عليه إن كان له وصي.

وكذلك نؤتى المال للمساكين، والمسكين مأخوذة من السكون، وهو الإنسان الذي لا قدرة له على الحركة، كأن استخذاءه وذله في الحياة منعاه من الحركة.

واختلف الفقهاء حول من هو الفقير، ومن هو المسكين، قال بعضهم: إن الفقير هو من لا يملك شيئًا، والمسكين يملك ما لا يكفيه، أي يملك شيئًا دون ما يحتاجه، وقال البعض الآخر: إن الفقير هو الذي يملك ما هو دون حاجته، والمسكين من لا يملك.

وعلى كل حال فقد شاءت حكمة الله عز وجل أن يجعل للفقير نصيبًا من البر وللمسكين أيضًا نصيبًا كالآخر، والخلاف بين العلماء لا يؤدي إلى منع أحدهما من المال، لأن كُلاً منهما المسكين والفقير- يستحق من مال الله. وعلى ذلك فالخلاف لا طائل من ورائه.

وكذلك نؤتى المال لابن السبيل، والسبيل هو الطريق، وابن السبيل هو ابن الطريق، وعادة ما يُنسب الإنسان إلى مكانه أو إلى بلده، فإذا قيل ابن السبيل، فذلك يعني أنه ليس له مكان يأوى إليه إلا الطريق، فهو رجل منقطع، وقد يكون ابن سبيل ذا مال في مكانه، إلا أن الطريق قطعه عن ماله وباعد بينه وبين ما يملك، أو يكون ذا مال وسرق منه ماله، فهو منقطع.

ولماذا جعل الله نصيبًا من البر لابن السبيل؟ لقد جعل الله نصيبًا من المال

لابن السبيل حتى يفهم المؤمن أن تكافله الإيماني متعدٍ إلى بيئة وجوده، فحين يوجد في مكان وينتقل إلى مكان آخر يكون في بيئة إيمانية متكافلة.

ونؤتى المال أيضًا للسائلين أي الذين يضعون أنفسهم موضع السؤال، أعط من يسألك ولو كان على فرس؛ لأنك لا تعرف لماذا يسأل، إن بعضًا من الناس يبررون الشح فيقولون: إن كثيرًا من السائلين هم قوم محترفون للسؤال، ونقول لهم: ما دام قد سأل انتهت المسألة، وعمدتنا في ذلك قوله ﷺ:

«أعطوا السائل وإن جاء على ظهر فرس»(١).

وما دام قد عرض نفسه للسؤال فأعطه ولا تتردد.

قد تظن أنه يحمل حقيبة ممتلئة بالخبز، أو يخفى المال بعيدًا. وأقول: قد يكون عنده خبز لكنه لا يكفي أولاده، وتقد يخفي المال الذي لا يكفيه، ولن تخسر شيئًا من إعطائه، فلإن تخطئ في العطاء، خير من أن تصيب في المنع.

ونؤتى المال أيضًا لمن هم «في الرقاب» وكلمة «رقبة» تطلق في الأصل اللغوي على أصل العنق، وليس على العنق نفسه. وتطلق كلمة الرقبة على الذات كلها، أي الإنسان في حد ذاته، لماذا؟ لأن حياة الإنسان يمكن أن تملكها من الرقبة، فتستطيع أن تمسك إنسانًا من رقبته وتتحكم فيه وتضغط عليه ضغطًا تمنع تنفسه إلى أن يموت، لذلك تطلق الرقبة ويراد بها الشخص ذاته، وفي ذلك يقول القرآن:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٢، ١٣].

أي فك الأسير، إذن «في الرقاب» تعني فك أسر العبد، ويمكن لصاحب البر أن يشتري العبيد ويعتقهم، أو يسهم في فك رقابهم فذلك لون من ألوان تصفية الرق، وفي تصفية الرق هناك شيء اسمه التدبير، وشيء اسمه المكاتبة.

---

(١) **حديث ضعيف**: رواه ابن عدي في «الكامل». ولو صح لكان المقصود بالسائل هنا: المجهول الحال والله أعلم.

هب أن عبداً يخدمك وبعد ذلك ترى أنه أخلص في خدمتك، فثمنًا لإخلاصه في خدمتك مدة طويلة قررت أن تُدبره بعد موتك، أي تعطيه حريته فيصبح حرًّا بعد موتك، فكأنك علقت عبوديته على مدى حياتك، وبعد انتهاء حياتك يصبح مدبراً أي حرًّا، ولا يدخل في تركتك، ولا يُورث.

وقد تكاتبه على مال فتقول له: يا عبد أنا أكاتبك على مائة جنيه، وأطلق حركتك لتتصرف أنت وتضرب في الحياة وتكسب وتأتي لي بالمائة جنيه، ثم أطلق سراحك، وفي هذه الحالة فإن على أهل البر أن يعاونوا هذا المكاتب ليؤدي مال الكتابة حتى يفك رقبته من الأسر.

ومن البر أيضًا إقامة الصلاة، كأن المعنى: «ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة» ونعرف أن معنى إقامة الصلاة هي أداء الصلاة في أوقاتها على الوجه المطلوب شرعًا.

ومن البر أن نؤتى الزكاة، فكأن كل ما سبق ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ لا علاقة لها بالزكاة، إن كل ذلك هو بر آخر غير المطلوب للزكاة، لأن الزكاة لو كانت تدخل فيما سبق لما كان الله كررها في الآية.

هذه أوجه البر التي ذكرتها الآية من إيتاء ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وكل ذلك لمن أراد أن يدخل في مقام الإحسان، فمقام الإحسان كما نعرف هو أن تلزم نفسك بشيء لم يفرضه الله عليك، إنما تحس أنت بفرح الله بك ورضاه عنك فيقبله الله منك.

ولذلك عندما سُئل رسول الله ﷺ: هل في المال حق غير الزكاة؟ ذكر هذه الآية:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

إذن فتلك أوجه البر المطلوبة، والزكاة أيضًا مطلوبة. ففي مصرف الزكاة لا يوجد ذوو القربى ولا اليتامى. صحيح أن في مصارف الزكاة إعطاء المساكين وابن السبيل، لكن في البر هناك أشياء غير موجودة في الزكاة، فكأنك إن أردت أن تفتح لنفسك باب البر مع الله، فوسع دائرة الإنفاق، وستجد أن البر قد أخذ حيزًا كبيرًا من الإنفاق، لأن المنفق مستخلف عن الله. فالله هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود، وما دام هو المستدعي إلى الوجود فهو سبحانه مكلف بإطعامه، وأنت إذا أنفقت على المحتاج الذي استدعاه الله للوجود فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أن يلزمك به الله، ولذلك يقول الله عز وجل:

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

إذا كان هو سبحانه الذي أعطى المال، فكيف يقول: أقرضني؟ نعم، لأنه سبحانه لا يرجع فيما وهبه لك من نعمة المال، إن المال الذي لك هو هبة من الله، ولكن إن احتاجه أخ مسلم فهو لا يقول لك «أعطه من عندك أو اقرضه من عندك»، إنما يقول لك: «أقرضني أنا، لأني أنا الذي أوجدته في الكون ورزقه مطلوب مني»، فكأنك حين تعطيه تقرض الله، وهذا معنى قوله: «من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا». إنه سبحانه وتعالى متفضل بالنعمة ثم يسألك أن تقرضه هو.

ولنضرب على ذلك مثلاً من أمر الدنيا- وسبحانه وتعالى منزه عن كل مثل وله المثل الأعلى- هب أنك محتاج وفي ضائقة مالية، وعندك أولاد ولهم مبالغ مدخرة مما كنت تعطيهم من مال فتقول لهم أقرضوني ما معكم من مال؛ وسأرده لكم عندما تمر الضائقة، كأنك لم ترجع في هبتك وما أعطيته لهم من مال، إنما اقترضته منهم، كذلك يفعل الله سبحانه وتعالى.

وكذلك لنا عبرة وعظة من السيدة فاطمة رضي الله عنها عندما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فرآها ممسكة بدرهم، والدرهم يعلوه الصدأ وأخذت تجلوه، فسألها أبوها: ما تصنعين يا فاطمة؟ قالت: أجلو درهمًا. قال: لماذا؟ قالت: لأني نويت أن أتصدق به، قال: وما دمت تتصدقين به فلماذا تجلينه؟ قالت: لأني أعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد المحتاج.

ومن البر أيضًا أن يفي الإنسان بالعهد، فالحق يقول: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ﴾. وما معنى العهد؟ إن هناك عهدًا، وهناك عقد. والعهد يوجد من طرفين تعاهدا على كذا، لكن قد يستطيع أحدهما العطاء ولا يستطيع الآخر الرد والعقد يوجد بين طرفين أيضًا، أحدهما يعطي ويأخذ، والآخر يعطي ويأخذ.

ومن البر أن تكون من ﴿الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء﴾. ولنا أن نلحظ أن الحق جاء بـ «الموفون بعهدهم» مرفوعة لأنها معطوفة على خبر لكن البر، فلماذا جاء «بالصابرين» منصوبة؟ فماذا يعني كسر الإعراب؟ إن الأذن العربية اعتادت على النطق السليم الفصيح فإذا كان الكلام من بليغ نقول: لم يكسر الإعراب هنا إلا لينبهني إلى أن شيئًا يجب أن يُفهم، لأن الذي يتكلم بليغ وما دام بليغًا وقال قبلها:

«والموفون» ثم قال: «والصابرين» فلا بد أن يكون هناك سبب، ما هو السبب؟

إن كل ما سبق مطية الوصول إليه هو الصبر، إيتاء المال على حبه ذوي القربى و . . و . . ولذلك أراد الله أن ينبه إلى مزية الصبر فكسر عنده الإعراب، وكسر الإعراب يقتضي أن نأتي له بفعل يناسبه فجاء قوله تعالى: «والصابرين» وكأن معناها: وأخص الصابرين، وأمدح الصابرين.

إذن كسر الإعراب هنا غرضه تنبيه الآذان إلى أن شيئًا جديدًا استحق أن يُخالف عنده الإعراب. لأن الصبر هو مطية كل هذه الأفعال، فالذي يقدر في الصبر على نفسه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة. وإيتاء المال على حبه هو الذي فاز وظفر، إذن كل ذلك امتحان للصبر. ومن هنا خص الله «الصابرين» بإعراب مخالف حتى نفهم أنه منصوب على المدح، أو على الاختصاص.

ولماذا خص الله الصابرين بالمدح؟

لأن التكليفات كلها تعطي مشقات على النفس، ولا يستطيع تحمل هذه المشقات إلا من يقدر على الصبر. وما دام قد قدر على الصبر فكل ذلك يهون. ومن هنا خص الله الصبر بهذه الميزة.

والمهم أن الآية جاءت بالصابرين بعد «والموفون» حتى تكون النقلة ملحوظة ومتيقنة، بأن الإعراب فيما سبق «والصابرين» تقديري معطوف أي هو معطوف على خبر «ولكن البر من آمن بالله». فجاءت «والموفون» مرفوعة لنفهم أنها معطوفة على خبر «ولكن»، ثم جاء ما بعدها «والصابرين» منصوبة، حتى نلحظ الفرق بين المعنيين، ولو جاءت مرفوعة مثل ما قبلها فربما مرت علينا ولم نلحظها، ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ البأساء هو البؤس والفقر، وهذا في الأحوال، نقول: فلان حالة بائس. «والضراء» هي الألم والوجع والمرض، وهي تصيب البدن والجسد. «وحين البأس» أي حين الحرب عندما يلتقي المقاتل بالعدو ويصبر ويصمد ليقاتل.

إذن صفة الصبر تناولت ثلاثة أمور: في البأساء، أي في الفقر، وفي المرض، وفي الحرب مع العدو، صابر في كل هذه الأمور.

ولذلك جاء في الحديث الشريف:

«ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها»(١).

ويقول الحق عن الذين دخلوا إلى رحاب البر: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فـ ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾.

ماذا تعني صدقوا؟ الصدق هو مطابقة النسبة الكلامية للواقع الفعلي. وأولئك صدقوا في إعلان إيمانهم، وواقع حركتهم في الحياة، وصدق قولهم: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

إذن فصدق إيمانك متوقف على أن تكون حركة حياتك مناسبة لمقتضيات إيمانك فإن آمنت وأسلمت وجاءت حركة حياتك مناقضة لإعلان إسلامك، نقول: أنت غير صادق، ولكن إذا وُجدت صفات الإيمان في إنسان نقول له: لقد صدقت في إيمانك، لأن حركة حياتك انسجمت مع واقعك الإيماني. وما أكثر الذين يقولون ولا يفعلون، وهم منسوبون إلى الإسلام بالكلام.

وما نتيجة صدق المؤمنين؟ يجيبنا الحق بوصفهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. وساعة تسمع كلمة «متقون» أو «اتقوا». فذلك يعني أنهم جعلوا وقاية بينهم وبين شيء، ولا يُطلب منك أن تجعل وقاية بينك وبين شيء إلا إن كنت لا تتحمل هذا الشيء ومثل ذلك قوله تعالى:

---

(١) رواه البخاري.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

أي اجعلوا بينكم وبين النار حاجزاً. وقلنا: إن من العجب أن كلمة «اتقوا» تأتي إلى الشيء الذي هو «اتقوا النار» وتأتي إلى «اتقوا الله»، كيف يكون التقوى في متناقضين؟

نعم: لأن معنى اتقوا النار، أي اجعلوا بينكم وبينها وقاية، وهل النار فاعلة بذاتها أم بتسليط الله لها على العاصي؟ إنها فاعلة بتسليط الله لها على العاصي. إذن اتقوا الله معناها اتقوا متعلق صفات الجلال من الله، لأن لله صفات جمال وصفات جلال فاجعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية، لأنكم لا تتحملون غضب الله، ولا قهر الله، ولا بطش الله، فاجعلوا بينكم وبين صفات جلالة وقاية، ومن آثار صفات جلاله النار. فالمسألة متساوية ولا تناقض فيها.

(٣) وهو من أولي الألباب الذين وصفهم الله - تعالى - بقوله:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾(١).

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله تعالى- في خواطره الإيمانية حول هذه الآيات- ما مختصره:

سبحانه يريد أن يبني التصور الإيماني على جذور ثابتة في النفس البشرية؛ لأن الإنسان الذي يفاجأ بهذا الكون، وفيه سماء بهذا الشكل: بلا عمد، وتحتها الكواكب، وأرض مستقرة، بالله ألا يفكر فيمن صنع هذا؟ والله لو أن واحداً استيقظ من نومه ووجد سرادقًا قد نصب في الميدان ليلاً لوقف ليسأل: ما الحكاية؟ فما بالنا بواحد فتح عينيه فوجد هذا الكون المنتظم الذي يعطيه أسباب الحياة؟

ولذلك يجيء في سورة أخرى ليشرح هذه القضية شرحًا يجلي لنا قضية الإيمان بالفكر الإنساني، فلا ننتظر الواعظ فقط الذي يأتينا بالرسالة والنبوة ليدل على المنهج المراد لمن خلق، بل يحتم علينا أن نتنبه بالفطرة إلى من خلق، لأننا قلنا من قبل: لو أن إنسانًا وقعت به طائرة في صحراء، ولم يجد فيها ماء ولا شجراً ولا أناسًا ولأنه مجهد غلبه النوم، فاستيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام، بالله قبل أن يمد يده لينتفع بها، ألا يجول فكره فيمن صنع هذه؟ إن دهشته من الحدث تجعله يفكر فيمن جاء بها قبلما يذوق الطعام، رغم أنه جوعان، فكذلك الناس الذين فتحوا عيونهم فوجدوا هذا الكون العجيب، وبعد ذلك لم يدع أحد منهم أنه خلقه، ولو كان أحد قد ادعى أنه خلقه .. لكان المسألة تسهل، لكن أحداً لم يدع صنعه. هذا الكون الذي نراه جميعًا بانتظامه الرائع، وقوانينه الثابتة . هل قال أحد: إنني صنعته؟ لا، إذن فالذي قال: إنني صنعته تسلم له الدعوة، حتى يأتي واحد آخر يقول: أنا الذي صنعته. لم

(١) [آل عمران: ١٩٠-١٩٥].

يحدث هذا قط برغم وجود الملاحدة المفترين على الله، ولذلك جاء قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [النمل: ٦٠].

كأن الحق يقول: إن لم أكن أنا الذي خلقت فمن الذي خلق إذن؟ ولم يجرؤ أحد على أن ينسب الكون لنفسه؛ لأن الكفار والملاحدة لا يستطيعون خلق شيء تافه من عدم. ومثال ذلك كوب الماء الذي تركه الله ولم يخلقه على الصورة التي هو عليها، كي يصنعوه ليفهموا أن كل شيء تم بخلقه- سبحانه- كوب الماء هذا شيء تافه أترف الحياة، وقبل أن تتم صناعة الكوب كنا نشرب ولم يكن هناك شجر يطرح ويثمر أكوابًا بل صنعه إنسان أراد أن يترف الحياة، فإذا كان هذا الشيء الصغير له صانع جال في نواحي علوم شتى وفي المادة، ثم نظر إلى الأرض حتى وجد المادة التي عندما تُصهر تعطي هذه الشفافية واللمعان، فجرب في عناصر الأرض فلم يجد إلا الرمل واكتشف هذه المادة ومزجها بمواد أخرى لصهرها وإذابتها واحتاجت صناعة الكوب إلى معامل وعلماء، كل هذا من أجل الكوب الصغير الذي قد تستغني عنه، انظر ما يحتاجه لصنعه؟ احتاج طاقات جالت في جميع مواد الأرض، وإمكانات صناعية وأناسًا يضعون معادلات كيماوية، فما بالنا بالأشياء الأصلية وكم تحتاج؟

إن كل صنعة تحتاج على قدرها، ولم يقل أحد: إنني صنعتها، فيقول الحق: من الذي صنع كل هذا؟ وساعة يطرح سؤالاً فهو لا يريد أن يجعل القضية إخبارية منه، وهو القادر أن يقول: أنا الذي خلق السماء والأرض؟ فماذا يفعل المسئول؟ إنه يتخبط في إجابته ثم في النهاية لا يجد إلا الله.

وكأن السائل لا يطرح هذا السؤال إلا إذا وثق أن الإجابة لا تكون إلا على وفق ما يريد ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ﴾ وجاء هنا بالحاجة المباشرة.. ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي

إنها تسر النظر بما فيهـا من خضرة، ونضارة، وطراوة، وظل، وأزهار، وثمار، ولم يختصـر الأمر فيقول: «لتأكلوا منـها» لأن الذي يأكل هو الذي يملك فقط، لكن جمال المنظر لا يحجزه أحـد عن كل من يرى، ويستمتع بما يراه. وكل منا عندما يرى بستـانًا جميلاً يسره منظره، صـحيح أنك لا تمد يدك لتأكل منه لأنه ليس ملكك، لكن هل يمـنعك أحد أن تمتع به نظرك. وأن تمـتع أنفك برائحتـه الجميلة؟ لا.

وهكذا جـاء الحق بالنعمـة الشائعـة لمن يملك ولمن لا يملك فـقال: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين يمتن بالأشياء يوضح لك: إياك أن تفهم أن الغرض من هذه المسألة أن تأكلها لتملأ بها بطنك فقط؛ لأن هناك أشياء جميلة لا ننتفع بها أكـلاً، فهناك ألوان من الشجر ليس له ثمرة لكن لا بد أن له عملاً؛ فـورقه الجميل قد يفـيد في الظل وما يشيعـه من رائحة تعطر الجو، وبه خشب نحتاج إليه، وبجانب هذا نجد أشجاراً لها ثمار جميلة ننتفع بها.

ولذلك يقول الحق:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وسبحانه يستفهم من الإنسان ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

بسطحية راح أحد المستشرقين يردد: أينعى الله على الخلق ويعيب عليهم أن يعدلوا؟ ذلك أنه لمَ يفهم المعنى الصحيح، فالعدل هنا بمعنى العدول عن الحق أو الميل عنه، ويقول:

﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٦١].

إنه سبحانه الذي خلق الأرض ومن خلالها الأنهار وجعل فيها الجبال الرواسي، ويوضح الحق سبب وجود الجبال الرواسي في موقع آخر من القرآن الكريم:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت: ٩، ١٠].

فلماذا باركت يا الله؟ بارك الله في الجبار وقدر فيها أقواتها، فالقوت هو ما يُنتفع به في استبقاء الحياة. ونعرف أن القوت يؤخذ من الزرع، والزرع ينمو دائمًا في الأرض الخصبة، وخصوبة الأرض تكون في الوديان، والوادي هو المكان الذي يكون بين جبلين. ولماذا يكون الوادي خصبًا بين جبلين؟ لأن المطر حين ينزل من السماء، إنما ينزل على الجبال، والجبال كما نعرف معرضة لعوامل التعرية، فالحرارة تأتي بعد البرودة، والحرارة تجعل الأرض تمتد والبرودة تقبض المادة، وما بين القبض والبسط يحدث للجبار التشقق السطحي. وعندما ينزل المطر فهو يجرف هذه التشققات، فتنزل من قمة الجبل بقوة الدفع لتصير جسيمات ناعمة، ونسميها نحن الغرين أو الطمي، كالذي كان يأتي لنا من الحبشة، والذي أحدث خصوبة وادي النيل.

إذن فالجبال هي مخازن الأقوات . ومن فضل الله أن جعل الجبال صلبة، فلو أنها كانت هشة من أول الأمر، لكان سيل واحد من المطر كفيلاً بإزالتها كلها، ولجعل الأرض سطحًا واحدًا، ولا انتفع البشر بنصف متر من الخصوبة. وبعد ذلك يأتي الجدب. ونعلم أن الحق جعل مع التكاثر الإنساني تكاثرًا لأسباب القوت، فكيف يكثر الحق سبحانه من القوت؟

نحن نرى أن للجبال قمة ولها قاعدة، وبين كل جبل وجبل يوجد الوادي، ونعرف أن ضيق الوادي يكون في أدناه، واتساع الوادي في أعلاه، والجبل عكس الوادي. فضيق الجبل يكون في القمة واتساعه في القاعدة أي إن قمة الجبل أقل اتساعًا من قاعدته. وعندما ينزل الغرين بوساطة المطر من الجبل فهو ينزل إلى الوادي، فيرفع من مستوى سطح الوادي، وتتسع مساحة الوادي. وكلما نزل المطر على الجبال اتسعت مساحة الوديان التي بين الجبال؛ لأن المطر يحمل معه أجزاء من الجبال وهو ما يسمى بالغرين. وعندما يشاء الحق سبحانه إيذان النهاية، تتفتت كل الجبال ويقول للساعة: «قومي الآن».

وهو يقول: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وفي موقع آخر يقول الحق:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠].

الماء له استطراق فسلكه الله ينابيع في الأرض، فالإنسان يحفر في مكان من الأرض فيجد الماء عذبًا، وفي موقع آخر يدق الإنسان الأرض ويحفرها ليجد الماء ولكنه مالح. لماذا إذن لم يتسرب الماء المالح إلى الماء العذب وكلاهما تحت الأرض؟ إذن لا بد أن للماء المالح مسارب تختلف عن مسارب الماء العذب ولا يطغى أحد على الآخر.

لماذا؟ لأننا نجد أن الماء العذب يأتي من أعلى. ونجد دائمًا منابع الأنهار عالية وتصب في البحر. والحق لم يجعل منسوب الماء المالح أعلى من منسوب الماء العذب حتى لا يطغى الماء المالح على الماء العذب، لأنه سبحانه يريد أن يرتوي الناس من الظمأ بالماء، ويريد للزرع أن ينمو، وأن يتجه الفائض من الماء العذب إلى مخزن الماء سواء في بطن الأرض أو في البحار، وتأتي من بعد ذلك عملية

التبخير فيتصاعد الماء بخاراً ليصير سحابًا، ثم يمطر من بعد ذلك ماءً عذبًا. والقدر الذي خلقه الله من الماء أزلاً، هو، لا يزيد ولا ينقص.

فالإنسان إذا كان قد شرب أطنانًا من الماء طوال حياته، فهل ظلت تلك الأطنان في جسد الإنسان أو أن تلك الأطنان قد خرجت في فضلات الإنسان؟ إن الإنسان لا يختزن إلا الموجود فيه الآن من الماء. والجسم الإنساني به حوالي تسعين بالمائة من مكوناته من الماء، وبعد ذلك يموت الإنسان فيتخبر منه الماء وتنزل بقية العناصر للأرض. إذن فكمية المياه واحدة، ولكنها تخضع لدورة أرادها الله.

وبعد ذلك يقول الحق:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

ومعنى المضطر هو الإنسان الذي استنفد أسباب بشريته ولم يدرك ما يحفظ به حياته ولذلك يقول الحق:

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢].

وكذلك يقول الحق في موضع آخر بالقرآن الكريم:

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾ [الإسراء: ٦٧].

ذلك أنه عندما يصاب الإنسان بحادث جسيم، فهو لا يكذب على نفسه، حتى الكافر بالله عندما يجد أن كل الأسباب المادية التي أمامه لا تنفعه فهو يلجأ ويعترف بأن هناك إلهًا واحدًا خالقًا. فيقول: يا رب.

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٢-٦٤].

كل هذه الآيات تؤكد قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

إنها ظواهر كونية. واختلاف الليل والنهار يعني أن هناك شيئًا يناقض شيئًا آخر أو يأتي بعد شيء آخر. إذن فاختلاف الليل والنهار له معنيان: فمجئ الليل بعد النهار يعني اختلافهما أي كل منهما خليفة للآخر. والزمن يمثل ذلك.

واختلاف آخر يتمثل في أن النهار منير، والليل مظلم، والنهار محل حركة، والليل محل سكون. لاختلاف الليل والنهار ليس آية فقط ولكنه آيات لكثيرين.

وكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا: أن الفرد أعجز من أن يستنبط كل ما في الآيات، ولكن على كل واحد منكم أنتم البشر أن يستنبط آية، وكل إنسان يستنبط آية ينتفع بها هو وغيره من الناس وهكذا.

إنها آيات يتوزع استنباطها على الخلق الذين يملكون البصيرة والأخذ بأسباب الله ليشيع الحق الاستنباط من أسرار الله لكل خلق الله المؤمنين إلى أن تقوم الساعة، وليبين لنا أصحاب العقول الحقيقية التي لا تنشغل بالنعمة عن المنعم بالنعمة؛ لأن لله إمدادًا حين خلق من عدم، وإمدادًا حين أمد من عُدم، وإمدادًا آخر حينما يلقي على نعمته شيئًا من البركة، فالذي أخذ نعمة الله التي سبقت

وجوده، وبعد ذلك غفل عن الحق سبحانه وتعالى فإن النعمة تعطيه، لكنها لا تكون مصحوبة بالبركة.

ومعنى البركة أن يكون الشيء الحاصل والمستنبط من حركتك لا يأتي منه لك ولا للناس إلا الخير. فقد يعطيك الله بالأسباب والمسببات: لكن الله لا يعطيك البركة إذا أخذت النعمة وتركت المنعم. فلو إنك عند كل شيء ذكرت الله لأخذت النعمة والبركة. فحين ترى لك شيئًا تحبه عليك أن تقول: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله».

إنه ليس من شغلك ولا من عملك، ولكنها مشيئة الله وقوته سبحانه.

ولذلك يقولون: إنك إذا رأيت أي نعمة لك في مال أو ولد أو خُلق أو هندام تقول حين تراها: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله» فأنت لا ترى فيها سوءاً أبدًا؛ لأنك رددتها إلى من خلقها، فضمنت صيانة الله لها بذلك الرد، والذي يحرسها هو الكلمة الواضحة «ما شاء الله لا قوة إلا بالله».

ولذلك نرى في قوله تبارك وتعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٢-٣٦].

فماذا قال له صاحبه؟

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلا إِذْ

دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٣٧ـ ٤٠].

فكان يجب ألا يغتر الإنسان بوجود النعمة وأن يعزوها وينسبها ويردها إلى المنعم وهذا يوضح لنا معنى قول الحق:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

فقد تعطيكم الأسباب مسبباتها، ولكن لا زيادة عن المسببات بالتفضل منه سبحانه بالبركة، بل ربما كانت فجيعة لصاحبها، فتعطيه الأسباب ثم ينزع العطاء فتكون حسرة عليك.

إذن فمن هم أولو الألباب؟

تكون إجابة الحق:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

إنهم يقولون:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ لأنك حق، وخلقت السموات والأرض بالحق، ووضعت لها نواميسها وقوانينها بالحق، فيجب أن نستقبل النعمة التي خلقتها لنا بالحق، فإن استقبلها بعض الناس بغير الحق، فإنها تكون وبالاً عليهم. ويقال: إن المؤمن الصادق في بني إسرائيل قبل رسالة عيسى عليه السلام كان إذا عبد الله بإخلاص ثلاثين سنة فإن غمامة تظله حيث سار. فكانوا عندما يرون واحداً من هؤلاء يسير تظلله غمامة، فهم يعرفون أنه عبد الله بإخلاص ثلاثين عامًا.

وعبد واحد منهم الله ثلاثين سنة ولم ير السحابة تظلله، فشكا ذلك لأمه

فقالت له: لعل شيئًا فرط منك. فقال لها: يا أماه لا أذكر. فقالت له: لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تفكر. فقال لها: لعل ذلك حدث. فقالت: الذي يأتيك من ذاك وهذه القصة تذكرنا بضرورة التفكير في الله دائمًا.

ويروى عن سيدنا الإمام علي- ﷺ وكرم الله وجهه- أنه قال: كان رسول الله - ﷺ ، إذا استيقظ في الليل، استاك، ثم نظر إلى السماء.

إذن فالنظر إلى السماء هو النظر إلى العلو. والنظر إلى الأرض أيضًا هو تأمل في حكمة الخالق. لكن النظرة إلى السماء تجعل الإنسان يفطن إلى علو الخالق. ولذلك فالعربي الذي استلقى على ظهره نائمًا، واستيقظ ففطن إلى لون السماء الأزرق البديع، والنجوم تتلألأ فيها فقال: أشهد أن لك ربًا وخالقًا، اللهم اغفر لي. لقد عرف الرجل متى يدعو الله وكيف يدعو، لذلك غفر الله له.

وفيما روت كتب السيرة عن رسول الله ﷺ أنه جاء ليلة ونام، وكانت ليلة عائشة رضوان الله عليها، قالت عائشة لعبد الله بن عمر رضوان الله عليه: فنام بجواري حتى مس جلدي جلده، ثم قال: «**يا عائشة هل تأذنين لي الليلة في عبادة ربي**»؟[1] .

لقد استأذن منها رسول الله في حقها لأن الليلة ليلتها. وأضافت عائشة: يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك، وقد أذنتُ لك.

لقد احتاطت الاحتياط الجميل، فهي تحب الرسول، وتقول: «وأنا أحب قربك» وهذا القول له معنى جميل، وحدث أن قال بعض المتنطعين على دين الله: إن رسول الله كان كبير السن بفارق كبير بينه وبين عائشة، وقولها ذلك إنما عن زهد فيه.

لكنها عائشة ردت على ذلك من قبل أن يقال. فقالت: يا رسول الله أنا

---

(١) رواه الترمذي.

أحب قربك وأحب هواك وقد أذنت لك. وهـذا درس يعطيه لنا رسول الله ﷺ حتـى نتعلم كـيف نعامل أهلنا، حـتى ولو كـان الأمر الذي يشـغلنا عنهم هو العـبادة، وهو لا يريد أن ينشـغل المؤمن عن رعاية أهله بعـد أداء ما عليـه من فروض، حتى ولو كان عبادة إلا بعد استئذان الأهل.

لماذا؟ لأن الله طلب من الزوجة فـي العبادة غـير المفروضـة ألا تتطوع حتى تستأذن زوجـها. فالزوجة إن صلت تطوعًا، أو صامت تطوعًـا لا بد أن تستأذن زوجها، فـإن أذن لها، فبها، وإن لم يأذن فليـس لها أن تقوم بهذه العبـادة غير المفروضة.

يقول رسول الله ﷺ: «**خيركم .. خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**»(١).

لأن الزوج حين يقرب زوجـته فهو يريد أن يعـفها عن التطلعات البـشرية؛ لذلك فعندما تريد الزوجة أن تأخـذ وقتها وخصوصًا إن كان لهـا ضرائر، فهذا الوقت حق لها. فإن أراده الزوج للعبادة غير المفـروضة فعليه أن يستأذنها. وقد تكون الحالة النفسيـة للمرأة في عدم وجود ضرائر أكثر قدرة على قـبول استئذان الزوج لها ليتـفرغ للعبادة. ولذلك فأنت ترى من أهل الفـتوى الإيضاح الناجح لمثل هذا الأمر.

لقـد ذهبت امرأة تشكو زوجـهـا لعمـر بن الخطاب ﷺ وكان مـضمـون الشكوى أن زوجها لا يقربهـا، وكان مع عمر صحابي جليل. فـقال له عمر بن الخطاب: افتـها. فقال الـصحابي للزوج: يا هذا سنفـرض أنك تزوجت أربعًا، فلزوجتك إذن ليلة بعد كل ثلاث ليال. وإذا كان الرسول ﷺ قد استأذن عائشة في عبـادة ربه، فهذا معناه درس للأزواج أن يحـسنوا معاملة الأهل إحـسانًا لا يجعل للمرأة تطلعًا.

---

(١) رواه ابن ماجه وغيره، وهو حديث صحيح.

لكننا نجـد أناسًا لا يستـأذنون أهلهم لا في العبـادة، ولا حتى في سـهرات المعصيـة. وهذا ما يفسد البيـوت والأسر. إن ما يفسـد البيوت أن يكون الزوج مشـغولاً عن الزوجة، ويذهب إلى أصـحابه في المقـهي أو في مكان آخر. ولا يهتم بأفراد أسرته.

لماذا لا يذهب إلى منزله ليؤانس أهله؟ وليـشبع رغبتهـم ويجلس مع زوجته وأهله وأولاده وبذلك تطمـئن الزوجة أن رجلهـا معـها وليس في مكـان آخر، وذلك حتى تستقر الأمور إن رسول الله ﷺ يستأذن عائشة رضي الله عنها فتأذن له. قالت عائشة رضوان الله عليها:

«فقام إلى قربة فتوضأ ثم قـام فبكي ثم قرأ فبكى، ثم أثني على الله وحمده فبكي، حتى ابتلت الأرض، ثم جاء بلال، فقال: يا رسول الله صلاة الغداة.

فرآه يبكي. فقال: يا رسول الله أتبكي وقـد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فـقال رسول الله: «**أفلا أكـون عبداً شكوراً.. يا بـلال لقد نزل على الليلة**»:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ *

لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ * وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٩٠-٢٠٠].

وأضاف رسول الله ﷺ: «**فويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها، وويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها**»(١).

هذا ما جاء عن سيدنا رسول الله في أواخر سورة آل عمران، تلك الأواخر التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

إن في تلك الآيات المنهج والاستدلال، واصطحاب الحق سبحانه وتعالى وذكره على كل حال من القيام والقعود وعلى الجنب. إن الحق يقول: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

ها نحن أولاء نرى أن مطلوب أولي الألباب هو أن يذكروا الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم. وقال بعض العلماء في تفسير قول الحق: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ﴾ إن المقصود بذلك هو الصلاة، فمن لا يستطيع الصلاة قائمًا يصلي قاعدًا.. ومن لا يستطيع الصلاة قاعدًا فليُصل مضطجعًا.

---

(١) رواه البخاري.

ونقول لهؤلاء العلماء: لقد خصصتم هذا المعنى حيث المقام للتعميم، لماذا؟ لأن القرآن لا يتعارض مع بعضه، بل يفسر بعضه بعضًا، والحق يقول عند صلاة الخوف:

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٠٢].

وحتى لا يظن المؤمن أن الفروض الخمسة هي التي يذكر فيها الله فقط قال سبحانه:

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣].

أي إنه حصلت الصلاة أولاً، وحصلت الصلاة ثانيًا، كأن ذكر الله أمر متصل واجب في الصلاة، وفي غيرها، وبعدها يتفكر المؤمنون في خلق السموات والأرض ويعترفون أنه سبحانه لم يخلق هذا باطلاً. ويكون المطلوب أن يقولوا: ﴿ سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

لماذا؟ لأن كل هذا الذكر لا يوفي حق ربنا علينا.. لذلك قالوا:

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾.

إنها العظمة، فهم لا يذكرون عذاب من يدخل النار، ولكنهم يذكرون خزي الله لمن دخل النار. وكأن الخزي مرتبة أشر من عذاب النار، فمن الذي أعطانا

كل هذا الفضل، إنه- سبحانه- أعطانا توفيقًا لذكره، وتوفيقًا لنتفكر في خلق السموات والأرض، فهل يصح أن نقابله بكفران النعمة؟ وما الذي يحدث لهؤلاء الذين يدخلون النار؟

إنه الخزي والعياذ بالله، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي وليس لهم أنصار يمنعون عنهم عذاب النار.

ومن بعد ذلك يقول الحق:

﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾.

فكأن الإنسان بقلبه وفكره قبل أن يجيء له الرسول يجب أن يتنبه إلى ما في الكون من آيات، وعليه أن يستشرف أن وراء الكون قوة، ولكن هذه القوة مبهمة في ذهنه. ما هي؟ إنه يرى الكون العجيب فيقول لنفسه: من المستحيل أن يكون هذا الكون بلا خالق. إن وراءه قوة لها حكمة ولها قدرة. هذا قصارى ما يصل إليه العقل ولكن أيستطيع العقل أن يدرك أن القوة اسمها الله؟ أيستطيع العقل أن يدرك ماذا تطلب القوة منه؟

لا إذن لا بد من رسول يبلغ عن تلك القوة. ولذلك قلنا: إن تلك هي الزلة التي وقع فيها الفلاسفة؛ لأن الفلاسفة هم الذين بحثوا وراء المادة. ونحن نعلم أن العلم ينقسم إلى قسمين، قسم مادي قائم على التجربة، وقسم ميتافيزيقي يبحث فيما وراء المادة. وهذا العلم متاهة الفلاسفة. وهو المضلة التي لم تلتق فيها مدرسة بمدرسة، ولا تلميذ في مدرسة مع تلميذ آخر في مدرسة.

لماذا لم يلتقوا؟ لأنهم يبحثون وراء المادة . وما وراء المادة غيب. والغيب لا يدخل المعمل. لكن المادة تدخل المعمل. والمعمل عندما يعطي نتائج تحليلات لا

يجامل في هذه النتائج. فالذي يدخل التجربة العلمية في المعمل بنزاهة فالمعمل يعطيه. والذي يدخل بغير نزاهة لا تعطيه المعامل شيئًا.

ولذلك نقول دائمًا: إننا لا نجد في العلوم المادية فارقًا بين علم شيوعي روسي، وعلم أمريكي رأسمالي، فلا توجد كيمياء رأسمالية أو كيمياء شيوعية ولا توجد كهرباء روسية وأخرى أمريكية. إنها كيمياء واحدة، وكهرباء واحدة لأنها ابنة المعمل وبنت التجربة المادية.

ومن العجيب الذي لا يفطن له الخلق المغرورون من هؤلاء أننا نجد العلم المادي ابن التجربة والمعمل والمادة الصماء التي لا تجامل يحاول كل معسكر أن يسرقه من غيره، ونجد الجواسيس يسافرون من معسكر إلى معسكر ليسرقوا تصميمات الطائرات والصواريخ. وأن بعضهم يتلصص على بعض حتى يعرفوا العلم المادي.

لكن ماذا عن علم الأهواء والنظريات؟ إننا نجد أن كل طرف يقيم جدارًا حتى لا يخترق علم الأهواء المجتمع.

هم يقيمون الحواجز في الأهواء ولكن في العلم المادي يتحولون إلى لصوص فلماذا لا يأخذون الأهواء مع العلم المادي؟ إن كل معسكر حريص على العداء مع مذاهب الغير في الحكم والاجتماع والاقتصاد. لكنهم في العلم المادي يسرق بعضهم بعضًا؛ لأن المذاهب النظرية تتبع الأهواء، لكن العلم المادي- كما قلنا- يتبع الحقيقة المعملية التي لا تجامل.

إذن فساعة يفكر الإنسان بعقله لا بد أن يقول: إن وراء خلق الكون قوة خارقة. وقد عرفها العربي بفطرته فقال: البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير، أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير؟!!

إنه دليل فطري، يدلك على وجود القوة، لكن ما اسم هذه القوة؟ لا نعرف

إذن فالأذن تستشرف إلى من يدلها علـى اسم هذه القوة. فإذا جاء واحد وقال: أنا مُرسل من ناحيـة هذه القوة، وأن اسمها الله، كان من المفـروض أن تتهافت الناس عليه؛ لأنه سيحل لها اللغز الذي يشغلهم، لذلك فالمؤمنون يقولون:

﴿ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

كأن ذهن كل واحد فيـهم كان مشغولاً بضرورة التـعرف على الخالق. وبعد ذلك يقولون:

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

فأول حاجة فكروا فيها هي درء المفسـدة؛ لأن أفاضل الناس يتهمون أنفسهم بالتقصير دائمًا؛ لذلك قالوا: ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾.

وعندما ننظر إلى مـعطيات القرآن نجد أن «الذنب» شيء، و «السيئة» شيء آخر. فالذنب يحـتاج إلى غفران، والسيئـة تحتاج إلى تكفير، على سـبيل المثال «كفارة اليمين» تكون واجبة إذا ما أقسم المؤمن يمينًا وحنث فيه، وهذا التكفير هو المقابل للحنث في اليمين، أمـا الأشياء التي تتعلق بالمعصيـة بين العبد وربه فهي الذنب، والسيئة هي الأمر الذي يخـالف منهج الله مع عباد الله. فـحين تفعل المعصيـة في أمر بينك وبين الله فأنت لم تسئ إلى الله، فمـن أنت أيها الإنسان من منزلة الله؟ لكنك بالمعصيـة تذنب، والذنب تأتي بعده العقوبة. أما مـخالفة منهج الله مع عباد الله فهي سيئة؛ لأنك بها تكون قد أسأت.

لذلك فالمؤمنون قالوا: ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾

ومن الذي هداهم إلى معرفة أن هناك فرقًا بين الذنب والسيئة؛ وأن الذنب يحتاج إلى غفران، وأن السيئة تحتاج إلى تكفير؟ إنه الرسول ﷺ حامل الرسالة من الله.

والعباد المؤمنون يقولون: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ أي اختم لنا سبحانك هذا الختام مع الأبرار. ومن بعد ذلك يأتي قوله تعالى حكاية عنهم:

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

أي ربنا أعطنا ما وعدتنا على لسان رسلك، ولتسمع قول الحق استجابة لهم:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.

ولنر اللفتة الجميلة في الاستجابة: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ لقد كانوا يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض. ويخشون خزي الدخول إلى النار. ودعوا الله بغفران الذنوب وتكفير السيئات. ودعوا الله أن يأتيهم ويعطيهم ما وعدهم به على ألسنة الرسل.

لم يقل الحق سبحانه: استجبت لكم، لكنه جعل الاستجابة هي قبول العمل فقال:

﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ فليست الحكاية كلامًا يقال، إنما يريد الله أن تدخل هذه المسائل في حيز التطبيق والنزوع العملي؛ فالمسألة ليست بالتمني فقط، فقد وضع سبحانه الشرط الواضح وهو العمل، فمن يريد استجابة الحق فلا بد له من العمل. إن التفكر في بديع صنع الله لا

يغني عن العمل؛ لأن الحق سبحانه يريد التفكر فيه وأنت تعمل في أسبابه. فأسباب الحق لا تشغلك عنه.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فالذين هاجروا من بلادهم ومن أهلهم ومن أوطانهم ومن أحبابهم، دون إكراه فهجرتهم هذه هي نزع وجودي، وانتقال من مكان إلى مكان جديد وكان ذلك في سبيل الله أي، فالذين هاجروا وخرجوا بجزء من إرادتهم، وكذلك الذين أخرجوا من ديارهم، وقاتلوا في سبيل الله وتحملوا الإيذاء وقُتلوا - هؤلاء - ينالون التكفير عن السيئات ويدخلون الجنة.

لقد جاء الحق هنا بالعملية التي تتضح فيها الأسوة الإيمانية؛ لأن الإنسان ينشغل بماله وأهله ووطنه وباستبقاء الحياة، فإذا ما ضحى الإنسان بهذا كله في سبيل الثبات على كلمة الله أولاً، وإعلاء كلمة الله ونشرها ثانيًا. فالمؤمن من هؤلاء لم يكتف بنفسه بل جاهد في سبيل الله لتنتقل الحياة بحلاوتها إلى غيره، وبذلك يكون قد أحب لغيره ما أحبه لنفسه.

نخرج من كل هذا برؤية واضحة هي أن الفكر وحده لا يكفي وإذا قال واحد: إن إيماني حسن فلا تأخذني بالمسائل الشكلية، نرد عليه قائلين: إن الله ليس في حاجة إلى ذلك، ولكنه يطلب منك أن تعمر الكون بحركتك، وأبرك الحركات وأفضلها أن ترسخ منهج الله في الأرض؛ لأنك إن رسخت منهج الله في الأرض، أدمت للوجود جماله. اهـ.

وفي سورة «الرعد» وصف الله تعالى أولي الألباب بقوله عز وجل:

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾(١).

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله- في تفسيره لهذه الآيات:

والمؤمن هو من يعلم أن القرآن الحامل للمنهج هو الذي أنزله سبحانه على رسوله؛ ولا يمكن مقارنته بالكافر وهو الموصوف هنا من الحق سبحانه:

﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩].

وجاء هنا بـ «علم» و«عمى» ؛ لأن الآيات الدالة على القدرة من المرئيات.

ويقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

أي: أصحاب العقول القادرة على التدبر والتفكر والتمييز.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك عن أولي الألباب:

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾.

والواحد من أولي الألباب ساعة آمن بالله؛ فهو يعلم أنه قد تعاهد مع الله عهداً بألا يعبد غيره؛ وألا يخضع لغيره؛ وألا يتقرب لغيره؛ وألا ينظر أو ينتظر من غيره؛ وهذا هو العهد الأول الإيماني.

(١) [الرعد: ١٩-٢٤].

ويتفرع من هذا العهد العقدي الأول كل عهد يُقطع سواءً بالنسبة لله، أو بالنسبة لخلق الله؛ لأن الناشئ من عهد الله مثله مثل عهد الله؛ فإذا كنت قد آمنت بالله؛ فأنت تؤمن بالمنهج الذي أنزله على رسوله؛ وإذا أوفيت بالمنهج؛ تكون قد أوفيت بالعهد الأول.

ولذلك نجد كل التكليفات المهمة البارزة القوية في حياة المؤمنين نجد الحق سبحانه يأتي بها في صيغة البناء؛ فيما يسمى «البناء للمجهول»؛ مثل قوله:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ.. ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقوله:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى.. ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقوله:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ.. ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكل التكليفات تأتي مسبوقة بكلمة «كُتب» والذي كتب هو الله؛ وسبحانه لم يكلف إلا من آمن به؛ فساعة إعلان إيمانك بالله؛ هي ساعة تعاقدك مع الله على أن تُنفذ ما يُكلفك به.

وأنت حُر في أن تؤمن أو لا تؤمن؛ لكنك لحظة إيمانك بالله تدخل إلى الالتزام بما يُكلفك به، وتكون قد دخلت في كتابة التعاقد الإيماني بينك وبين الله.

ولذلك قال الحق سبحانه «كُتب» ولم يقل: «كتبت»؛ لأن العهد بينك وبين الله يقتضي أن تدخل أنت شريكًا فيه، وهو سبحانه لم يُكلف إلا من آمن به.

وسبحانه هنا يقول:

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ [الرعد: ٢٠].

أي: إن العهد الإيماني مُوثق بما أخذته على نفسك من التزام.

ويواصل سبحانه وصف هؤلاء بقوله:

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾.

وأول ما أمر به الله أن يوصل هو صلة الرحم؛ أي: أن تصل ما يربطك بهم نسب. والمؤمن الحق إذا سلسل الأنساب؛ فسيدخل كل المؤمنين في صلة الرحم؛ لأن كل المؤمنين رحم متداخل؛ فإذا كان لك عشرة من المؤمنين تصلهم بحكم الرحم؛ وكل مؤمن يصل عشرة مثلك، انظر إلى تداخل الدوائر وانتظامها؛ ستجد أن كل المؤمنين يدخلون فيها.

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في الحديث القدسي:

«أنا الرحمن؛ خلقت الرحم، واشتققت لها اسمًا من اسمي؛ فمن وصلها وصلته؛ ومن قطعها قطعته»(١).

وقد أمرنا سبحانه أن نصل الأهل أولاً؛ ثم الأقارب؛ ثم الدوائر الأبعد فالأبعد؛ ثم الجار، وكل ذلك لأنه سبحانه يريد الالتحام بين الخلق؛ ليستطرق النافع لغير النافع، والقادر لغير القادر، فهناك جارك وقريبك الفقير إن وصلته وصلك الله.

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ ومن خلاله يأمر كل مؤمن برسالته:

﴿ قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى .. ﴾ [الشورى: ٢٣].

وقال بعض من سمعوا هذه الآية: قرباك أنت في قرباك وقال البعض الآخر: لا، القربى تكون في الرسول ﷺ لأن القرآن قال في محمد ﷺ:

---

(١) **حديث صحيح**: أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ١٩١-١٩٤) وغيره.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ..﴾ [الأحزاب: ٦].

وهكذا تكون قرابة الرسول أولى لكل مؤمن من قرابته الخاصة.

يستمر قول الحق سبحانه في وصف أُولي الألباب:

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

والخشية تكون من الذي يمكن أن يُصيب بمكروه؛ ولذلك جعل الحق هنا الخشية منه سبحانه؛ أي: إنهم يخافون الله مالكهم وخالقهم ومربيهم؛ خوف إجلال وتعظيم.

وجعل سبحانه المخاف من سوء العذاب؛ وأنت تقول: خفت زيداً، وتقول: خفت المرض، ففيه شيء تخافه؛ وشيء يوقع عليك ما تخافه.

وأولو الألباب يخافون سوء حساب الحق سبحانه لهم؛ فيدفعهم هذا الخوف على أن يصلوا ما أمر به سبحانه أن يوصل، وأن يبتعدوا عن أي شيء يغضبه.

ونحن نعلم أن سوء الحساب يكون بالمناقشة واستيفاء العبد لكل حقوقه؛ فسبحانه منزه عن ظلم أحد، ولكن من يناقش الحساب فهو من يلقي العذاب[1]؛ ونعوذ بالله من ذلك، فلا أحد بقادر على أن يتحمل عذاب الحق له.

ويواصل الحق سبحانه وصف أولى الألباب فيقول:

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حوسب يوم القيام عذب» فقال عبد الله بن أبي مليكة: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨] فقال: «ليس ذاك الحساب، إنما ذاك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٧٦) قال النووي في شرحه: «معناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصى عليه ولم يسامح هلك ودخل النار ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء».

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ .

ونجد هذه الآية معطوفة على ما سبقها من صفات أولى الألباب الذين يتذكرون ويعرفون مواطن الحق بعقولهم اهتداء بالدليل ؛ الذين يوفون بالعهد الإيمان بمجرد إيمانهم بالله في كليات العقيدة الوحدانية، ومقتضيات التشريع الذي تأتي به تلك العقيدة.

ولذلك جعلها سبحانه صفقة أوضحها في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا .. ﴾ [التوبة: ١١١].

وهي صفقة إيجاب وقبول، والعهد إيجاب وقبول؛ وهو ميثاق مؤكد بالأدلة الفطرية أولاً، والأدلة العقلية ثانيًا.

وهم في هذه الآية من صبروا ابتغاء وجه ربهم، والصبر هو تحمل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتخرجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها، وكل ما يخرج النفس الإنسانية عن صياغة الانسجام في النفس يحتاج صبراً.

والصبر يحتاج صابرًا هو الإنسان المؤمن، ويحتاج مصبوراً عليه؛ والمصبور عليه في الأحداث قد يكون في ذات النفس؛ كأن يصبر الإنسان على مشقة التكليف الذي يقول «افعل» و«لا تفعل».

فالتكليف يأمرك بترك ما تحب، وأن تنفذ بعض ما يصعب عليك، وأن تمتثل بالابتعاد عما ينهاك عنه، وكل هذا يقتضي مجاهدة من النفس، والصبر الذاتي على مشاق التكليف.

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصلاة مثلاً:

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥].

وهذا صبر الذات على الذات، ولكن هناك صبر آخر؛ صبر منك على شيء يقع من غيرك؛ ويخرجك هذا الشيء عن استقامة نفسك وسعادتها.

وهو ينقسم إلى قسمين: قسم تجد فيه غريمًا لك؛ وقسم لا تجد فيه غريمًا لك.

فالمرض الذي يخرج الإنسان عن حيز الاستقامة الصحية ويسبب لك الألم؛ ليس لك فيه غريم؛ لكنك تجد الغريم حين يعتدي عليك إنسان بالضرب مثلاً؛ ويكون هذا الذي يعتد عليك هو الغريم لك.

وكل صبر له طاقة إيمانية تحتمله ؛ فالذي يقدر على شيء ليس له فيه غريم؛ يكون صبره معقولاً بعض الشيء؛ لأنه لا يوجد له غريم يهيج مشاعره.

أما صبر الإنسان على ألم أوقعه به من يراه أمامه؛ فهذا يحتاج إلى قوة ضبط كبيرة؛ كي لا يهيج الإنسان ويفكر في الانتقام.

ولذلك تجد الحق يفصل بين الأمرين؛ يفصل بين شيء أصابك ولا تجد لك غريمًا فيه، وشيء أصابك ولك من مثلك غريم فيه.

ويقول سبحانه عن الصبر الذي ليس لك غريم فيه:

﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

ويقول عن الصبر الذي لك فيه غريم، ويحتاج إلى كظم الغيظ، وضبط الغضب:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

وحينما يريد الحق سبحانه منك أن تصبر؛ فهو لا يطلب ذلك منك وحدك؛ ولكن يطلب من المقابلين لك جميعًا أن يصبروا على إيذائك لهم؛ فكأنه طلب منك أن تصبر على الإيذاء الواقع من الغير عليك؛ وأنت فرد واحد.

وطلب من الغير أيضًا أن يصبر على إيذائك، وهذا هو قمة التأمين الاجتماعي لحياة النفس الإنسانية، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تصبر على من آذاك ؛ فقد طلب من الناس جميعًا أن يصبروا على آذاك لهم.

فإذا بدرت منك بادرة من الأغيار؛ وتخطئ في حق إنسان آخر وتؤلمه؛ فإن لك رصيداً من صبر الآخرين عليك؛ لأن الحق سبحانه طلب من المقابل لك أن يصبر عليك و أن يعفو.

وإذ كان لك غريم؛ فالصبر يحتاج منك إلى ثلاث مراحل: أن تصبر صبراً أوليًا بأن تكظم في نفسك؛ ولكن الغيظ يبقى، وإن منعت الحركة النزوعية من التعبير عن هذا الغيظ؛ فلم تضرب ولم تسب؛ ويسمى ذلك:

﴿الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ..﴾ [آل عمران: ١٣٤].

والكظم مأخوذ من عملية ربط القربة التي نحمل فيها الماء؛ فإن لم نحكم ربطها انسكب منها الماء؛ ويقال «كظم القربة» أي: أحكم ربطها.

ثم يأتي الحق سبحانه بالمرحلة الثانية بعد كظم الغيظ فيقول:

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ..﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وهنا تظهر المسألة الأرقى، وهي إخراج الغيظ من الصدر؛ ثم التسامي في مرتبة الصديقين؛ فلا ينظر إلى من كظم غيظه عنه أولاً؛ بل يعفو عنه، ولا ينظر له بعداء، بل بنظرة إيمانية.

والنظرة الإيمانية هي أن من آذاك إنما يعتدي على حق الله فيك؛ وبذلك جعل الله في صفك وجانبك؛ وهكذا تجد أن من ظلمك وأساء إليك قد جعلك في معية الله وحمايته؛ وعليك أن تحسن له.

والصبر له دوافع؛ فهناك من يصبر كي يقال عنه: إنه يملك الجلد والصبر؛

وليبين أنـه فوق الأحداث؛ وهذا صبر ليس ابتـغاء لوجه الله؛ بل صبر كيلا يشمت فيه أعداؤه.

وصبر لأنـه قد توصل بعقله أن جزعـه لن ينفعه، ولو كان حـصيفًا لـصبر لوجه الله، لأن الصبر لوجه الله يخفف من قدر الله.

ومن يصبـر لوجه الله إنما يعلم أن لله حكمة أعلى من الموضوع الـذي صبر عليه؛ ولو خير بين ما كان يجب أن يقع وبين ما وقع ؛ لاختار الذي وقع.

والذي يصبر لوجـه الله إنما ينظر الحكمة في مورد القضـاء الذي وقع عليه، ويقول: أحمـدك ربي على كل قضائك وجميل قـدرك؛ حمد الرضي بحكمك لليقين بحكمتك.

فمن يصبـر على الفاقة؛ ويقول لنفـسه: «اصبري إلى أن يفـرجها الله» ولا يسأل أحدًا ؛ سيجد الفرج قد أتى له من الله.

والذي يلتفت إلى الحـدث وحده يتعـب؛ والذي يلتفت إلى الحدث مـقرونًا بواقعـه من ربه؛ ويقول: «لا بد أن هنـاك حكمة من الله وراء ذلك» فـهو الذي يصبر ابتغاء وجه الله. ويريد الله أن يخص من يصبـر ابتغاء وجهه بمنزلة عالية؛ لأنه يعلم أن الله له حكمة فيما يجريه من أقدار.

ويتابع سبحانه وصف أولى الألباب:

﴿وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً..﴾ [الرعد: ٢٢].

وسبق أن قلنا في الصلاة أقوالاً كثيـرة؛ وأن من يؤديها على مطلوبها؛ فهو من يعلم أنها جلوة بين العبد وربه، ويكون العبد في ضيافة ربه.

وحيث تعرض الصنعة على صانعـها خمس مرات في اليوم؛ فلا بد أن تنال الصنعة رعـاية وعناية من صممهـا وخلقها، وكمـا أن الله غيب عنك؛ فكذلك أسباب شفائك من الكروب يكون غيبًا عنك.

وقد علمنا رسول الله ﷺ ذلك «فكان إذا حزبه أمر[١] قام إلى الصلاة»[٢].

ومن عظمة الإيمان أن الله هو الذي يدعوك إلى الصلاة؛ وهو سبحانه لا يمنع عنك القرب في أي وقت تشاء؛ وأنت الذي تحدد متى تقف بين يديه في أي وقت بعد أن تلبي دعوته بالفروض؛ لتؤدي ما تحب من النوافل؛ ولا ينهي سبحانه المقابلة معك كما يفعل عظماء الدنيا؛ بل تنهي أنت اللقاء وقت أن تريد.

ولقد تأدب رسول الله ﷺ بأدب ربه؛ وتخلق بالخلق السامي؛ فكان إذا وضع أحد يده في يد الرسول ﷺ فهو لا ينزع يده من يد من يسلم عليه؛ إلا أن يكون هو النازع[٣].

وقول الحق سبحانه:

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ..﴾ [الرعد: ٢٢].

يعني: إنك لا يجب أن تنظر إلى ما يؤخذ منك، ولكن انظر إلى أنك إن وصلت إلى أن تحتاج من الغير سيؤخذ لك، وهذا هو التأمين الفعال، ومن يخاف أن يترك عيالاً دون قدرة، ولو كان هذا الإنسان يحيا في مجتمع إيمان لوجد قول الحق مطبقًا:

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

وبذلك لا يشعر اليتيم باليتم؛ ولا يخاف أحد على عياله، ولا يسخط أحد

---

(١) حزبه أمر: أصابه.

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود (١٣١٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٣٩٨)، وأحمد في «المسند» (٣/ ١٧٤/ ٢١٦).

على قدر الله فيه. وسبحانه يضع الميزان الاقتصادي حين يطلب منا الإنفاق، والإنفاق يكون من مال زائد؛ أو مال بلغ النصاب، ولذلك فعليك أن تتحرك حركة نافعة للحياة، ويستفيد منها الغير، كي يكون لك ما تنفق منه، وعلى حركتك أن تسعك وتسع غيرك.

وهنا من ينفق مما رزقه الله بأن يأخذ لنفسه ما يكفيها، وينفق الباقي لوجه الله؛ لأنه يضمن أن له إلهًا قادرًا على أن يرزقه، والمضمون عند الله أكثر مما في يده.

وها هو رسول الله ﷺ يسأل أبا بكر فيما ناله من غنائم ويقول له: «**ماذا صنعت بها يا أبا بكر؟**» فيقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه - تصدقت بها كلها. فيقول الرسول: «**وماذا أبقيت؟**» يقول أبو بكر: أبقيت الله ورسوله[1].

وسأل رسول الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**وماذا فعلت يا عمر؟**» فيقول ابن الخطاب: تصدقت بنصفها ولله عندي نصفها، وكأنه يقول للرسول: «إن كان هناك مصرف تريدني أن أصرف فيه النصف الباقي لله عندي؛ فلسوف أفعل».

وهكذا رأينا من يصرف مما رزقه الله؛ بكل ما رزقه سبحانه، وهو أبو بكر الصديق؛ ونجد من ينفق مما رزقه الله ومستعد لأن ينفق الباقي إن رأى رسول الله مصرفًا يتطلب الإنفاق.

وهنا نجد الحق سبحانه يصف هؤلاء المنفقين في سبيله:

﴿وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً..﴾ [الرعد: ٢٢].

والسر هو الصدقة المندوبة، أما الإنفاق في العلانية؛ فهي الصدقة الواضحة؛ لأن الناس قد تراك غنيًا أو يشاع عنك ذلك، ولا يرونك وأنت تخرج الزكاة،

(١) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما.

فتنالك ألسنتهم بالسوء؛ وحين يرونك وأنت تنفق وتتصدق؛ فهم يعرفون أنك تؤدي حق الله، وتشجعهم أنت بأن يُنفقوا مما رزقهم الله.

وصدقة السر وصدقة العلن أمرها متروك لتقدير الإنسان؛ فهناك من يعطي الصدقة للدولة لتتصرف فيها هي؛ ويعطي من بعد ذلك للفقراء سرًّا؛ وهذا إنفاق في العلن وفي السر؛ وجاء الحق بالسر والعلانية؛ لأنه لا يريد أن يحجب الخير عن أي أحد بأي سبب.

وقد يقول قائل: إن فلانًا يخرج الصدقة رياء.

وأقول لمن يتفوه بمثل هذا القول: ألم تستفيد الفقير من الصدقة؟ إنه يستفيد، ولا أحد يدخل في النوايا.

ويتابع سبحانه:

﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ..﴾ [الرعد: ٢٢].

والدرء: هو الدفع بشدة؛ أي: يدفعون بالحسنة السيئة بشدة، وأول حسنة إيمانية هي أن تؤمن بالله؛ وبذلك تدفع سيئة الشرك، أو دفعت السيئة. أي: دفعت الذنب الذي ارتكبته وذلك بالتوبة عنه؛ لأن التوبة حسنة، وحين ترى منكرًا، وهي سيئة، فأنت تدفعه بحسنة النصح.

أو: أن يكون معنى:

﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ..﴾ [الرعد: ٢٢].

هو إن فعلت سيئة فأنت تتبعها بحسنة، والكمال المطلق لله وحده ولرسوله؛ لنفترض أن واحدًا لديه سيئة ملحة في ناحية من النواحي؛ فالحق سبحانه يأمره أن يدفع السيئة بأن يفعل بجانبها حسنة.

يقول سبحانه:

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ..﴾ [هود: ١١٤].

وها هو رسول الله ﷺ يقول لمعاذ ﵁:

«اتق الله أينما تكون، وأتبع السيئة حسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[١].

ولذلك، فأنت تجد أغلب أعمال الخير في المجتمع لا تصدر من أي رجل رقيق لا يرتكب السيئات؛ فلا سيئة تطارده كي يفعل الحسنة التي يرجو أن تمحو السيئة.

فالسيئة ساعة تلهب ضمير من ارتكبها؛ ولا يستطيع أن يدفعها؛ لأنه ارتكبها؛ فهو يقول لنفسه «فلأبن مدرسة» أو «أبني مسجدًا» أو «أقيم مستشفى» أو «أتصدق على الفقراء».

وهكذا نجد أن أغلب حركات الإحسان قد تكون من أصحاب السيئات، فلا أحد بقادر على أن يأخذ شيئًا من وراء الله؛ فمن يرتكب سيئة لا بد أن تلح عليه بأحاسيس الذنب؛ لتجده مدفوعًا من بعد ذلك إلى فعل الحسنات؛ لعل الحسنات تُعوض السيئات.

ومن درء الحسنة بالسيئة أيضًا؛ أنه إذا أساء إليك إنسان فأنت تكظم غيظك وتعفو؛ وبذلك فأنت تحسن إليه.

وتجد الحق سبحانه يقول:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وإذا أنت جربتها في حياتك؛ وأخلصت المودة لمن دخل في العداوة معك؛ ستجد أنه يستجيب لتلك المودة ويصبح صديقًا حميمًا لك.

---

(١) حديث حسن: أخرجه أحمد (٥/٢٢٨، ٢٣٦)، وغيره.

ولكن هناك من يقول: جربت ذلك ولم تنفع تلك المسألة.

وأقول لمن يقول ذلك: لقد ظننت أنك قد دفعت بالتي هي أحسن، لكنك في واقع الحال كنت تتربص بما يحدث منك تجاه من دخلت معه في عداوة، ولم تخلص في الدفع بالتي هي أحسن، وأخذت تجرب اختبار قول الله؛ فذهبت منك طاقة الإخلاص فيما تفعل؛ وظل الآخر العدو على عداوته.

لكنك لو دفعت بالتي هي أحسن ستجد أن الآية القرآنية فيها كل الصدق؛ لأن الله لا يقول قضية قرآنية ثم تأتي ظاهرة كونية تكذب القرآن.

تحسن الدفع بالتي هي أحسن، حتى ترى أن العداوة التي كانت بينك وبين ما ذكره الحق سبحانه في قوله:

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

ويتابع الحق سبحانه:

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٢].

أي: إن المتقدمين أولي الألباب الذين اجتمعت لهم تلك الصفات التسعة؛ بداية من أنهم يوفون بعهد الله ؛ ولا ينقضون الميثاق؛ ويصلون ما أمر الله أن يوصل ويخشون ربهم؛ ويخافون سوء الحساب؛ وصبروا ابتغاء وجه ربهم؛ وأقاموا الصلاة؛ وأنفقوا مما رزقهم الله سرًا وعلانية؛ ويدرءون بالحسنة السيئة، هؤلاء هم الذين لهم عقبى الدار.

وعقبى مأخوذة من العقب؛ فالقدم له مقدم وله عقب، وعقب هو ما يعقب الشيء، ونقول في أفراحنا «والعاقبة عندكم في المسرات» أي: إننا نتمنى أن تتحقق لكم مسرة مثل التي عندنا، وتكون عقب المسرة التي فرحنا نحن بها.

وهكذا تكون العقبى هي الشيء الذي يعقب غيره، والذي يعقب الدار الدنيا هي الدار الآخرة.

ولذلك يقول الحق سبحانه في الآية التالية موضحًا العاقبة لهؤلاء:

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾.

إذن: فالدار الآخرة التي تعقب الدنيا بالنسبة لأولى الألباب هي جنات عدن. و«العدن» هو الإقامة الدائمة؛ وجنات عدن هي جنات الإقامة الدائمة، لأن الدنيا ليست دار إقامة.

وكل نعيم في الدنيا إما أن تفوته بالموت أو يفوتك بأغيار الحياة. أما جنات عدن فهي دار إقامة دائمة؛ بما أن «عدن» تعني مرافقة دائمة للجنات.

والجنات معناها كما نفهم هي البساتين التي فيها أشجار وفيها ثمار؛ وكل ما تشتهي الأنفس، مع ملاحظة أن هذه الجنات ليست هي المساكن؛ بل في تلك الجنات مسكن بدليل قول الحق سبحانه:

﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ.. ﴾ [التوبة: ٧٢].

فالجنات هي الحدائق؛ وفيها مساكن، ونحن في حياتنا الدنيا نجد الفيلات في وسط الحدائق، فما بالنا بما يعد به الله من طيب المساكن وسط الجنات؟

لا بد أن ينطبق عليه وصف الرسول ﷺ للجنة في الحديث القدسي عن رب العزة سبحانه:

«أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1].

وهكذا بين الله سبحانه عقبى الدار؛ فهي:

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ.. ﴾ [الرعد: ٢٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٤)، وغيره.

وآباء جمع «أب» أي: يدخلها مع أولي الألباب من كان صالحًا من الآباء متبعًا لمنهج الله.

وإن سأل سائل: وأين الأمهات؟

أقول: نحن ساعة نثني المتماثلين نغلب الذكر دائمًا، ولذلك فآباؤهم تعني الأب والأم، ألم يقل الحق سبحانه في سورة يوسف:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ..﴾ [يوسف: ١٠٠].

وهؤلاء هم الذين يدخلون الجنة من أولي الألباب الذين استوفوا الشروط التسعة التي تحدثنا عنها؛ فهل استوفى الآباء والأزواج والأبناء الشروط التسعة؟

ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى يعامل خلقه في الدنيا بمقتضى العواطف الموجودة في الذرية؛ فالواحد منا يحب أولاده وأزواجه وآباءه؛ وما دام يحبهم وقد صلحوا كل حسب طاقته؛ فالحق سبحانه يلحقهم به.

ولذلك تأتي آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وهنا يمسك القرآن القضية العقلية في الإلحاق بمعنى أن تُلحق ناقصًا بكامل، فلو كان مساويًا له في العمل ما سمى إلحاقًا، فكل إنسان يأخذ حقه؛ وقد اشترط الحق سبحانه شرطًا واحدًا في إلحاق الذرية بالآباء، أو إلحاق الآباء بالذرية في الجنة، وهو الإيمان فقط.

وأوضح لنا هنا أن الآباء قد تميزوا بعمل إيماني بدليل قوله تعالى:

﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ..﴾ [الطور: ٢١].

فلم يأخذ سبحانه عمل الأب الذي عمل؛ والابن الذي لم يعمل، ومزج

الاثنين، ليأخذ المتوسط، لا، وذلك كي لا يظلم من عمل من الآباء أو الأبناء.

ثم إن ذلك لو حدث؛ لما اعتبر تواجد الآباء مع الأبناء في الجنة إلحاقًا؛ لأن الإلحاق يقتضي أن يبقى حق كل من عمل؛ ثم يتكرم سبحانه من بعد ذلك بعملية الإلحاق؛ بشرط واحد هو أن يكون الشخص الملحق مؤمنًا.

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ..﴾ [الطور: ٢١].

أي: إن الذرية مؤمنة؛ والأزواج مؤمنون؛ والأهل مؤمنون؛ والأبوين مؤمنان، ولكن الذي يلحق به هو من يُكرمه الله بهذا الإلحاق؛ كي يدخل الفرح على قلب المؤمن حين يرى أولاده معه في الجنة ما داموا مؤمنين؛ وهذه قمة في العدالة، لماذا؟

والمثل الذي أضربه على ذلك: هب أن أبًا قد حرص على أن يطعم أهله من حلال؛ فقد يعيش أولاده في ضيق وشظف؛ بينما نجد أبناء المنحرف يعيشون في بحبوحة من العيش؛ وهكذا يتنعم أبناء المنحرف الذي يأكل ويطعم أولاده من حرام؛ فبينما يعاني أبناء الأمين الذي قد يعتبره البعض متزمتًا؛ لأنه يرعى حق الله، ويرفض أكل الحرام.

وما دام أولاده الذين يأكلون من حلال قد يعانون معه من عدم التنعم؛ فالحق سبحانه يلحقهم في الجنة بنعيم يعيشه الأب؛ لا يفوتهم فيه شيء؛ ولا يفوته شيء.

وبذلك تسعد الذرية ؛ لأنها جاءت من صلب رجل مؤمن قضى حياته على جادة الصواب؛ رغم أن بعض الناس قد اتهمته في الدنيا بأنه متزمت.

ولقائل أن يقول: ألا يوجد تناقض بين هذا الإلحاق وبين قول الحق سبحانه:

﴿ لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. ﴾ [لقمان: ٣٣].

وأقول: لا يوجد تناقض؛ لأننا نصلي على الميت صلاة شرعها المشرع؛ وفائدتها أن تصل الرحمة للميت المؤمن؛ والإيمان من عمله.

ولذلك يضيف له الحق سبحانه فوق رصيد الإيمان ما يشاؤه هو سبحانه من الرحمة بصلاة الجنازة التي أقامها المسلمون عليه:

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد: ٢٣].

وكلمة «زوج» تعني المرأة التي يتزوجها الرجل؛ وتعني الرجل الذي تتزوجه المرأة، ونحن نخطئ خطأ شائعًا حين نقول «زوجة» ؛ بل الصحيح أن نقول «زوج» عن المرأة المنسوبة لرجل بعلاقة الزواج.

وسبحانه يقول:

﴿ وأزواجه أمهاتهم .. ﴾ [الأحزاب: ٦].

وهكذا نعلم أن جنات عدن هي مكان ينتظم كل شئ؛ ولهذا المكان أبواب متعددة؛ هي أبواب الطاعات التي أدت إلى خير الجزاءات؛ فباب الصلاة يدخله أناس؛ وباب الزكاة يدخله أناس؛ وباب الصبر يدخله أناس؛ وهكذا تتعدد الأبواب؛ وهي إما أبواب الطاعات أو أبواب الجزاءات التي تدخل منها الطيبات:

﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ .. ﴾ [البقرة: ٢٥].

فالباب يكون مفتوحًا؛ تأتي منه الفاكهة والثمرات والخيرات على اختلاف ألوانها؛ فمرة تأتي ثمار المانجو من باب؛ وبعد ذلك تأتي ثمار التفاح.

وتلك الأبواب كما قلت هي إما للجزاءات؛ أو هي أبواب الطاعات التي أدت إلى الجزاءات، وتدخل عليهم الملائكة من كل باب؛ فماذا تقول الملائكة؟

يقول الملائكة لأهل الجنة:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

والسلام يعني الاطمئنان والرضا الذي لا تأتي بعده الأغيار؛ لأن السلام في الدنيا قد تُعكر أمنه أغيار الحياة؛ فأنتم أيها المؤمنون الذين دخلتم الجنة بريئون من الأغيار.

والسلام في الجنة لهؤلاء بسبب صبرهم، كما قال الحق سبحانه على ألسنة الملائكة:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ..﴾ [الرعد: ٢٤].

وجاء الصبر في صيغة الماضي، وهي صيغة صادقة؛ فهم قد صبروا في الدنيا؛ وانتهى زمن الصبر بانتهاء التكليف.

وهم هنا في دار جزاء؛ ولذلك يأتي التعبير بالماضي في موقعه؛ لأنهم قد صبروا في دار التكليف على مشقات التكليف؛ صبروا على الإيذاء؛ وعلى الأقدار التي أجراها الحق سبحانه عليهم.

وهكذا يكون قول الحق سبحانه:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ..﴾ [الرعد: ٢٤].

في موقعه تمامًا.

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

وعلمنا أن «عُقبى» تعني الأمر الذي يجيء في العقب، وحين يعرض

سبحانه للقضية الإيمانية وصفات المؤمنين المعايشين للقيم الإيمانية؛ فذلك بهدف أن تستشرف النفس أن تكون منهم، ولا بد أن تنفر النفس من الجانب المقابل لهم.

والمثل هو قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣].

ويأتي بمقابلها بعدها:

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤].

وساعة تقارن بأنهم لو لم يكونوا أبراراً؛ لكانوا في جحيم؛ هنا نعرف قدر نعمة توجيه الحق لهم، ليكونوا من أهل الإيمان.

* * *

الباب الثالث

صفات الزوجة الصالحة

صفات المرأة الصالحة

للمرأة الصالحة صفات تنفرد بها عن غيرها:

من هذه الصفات:

الصفة الأولى: قانتة حافظة بالغيب بما حفظ الله

قال الحق- سبحانه -:

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾[1].

الصالحة هي المرأة التي استقامت على المنهج الذي وضعه لها من خلقها في نوعها، فما دامت هي صالحة تكون قانتة، والقنوت هو دوام الطاعة لله، ومنه قنوت الفجر الذي نقنته، وندعو ونقف مدة أطول في الصلاة التي فيها قنوت.

والمرأة القانتة خاضعة لله، إذن فحين تكون خاضعة لله تلتزم منهج الله وأمره فيما حكم به من أن الرجال قوامون على النساء، ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ وحافظات للغيب تدل على سلامة العفة. فالمرأة حين يغيب عنها الراعي لها والحامي لعرضها كالأب بالنسبة لبنت والابن بالنسبة للأم، والزوج بالنسبة للزوجة، فكل امرأة في ولاية أحد لا بد أن تحفظ غيبته؛ ولذلك فالرسول ﷺ حينما حدد المرأة الصالحة قال في حديث عن الدنيا:

«الدنيا كلها متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[2].

لقد وضع ﷺ قانونًا للمرأة الصالحة يقول فيه:

---

(١) [النساء: ٣٤].

(٢) رواه أحمد ومسلم وغيرهما .

«خير النساء التي تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره»[١].

وأي شيء يحتاج الرجل إليه أحسن من ذلك. وكلمة «إن نظرت إليها سرتك» إياك أن توجهها ناحية الجمال فقط، جمال المبنى، لا، فساعة تراها اجمع كل صفات الخير فيها ولا تأخذ صفة وتترك صفة؛ لأن النبي ﷺ حذرنا من أن نأخذ صفة في المرأة ونترك صفة أخرى، بل لا بد أن نأخذها في مجموع صفاتها.

فقال:

«تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[٢].

المطلوب ألا تنظر إلى زاوية واحدة في الجمال، بل انظر إلى كل الزوايا، فلو نظرت إلى الزاوية التي تشغل الناس، الزاوية الجمالية، لوجدتها أقل الزوايا بالنسبة إلى تكوين المرأة؛ لأن عمر هذه المسألة «شهر عسل»- كما يقولون- وتنتهي، ثم بعد ذلك تبدو المقومات الأخرى. فإن دخلت على مقوم واحد وهي أن تكون جميلة فأنت تخدع نفسك، وتظن أنك تريدها سيدة صالون! ونقول لك: هذه الصفة أمدها بسيط في عمر الزمن، لكن ما يبقى لك هو أن تكون أمينة، أن تكون مخلصة، أن تكون مدبرة؛ ولذلك فالفشل ينشأ في الأسرة من أن الرجال يدخلون على الزواج بمقياس واحد هو مقياس جمال البنية، وهذا المقياس الواحد عمره قصير، يذهب بعد فترة وتهدأ شرته. وبعد ذلك تستيقظ عيون الرجل لتتطلع إلى نواحي الجمال الأخرى، فلا يجدها. فيحدث الفشل؛ لذلك لا بد أن تأخذ مجموعة الزوايا كلها. إياك أن تأخذ زاوية واحدة، وخير

---

(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما

الزوايا أن يكون لها دين. وكذلك المقياس بالنسبة لقبول المرأة للزوج، أيضًا خير الزوايا أن يكون له دين، قال رسول الله ﷺ:

«إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»(١).

وعندما استشار رجل سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: زوجها من ذي الدين، إن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها.

إذن فالدين يرشدنا: لا بد أن ننظر إلى المسألة التي سيكون لها عمر طويل في الحياة الممتدة، وبعد ذلك إذا أرادت أن تكون ناجحة فعليها أن ترى إطار نوعيتها وتنبغ فيه، ومن الممكن إن كان عندها وقت أن توسع دائرة مهمتها في بيتها، فإذا كان عندها أولاد فعليها أن تتعلم الحياكة وتقوم بتفصيل وحياكة ملابسها وملابس أولادها فتوفر النقود، أو تتعلم التطريز كي لا تدفع أجرة، أو تتعلم التمريض حتى إذا مرض ولدها استطاعت أن تمرضه وترعاه، أن تتعلم كي تغني عن مدرس خصوصي يأخذ نقودًا من دخل الأسرة، وإن بقي عندها وقت فلتتعلم السباكة لتوفر أجرة السباك إذا فسد صنبور ماء، أو تتعلم إصلاح الكهرباء لتصلح مفتاح الإضاءة. وتستطيع المرأة أن تقوم بأي عمل وهي جالسة في بيتها وتوفر دخلاً لتقابل به المهام التي لا تقدر أن تفعلها، والمرأة تكون من «حافظات الغيب» ليس بارتجالٍ من عندها أو باختيار، بل بالمنهج الذي وضعه الله لحفظ الغيب؟

فما المنهج الذي وضعه الله لحفظ الغيب؟ تحافظ على عرضها وعلى مال زوجها في غيبته، فتنظر المنافذ التي تأتي منها الفتنة وتمتنع عنها، لا تخرج إلى الشوارع إلا لحاجة ماسة أو ضرورة كي لا ترى أحدًا يفتنها أو يفتن بها؛ لأن

(١) حديث حسن: رواه الترمذي وغيره.

هذه هي مقدمات الحفظ، ولا تذهب في زحمة الحياة، وبعد ذلك نقول لها: «حافظي على الغيب» بل عليها أن تنظر ما بينه الله في ذلك. فإن اضطررت أن تخرجي فلتغضي البصر؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور: ٣١].

فالمرأة إن لم تغض النظر يحدث التفات عاطفي؛ لأن كل شعور في الإنسان له ثلاث مراحل: مرحلة أن يدرك، ومرحلة أن يجد في نفسه، ومرحلة أن ينزع، أي يحول الأمر إلى سلوك، ونضرب دائمًا المثل بالوردة. وأنت تسير ترى وردة في بستان وبمجرد رؤيتك لها فهذا إدراك، وإذا أعجبتك الوردة وعشقتها وأحببتها فهذا اسمه وجدان. وإذا اتجهت لتقطفها فهذه عملية نزوعية، فكم مرحلة؟ ثلاث مراحل: إدراك، فوجدان. فنزوع.

ومتى يتدخل الشرع؟ الشرع يتدخل في عملية النزوع دائمًا. يقول لك: أنت نظرت الوردة ولم نعترض على ذلك، أحببتها وأعجبتك فلم نقل لك شيئًا، لكن ساعة جئت لتمد يدك لتأخذها قلنا لك: لا، الوردة ليست لك.

إذن فأنت حر في أن تدرك، وحر في أن تجد في نفسك، إنما ساعة تنزع نقول لكل: لا، هي ليست لك، وإن أعجبتك فازرع لك وردة في البيت، أو استأذن صاحبها مثلاً.

إذن فالتشريع يتدخل في منطقة النزوع، إلا في أمر المرأة فالتشريع يتدخل من أول الإدراك؛ لأن الذي خلقنا علم أننا إن أدركنا جمالاً، نظرنا له، وستتولد عندنا مواجيد بالنسبة للأشياء التي نراها ونشتهيها، وساعة يوجد إدراك واشتهاء، لا يمكن أن ينفصل هذا عن النزوع؛ لأنك -كرجل- مركب تركيبًا كيميائيًا بحيث إذ أدركت جمالاً ثم حدث لك وجدان واشتهاء، فالاشتهاء لا

يهدأ إلا بنزوع، فيبين لك الشرع: أنا رحمتك من أول الأمر، وتدخلت من أول المسألة. وكل شيء أتدخل فيه عند النزوع إلا المرأة فقد تدخلت فيها من أول الإدراك؛ لذلك أمر الحق الرجل أن يغض البصر، وكذلك أمر المرأة.

لماذا؟ لأنك إن أدركت فستجد، وإن وجدت فستحاول أن تنزع ونزوعك سيكون عربدة في أعراض الناس، وإن لم تنزع فسيبقى عندك كبت؛ لذلك حسم الحق المسألة من أولها وقال:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

فامنعوا المسألة من أول مراحلها لماذا؟ لأنني عندما أرى وردة، ثم قالوا لي: هي ليست لك فلا تقطفها، فلا يحدث عندي ارتباك في مادتي، لكن عندما يرى الرجل امرأة جميلة وتدخل في وجدانه فسيحدث عنده النزوع؛ لأن له أجهزة مخصوصة تنفعل لهذا الجمال، ولذلك يوضح لك الحق: أنا خالقك وسأتدخل في المسألة من أول الأمر، فقوله: «بما حفظ الله» أي بالمنهج الذي وضعه الله للحفظ: ألا أعرض نفسي إلى إدراك، فينشأ عنه وجدان، وبعد ذلك أفكر في النزوع، فإن نزعت أفسدت، وإن لم تنزع تعقدت، فيأتي شر من ذلك، هذا معنى «بما حفظ الله»، يعني انظروا إلى المنهج الذي وضعه الله لأن تحفظ المرأة غيبة زوجها، وهي تحفظه ليس بمنهج من عندها. بل بالمنهج الذي وضعه خالقها وخالقه.

* * *

الصفة الثانية: احترام الزوج وتوقيره

قال ﷺ: «**لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل، يوشك أن يفارقك إلينا**»(١).

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله-:

«وحينما نصح أحدهم رجلاً يريد أن يتزوج قال له: لا تتخذها حنانة، ولا منانة، ولا عشبة الدار، ولا كبة القفا.

فالحنانة التي لها ولد من غيرك يذكرها دائمًا بأبيه فتحن إليه، والمنانة التي لديها مال تمن به عليك، وعشبة الدار هي المرأة الحسناء في المنبت السوء والمستنقع القذر، وكبة القفا هي التي لا تعيب الإنسان في حضوره، وتعيبه وتذمه في غيبته» ا.هـ.

إن شر النساء: من تقابل إحسان زوجها بالإساءة، وجميله بالنكران، تدفن حسناته، وتفشي سيئاته، تنسى النعم وتذكر النقم، والنبي ﷺ يقول:

«**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**».

وقد قيل لأعرابي مُجرب: صف لنا شر النساء. فقال: شرهن:

السريعة الوثبة.

كأن لسانها حربة.

تضحك من غير عجب.

وتبكي من غير سبب.

(١) صحيح: رواه ابن ماجه.

وتدعو على زوجها بالحرب[١].

أنف في السماء.

واست [٢] في الماء.

كلامها وعيد.

وصوتها شديد.

تدفن الحسنات.

وتفشي السيئات.

تُعين الزمان على بعلها [٣].

ولا تعين بعلها على الزمان.

ليس في قلبها عليه رأفة.

ولا عليها منه مخافة.

إن دخل خرجت.

وإن خرج دخلت.

وإن ضحك بكت.

وإن بكى ضحكت.

كثيرة الدعاء.

قليلة الإرعاء [٤].

(١) الحرب: الهلاك.

(٢) الاست: العجز أو حلقة الدبر.

(٣) البعل: الزوج.

(٤) الإرعاء: الرعاية والعناية.

تأكل لمًا[١].

وتوسع ذمًّا.

ضيقة الباع.

مهتوكة القناع[٢].

إذا حدثت تشير بالأصابع.

وتبكي في المجامع.

بادية [٣]من حجابها.

نباحة عند بابها.

تشكو وهي ظالمة.

وتشهد وهي غائبة.

قد تدلَّى لسانها بالزور.

وسال دمعها بالفجور.

ابتلاها الله بالويل والثبور، وعظائم الأمور.

* * *

---

(١) لمًا: كثيرًا.

(٢) أي: منزوعة الحياء.

(٣) بادية: ظاهرة.

الصفة الثالثة: مطيعة لزوجها

- عن حصين بن محصن رضي الله عنه: أن عمة له أتت النبي ﷺ، فقال لها:

«أذات زوجٍ أنت؟»

قالت: نعم.

قال: **«فأين أنت منه؟»**.

قالت: ما آلوه إلا ما عجزت عنه.

قال: **«فكيف أنت له؟ فإنه جنتك ونارك»**[١].

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ: أي الناس أعظم حقًّا على المرأة؟

قال: **«زوجها»**.

قلت: فأي الناس أعظم حقًّا على الرجل؟

قال: **«أمه»**[٢].

وروى ابن ماجه في «سننه» عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال:

«ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رءوسهم شبرًا:

رجل أمَّ قومًا وهم له كارهون.

وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط.

وأخوان متصارمان»[٣].

---

(١) قال المنذري: رواه أحمد والنسائي بإسنادين جيدين، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) قال المنذري: رواه البزار والحاكم، وإسناد البزار حسن. «الترغيب» برقم (٢٩١٠).

(٣) «متصارمان»: متخاصمان ومتهاجران.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«ألا أخبركم برجالكم في الجنة»؟

قلنا: بلى يا رسول الله.

قال: **«النبي في الجنة، والصديق في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر لا يزوره إلا لله في الجنة، ألا أخبركم بنسائكم في الجنة»؟**

قلنا: بلى يا رسول الله .

قال: **«ودود ولود إذا غضبت أو أُسيء إليها أو غضب زوجها، قالت: هذه يدي في يدك لا أكتحل بغمض حتى ترضى»**[١].

فعلى الزوجة المؤمنة أن تعلم أن زوجها هو القائد العام للبيت، وهو صاحب الكلمة المسموعة. . قال تعالى: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ [النساء: ٣٤].

وهذه القوامة لا تُعد هضمًا لحقها، بل صيانة لشرفها ونفسها، فالإسلام عندما بوأ الرجل هذه المكانة، وربعه على هذه الصدارة، أمره بالإحسان إليها، والإشفاق عليها، وحذره من التفريط في حقها.

هذا، وطاعة الزوجة لزوجها ليست طاعة مُطلقة، ولكنها طاعة مُقيدة بطاعة الله ورسوله، فإن أمرها الزوج بمخالفة شرعية. . فلا سمع له ولا طاعة:

قال رسول الله ﷺ: **«لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»**[٢].

---

(١) حديث حسن: رواه الطبراني.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

نصيحة لفتاة الإسلام:

فضيلة الإمام: هل من نصيحة للفتاة المسلمة؟

الإمام: خير نصيحة أوجهها للفتاة المسلمة، هي وصايا أم إياس العشر لابنتها.

فضيلة الإمام: نريد تفصيلاً لهذه الوصايا العشر.

قال الإمام: إن نصيحة أم إياس لابنتها.

أي بنية: اعلمي لو أن امرأة استغنت عن الزوج، لغنى أهلها، لكنت أغنى الناس ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال.

ويا ابنتي احفظي عني عشر خصال تكن لك ذخراً:

أما الأولى والثانية: فالمعاشرة له بالرضا والقناعة، وحسن السمع والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع أنفه، وموقع عينه، فلا تقع عينه، على قبيح، ولا يشمن منك إلا أطيب ريح.

وأما الخامسة والسادسة: فالهدوء عند منامه، والتفقد لوقت طعامه، فإن مرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة: فالاحتفاظ بماله، والإرعاء على حشمه وعياله.

وأما التاسعة والعاشرة: فإياك أن تعصي له أمرًا، أو تفشي له سرًّا، فإنك إن عصيت أمره، أوغرت صدره، وإن أفشيت سره، لم تأمني غدره، وأعظك بعد ذلك من الفرح إن كان ترحًا «غاضبًا» أو من الترح إن كان فرحًا.

* * *

الصفة الرابعة: لا تخرج إلا بإذنه

فعن معاذ، قال:

قال النبي ﷺ:

«لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن في بيت زوجها وهو كاره، ولا تخرج وهو كاره، ولا تطيع فيه أحدًا، ولا تعتزل فراشه، ولا تضربه، فإن كان هو أظلم فلتأته حتى ترضيه، فإن قبل منها فبها ونعمت، وقبل الله عذرها وأفلج حجتها[١] ولا إثم عليها، وإن هو لم يرضَ، فقد أبلغت عند الله عذرها»[٢].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله-:

الإسلام يريد وضع المرأة في الإطار الكامل، وبعد ذلك إذا نظرنا إلى الإسلام بعد إعطائه المرأة كرامة إنسانية، ومساواة مع الرجل في الحقوق والواجبات، وحقها المدني كاملاً، وفرص التعليم، ومن ذلك يعطيها أنها سيدة البيت، وأن لها رأيًا يسمع منها. وكل هذا يتأتى في نظام الإسلام المستوفي، لأنه من خلق الله، لأنه - سبحانه وتعالى- خلق الجنس وقسم الجنس إلى نوعين إلى رجل وامرأة، والرجل إلى أفراد، والنساء إلى أفراد أيضًا، الإنسان وحده هل هو مكون من آلة واحدة أم من عدة آلات وملكات مختلفة، فله عين وأنف وأمعاء، فهل أي جارحة من هذه الجوارح تؤدي مهمة الجارحة الأخرى؟ أم كل جارحة لها مهمة؟ فهل يحاول أحدهم أن يرى بأذنه أو يأكل بأنفه، إذن فأنت- وأنت واحد فيك آلات متعددة للإدراكات، فهل تستطيع أن تقول أيهما خير- العين أم الأذن؟ الاثنان ضروريان، لا تقارن بين أمرين ضروريين يقول الشاعر:

---

(١) أفلج: أظهر حجتها وقواها.

(٢) رواه الحاكم، وقال صحيح الإسناد.

هل السمع بعد العين يكفي مكانها

أم العين بعد السمع تهدي كما يهدي؟

وأنت نفسك مكون من أجزاء ومن ملكات لا يمكن أن تكفي إحداها عن الثانية، إذن لابد أن يتكافأوا معًا على أداء مهمتهم- كذلك الجنسان كل جنس له مهمة- الزمن ينقسم إلى ليل ونهار، فهل يقول أحد أنه يريد أن يجعل الليل نهاراً، وآخر يقول: أنه يريد أن يسوي النهار بالليل ويجعله مظلمًا، فأقول له: لقد أحلت، لأن الله أراد للضوء مهمة في تكوين الإنسان والنبات والحيوان، وأراد لليل مهمة أيضًا. لأن الله جعل الليل سكونًا وهدوءاً، وقد درسنا أن الأشجار والخضروات تخرج ثاني أكسيد الكربون في الليل، وتخرج الأوكسجين في النهار، إذن هي مهمات. لو أن الدنيا ظلت ليلاً وأخرج ثاني أكسيد الكربون سيفسد العالم. ونهاراً وأخرج أوكسجين فسيفسد العالم أيضًا فمن أين لنا الحصول على الكربون الذي هو أصل هذه الأشياء التي تخرج الكربون، إذن فالليل له مهمة، والنهار له مهمة، إذن لا يصح أن يوجد ليل مطلق، أو نهار مطلق. إذن، فهل الليل ضد النهار أم أنه يكمله؟

إذن فلا تنظر إلى النوعين على أنهما متعارضان، وإنما تنظر إلى أنهما متكاملان، وسبحانه وتعالى يريد أن يلفت نظرنا إلى هذه المسألة، ماذا قال الحق سبحانه وتعالى؟ إن ظاهرة الليل والنهار هي ظاهرة موجودة لدينا، فهل إذا جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة، أو جعلت النهار سرمداً إلى يوم القيامة. فهل ينتظم الكون؟ لا . إذن فالليل له مهمة. والنهار له مهمة فلا تنظر للاثنين على أنهما ضدان، إنما انظر إلى أنهما متكاملان.

ويضرب الله مثلاً على ذلك فيقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ *

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾(١).

إذن عندما نتعقل، نجد أنه ضروري من وجود ليل وضروري من وجود نهار، ويكمل الاثنان بعضهما وكذلك الإنسان منه نوعان، مثل الزمن منه نوعان، الإنسان منه نوعان: رجل وامرأة، الرجل له مهمة والمرأة لها مهمة، إذن ليسا متعاندين ولا متعارضين، ولكنهما متكاملان. وعندما يريد الله أن يوضح هذه المسألة يقول: ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى** ﴾(٢) أي إن كلاً له مهمة، وكذلك عندما أراد النبي - ﷺ - أن يحدد المهمات قال: «**لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ولعن الله المتشبهات من النساء بالرجال**» لأن الله لو أرادها رجلاً لخلقها رجلاً، ولو أراده أنثى لخلقه أنثى، إذن كل له مهمة ووضع. إذن من يحاول أن يخرج المرأة عن مهمتها أو يخرج الرجل عن مهمته فقد أحال، ومعنى (أحال): وضع الأمور في غير نصابها ولكن إذا اضطرت الظروف إلى أن تعمل المرأة عمل الرجل أو يعمل الرجل عمل المرأة- نقول هناك فرق بين أن يعمل عملاً غير رقيق، دعته إليه الضرورة، فإن الضرورة عندنا في الدين تبيح المحظور، فإن الإنسان إذا كان في مخمصة له أن يأكل الميتة المحرمة، وإذا كان يأكل وقفت اللقمة في زوره وليس أمامه إلا خمارة، فله أن يأخذ كأسًا لتسقط اللقمة من زوره.

فهذا اضطرار. وهناك فرق بين أحكام الإضرار وأحكام الاختيار، التقنين حين يقنن، إنما يقنن لأحكام الاختيار، فهب أن إنسانًا له زوجة وأولاد وشاء الله وشاء قدره أن تموت زوجته، فإلى أن يرتب أموره لا مانع في أن يزاول مهمة

(١) [القصص: ٧١، ٧٢].

(٢) [الليل: ١-٤].

المرأة في أن يحنو على الطفل ويغسل له ملابسه ويطعمه وينظفه إلى أن تجد في ظروفه أشياء تجعل حياته رتيبة.

وهب أن امرأة أيضًا كان لها مثل هذا الموقف، فمن الممكن أن تقوم أيضًا بهذا العمل فهذا ظرف اضطراري وهناك فرق بين أصل الاضطرار وبين عمل الاختيار. وهل وقف الإسلام من هذه المسألة موقفًا عدلاً؟ نعم. وقف الإسلام من هذه المسألة موقفًا عادلاً. كيف؟

الضرورة بقدرها:

عرض لنا القرآن قصة أو لقطة من قصة موسى- عليه السلام- فعندما يخرج موسى- عليه السلام- من مصر خائفًا يترقب خشية أن يقتلوه، قصد مدين، وقبل أن يصل البلد وصل إلى عين عند مدين هي ماء مدين، وعندما وصل إلى العين التي يشربون منها، رأى منظرًا، هو أن رعاة كثيرين من الرجال يسقون ماشيتهم، ووجد فتاتين واقفتين بعيدًا بماشيتهما، ومعنى ذلك: أن الفتاتين قد أحضرتا ماشيتهما لتشرب من الماء ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ** ﴾[1] أي بعض قضاء الرعاة حاجتهم من الماء، فكانت الفتاتان واقفتين بعيدًا حتى يخلو لهما البئر فتسقيا ماشيتهما.

إذن فما دمتما محتاطتين ولا تريدان الاختلاط بالرجال فما الذي أحضركما إلى هنا؟ قالتا: أبونا شيخ كبير، أي لا يستطيع أن ينهض بهذه التبعة ولا هذه المهمة، إذن فهناك مبدآن:

١- لا نسقى حتى يصدر الرعاء.

٢- وأبونا شيخ كبير.

إذن فالضرورة التي أخرجتهما، أن أباهما شيخ كبير فاضطرهما للخروج

(١) [القصص: ٢٣].

لسقي الماشية، ومع أنهما اضطرتا لسقي الماشية، فليس معنى الاضطرار أن تفرضا نفسيهما رجلين وتتزاحما مع الرجال- فالاضطرار له حدوده- فوقفتا بعيدًا إلى أن يصدر الرعاء.

إذن أخذنا الضرورة قدرها، وقدر الضرورة أنهما خرجتا إلى الحياة الخارجية العامة، ولكن بشرط التحفظ فسقى لهما والذي سقى لهما هو موسى- وهذا هو موقف المجتمع الفاضل- ساعة أن يرى امرأة أخرجتها الضرورة إلى الخارج، لابد أن يسارع في قضاء حاجتها حتى ترجع إلى مكانها فلا يستغل فرصة الخروج ويماطل معها ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(١).

مهمة المجتمع الفاضل:

وهنا لفظة ثانية: وهي مهمة المجتمع الفاضل الكريم وهي ساعة أن يرى المرأة التي اضطرتها ظروفها إلى العمل أن يعينها على هذا العمل، سواء كان ذلك المجتمع قريبًا أو كان بعيدًا، فمعنى أنها امرأة وخرجت إلى مسألة يجب أن تقضي لها حاجتها لتعود إلى حيث أتت. وبعد ذلك يبين لنا موقف المرأة، بأن المرأة حين خرجت إلى الخارج، كان ذلك عملاً اضطراريًا فيجب أن تدفع الضرورة ما أمكنها أن تدفع. فحينما رأت الفتاتان موسى سقى لهما ذهبتا لأبيهما وقالت إحداهما: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾(٢). ومعنى ذلك أنها سعت إلى أن تأتي بمن يقوم مقامها في هذه المسألة، حتى لا تضطر إلى الخروج إلى المجتمع، إذن فهي لم تمدد الضرورة، وإنما أنهت الضرورة، وكان سيدنا شعيب أبوهما لبقًا فرأى أنه ربما تكون ابنته قد رأت أن هذا الشاب مناسب لها - فلم يقل له أنه سيؤجره، ولكن قال له:

---

(١) [القصص: ٢٤].

(٢) [القصص: ٢٦].

إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين، فبدلا من أن يكون أجيرًا لديه وتسول له نفسه بالنظر إلى البنات، فاحتاط على ألا يكون موسى أجيرًا في البيت وإنما زوج للبنت، أي إنه محرم للبنت الأخرى.

ثقافة ربة البيت:

إن هذه اللقطة البسيطة من القصة أعطت نموذجًا بأن موقع المرأة أن تكون ربة للبيت، وأن تتزود لذلك بما يمكن أن يكون لها من مستويات العلم المختلفة، لأن المنزل وتدبيره يحتاج منها أن تكون مثقفة ثقافة الطبيب وثقافة الاقتصادي وثقافة المعلم وثقافة الحياكة والتدبير المنزلي. فمثلاً كانت السيدة أسماء رضي الله عنها أخت عائشة أم المؤمنين- وامرأة الزبير، تقول: «كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله، وأسوس له فرسه وأعلفه، وأحتسى له، وأخرز الدلو، وأسقى الماء وأحمل على ظهري النوي». هذه هي أسماء ذات النطاقين التي كان لها قصة مشهورة أيام الهجرة.

إذن فالمرأة من الممكن أن يكون لها عمل خارج، وتحدد الضرورة هذا العمل الخارج ويكون موقفها فيه على ما يلي: ألا تعتقد أنها بخروج الضرورة لها قد أصبحت فردًا من أفراد الرجال، بل أيضًا تظل في حجابها كامرأة، وتظل في حشمتها، وتظل في وقارها، وتؤدي المهمة، وتنهي الضرورة على قدر الإمكان والمجتمع القريب أو المجتمع البعيد- عليه أن يحمي المرأة، بمعنى ألا يجعلها تخرج عن مهمتها إلا للضرورة، والضرورة يعينها عليها.

إذن فالإسلام وضع الأمور في حدودها الطبيعية، ومعنى حدودها الطبيعية: إنه لم يفرط ولن يفرط، بل وقف الموقف الوسط- وقف الوسط في هذه المسألة مما يدل على أنه تشريع واقعي: ومعنى تشريع واقعي أن يلائم المشرع بين طباع المشرع له وظروفه، وإلا فإذا اضطرت المرأة إلى ألا تخرج يقولون: إن الدين منعها من الخروج، لا، إن معنى الدين يكون واقعيًا بالنسبة للظروف التي تحيط

بالمرأة، فحين أباح لها أن تخرج أباحه على أنه ضرورة، على أن الضرورة تكون بقـدرها، وبعد ذلك طلب من المجتـمع أن يقف موقـف الرجولة والشـهامـة والمروءة، بحيث إذا رأى امـرأة مضطرة أن تعمل أن يعـينها بقـدر إمكانه لترجع إلى حيث كانت، وأيضًا حـينما تخرج، تخرج لا في زي خليع، ولكن في زي محتشم، حتى تصد نظر كل من ينظر إليها، أو يرى فيها أنها أهل للريبة أو أهل للمعاملة السيئة، فحين يراها هـكذا، يعرف أنها خرجت لضرورة وأنها ما دامت خرجت لضرورة وهي محتشمة، فإنها امرأة محافظة على عرضها.

* * *

الصفة الخامسة: اتباع هدي الإسلام في علاج نشوز الزوج

قال الحق- سبحانه-:

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[1].

قال الإمام الشعراوي -رحمه الله-:

ونلحظ أن الحق يتكلم هنا عن نشوز الرجل، وسبق أن تكلم سبحانه عن نشوز المرأة:

﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ [النساء: ٣٤].

ما النشوز؟ عندما نسمع عن الموسيقى نجد من يقول: «هذه نغمة نشاز» أي إنها نغمة خرجت عن تسلسل النغم وإيقاعه. والأصل فيها مأخوذ من النشز، وهو ما ارتفع وظهر من الأرض، والمفروض في الأرض أن تكون مبسوطة، فإن وجدنا فيها نتوءًا فهذا اسمه نشوز.

والأصل في علاقة الرجل بزوجته، أن الرجل قد أخذ المرأة سكنًا له ومودة ورحمة وأفضى إليها وأفضت إليه، واشترط الفقهاء في الزواج التكافؤ أي أن يكون الزوجان متقاربين؛ ولذلك قال الحق:

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ [النور: ٢٦].

(١) [النساء: ١٢٨].

حتى الكفاءة تكون في الطيبة أو الخبث، فلا يأتي واحد بامرأة خبيثة ويزوجها لرجل طيب كي لا تتعبه، ولا يأتي واحد برجل خبيث ويزوجه بامرأة طيبة كي لا يتعبها؛ لأن الطيب عندما يتزوج طيبة تريحه وتقدره.

وكذلك الخبيث عندما يتزوج خبيثة فإنهما يتوافقان في الطباع والسلوك، وفي هذا توازن، والخبيث إن لم يخجل من الفضيحة، فالخبيثة لا تخجل منها أيضًا، أما الطيب والطيبة فكلاهما يخشى على مشاعر الآخر ويحافظ على كرامته، فإن خافت امرأة من بعلها نشوزًا أي ارتفاعًا عن المستوى المفترض في المعاملة، في السكن والمودة والرحمة التي ينبغي أن تكون موجودة بين الزوجين، وهي قد أفضت إليه وأفضى إليها، فإن خافت أن يستعلي عليها بنفسه أو بالنفقة أو ينالها بالاحتقار، أو ضاعت منه مودته أو رحمته، هذا كله نشوز . وقبل حدوث ذلك على الزوجة الذكية أن تنتبه لنفسها وترى ملامح ذلك النشوز في الزوج قبل أن يقع، فإن كانت الأسباب من جهتها فعليها أن تعالج هذه الأسباب، وترجع إلى نفسها وتصلح من الأمر. وإن كانت منه تحاول كسب مودته مرة أخرى.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ والإعراض يعني أنه لم ينشز بعد ولكنه لا يؤانس الزوجة ولا يحدثها ولا يلاطفها على الرغم من أنه يعطيها كل حقوقها. وعلى المرأة أن تعالج هذه المسألة أيضًا. والقضية التي بين اثنين- كما قلنا- وقال الله عنهما:

﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١].

وقال في ذلك أيضًا:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

أي أن يغطي الرجل المرأة وتغطي المرأة الرجل فهي ستر له وهو ستر لها

وحمـاية ونعرف أن المرأة إن دخل علـيها أبـوها أو أخوها فهـي تداري أي جزء ظاهر من جسمها، أما عندما يدخل عليها زوجها فلا تستر ولا تخفى شيئًا.

ويعرف كل رجل متزوج وكل امـرأة متزوجة أن بينهما إفضاء مـتبادلاً، فقد أباح الله للرجل من زوجته ما لا يبيـحه لأحد، وكذلك المرأة، فلا يقول الرجل أي نعت أو وصف جـارح للمرأة، وعلى المرأة أن تحـافظ كذلك على زوجـها. ولها أن تتذكر أنها اطلعت على عورته بحق الله، واطلع على عورتها بحق الله.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن ينهي هذا الخلاف قبل أن يقع؛ لذلك أوجب على المرأة أن تبحث عن سبب النشوز وسبب الإعراض فقد تكون قد كبرت في العمر أو نزلت بها علة ومرض وما زال فـي الرجل بقية من فتوة. وقد يصح أن امرأة أخرى قد استمالته، أو يرغب في الزواج بأخرى لأي سبب من الأسباب، هنا على المرأة أن تعالج المسألة علاج العقلاء وتتنازل عن قسمها، فقد تكون غير مليحة وأراد هو الزواج فلتسمح له بذلك، أو تتنازل له عن شئ من المهر، المهم أن يدور الصلح بين الرجل وزوجته، وهي مهمة الرجل كما إنها مهمة المرأة.

﴿فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ والصلح هنا مهمة الاثنين معًا؛ لأن كل مشكلة لا تتعـدى الرجل والمرأة يكون حلها يسيرًا، والذي يجعل المشكلات صعبة هم هؤلاء الذين يتدخلون في العلاقة بين الرجل والمرأة، وليس بينهـما مـا بين الرجل والمرأة، والرجل قـد يختلف مع المرأة ويخـرج من المنزل ويهدأ ويعود، فتقول له الزوجـة كلمة تنهي الخلاف لكن إن تدخل أحد الأقارب فالمشكلة قد تتعقد من تدخل من لا يملك سببًا أو دافعًا لحل المشكلة.

لذلك يجب أن نتنبـه إلى قول الحق هنا: ﴿فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾.

وأولى درجات الصلح بين الـرجل والمرأة هو أن يقوم كل منهمـا بمسئوليـته وليتذكر الاثنان قول الحق:

﴿وَعَسَى ن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكذلك قول الحق سبحانه:

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ولا يظنن رجل أن هناك امرأة هي مجمع كل الجمال والخيرات؛ لأن كل خصال الخير التي تتطلبها الحياة، قد لا تتوافر في المرأة الجميلة. بل قد توجد في المرأة التي ليست على حظ من الحسن؛ لأن ذات الحسن قد تستند إلى رصيد حسنها. أما التي ليس لها حظ من الحسن فهي تحاول أن تكون أمينة ومطيعة ومدبرة وحسنة التصرف مع أهل الزوج؛ لأنها تريد أن تستبقى لنفسها رصيد استبقاء.

ولذلك نجد اللاتي ليس لهن حظ من الحسن هن الغالبية الكبيرة في حمل أعباء تكوين الأسرة، فلا يصح أن يأخذ الرجل الزاوية الوحيدة للجمال الحسي، بل عليه أن يأخذ الجمال بكل جوانبه وزواياه؛ لأن الجمال الحسي قد يأخذ بعقل الرجال، لكن عمره قصير. وهناك زوايا من الجمال لا نهاية لها إلا بنهاية العمر.

وقد حدثونا عن واحد من الصالحين كانت له امرأة شديدة المراس والتسلط عليه، وهو رجل طيب فقال لها: آه لو رأيتني وأنا في دروس العلم والناس يستشرفون إلى سماعي. لقد ظن أنها عندما تراه في مجلس العلم سترتدع، وتكون حنونة عليه.

وذهبت لحضور درس العلم، ورآها، وظن أن ذلك سيزرع هيبة له في قلبها، وعاد إليها آخر النهار وقال لها: لقد رأيتني اليوم. فقالت: رأيتك ويا حسرة ما رأيت، رأيت كل الناس تجلس باتزان إلا أنت فقد كنت تصرخ.

وحدثونا عن هذا الرجل أن الله كان يكرمه بالمدد جزاء صبره على امرأته، وكان المريدون يرون إشراقات الله في تصرفاته، وماتت امرأته. وذهب المريدون ولم يجدوا عنده الإشراقات التي كانت عنده من قبل. فسألوه: لماذا؟ فقال: ماتت التي كان يكرمني الله من أجلها.

فكما أن المطلوب من المرأة أن تصبر على الرجل، فالرجل مطلوب منه أن يصبر على المرأة. والذي يصبر عليها يؤتيه الله خيرها، ولذلك قالوا: «إن عمران بن حطان كان من الخوارج وكان له امرأة جميلة وكان هو دميم الملامح، فنظرت إليه زوجته مرة وقالت: الحمد لله فقال لها: على أي شيء تحمدين الله؟ قالت: على أني وأنك في الجنة. قال: لم؟ قالت: لأنك رزقت بي فشكرت، ورزقت بك فصبرت، والشاكر والصابر كلاهما في الجنة.

ولا يظنن واحد أنه سيجد امرأة هي مجمع الجمال والحسن في كل شيء، فإن كانت متدينة المستوى في جانب فهي متميزة في جانب آخر، فلا تضيع الامتياز الذي فيها من أجل قصورها في جانب ما. وزوايا الحياة كثيرة. وقلنا سابقًا: إنه لا يوجد أحد ابنًا لله، بل كلنا بالنسبة لله عبيد. وما دمنا جميعًا بالنسبة لله عبيداً وليس فينا ابن له. وسبحانه أعطانا أسباب الفضل على سواء، فهناك فرد قد أخذ الامتياز في جانب، والآخر قد نال الامتياز في جانب آخر- هذا النقص في زاوية ما، والامتياز في زاوية أخرى، أراد به الله أن يجعل مجموع صفات ومزايا أي إنسان يساوي مجموع إنسان آخر حتى يتوازن العالم.

فإن وجد الإنسان شيئًا لا يعجبه في المرأة، ووجدت المرأة شيئًا لا يعجبها في الرجل، فعلى الرجل أن يضم الزوايا كلها ليرى الصورة المكتملة للمرأة، وأن تضم المرأة كل الزوايا حتى ترى الصورة المكتملة للرجل.

والرجل الذي ينظر إلى كل الزوايا يحيا مرتاح البال؛ لأنه يرى من الزوايا الحسنة أضعاف الزوايا التي ليست كذلك، والذي يرضى هو من ينظر إلى

المحاسن. والذي يغضب هو من ينظر إلى المقابح. والعادل في الغضب والرضا هو من ينظر إلى مجموع هذا ومجموع هذا، إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن تُبني الأسرة على السلامة فيوضح لنا:

-لا تنتظر أيها الرجل ولا تنتظري أيتها المرأة إلى أن يقع الخلاف، فما أن تبدو البوادر فعليكما بحل المشكلات، فليس هناك أحد قادر على حل المشكلات مثلكما؛ لأنه لا يوجد أحد بينه وبين غيره من الروابط والوشائج مثل ما بين الرجل وزوجته؛ لذلك قال سبحانه: ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾.

إننا في بعض الأحيان نجد الصلح يأخذ شكلية الصلح، أما موضوع الصلح وهو إنهاء الجفوة والمواجيد النفسية فقد لا يوجد، والذي يعرقل الصلح هو أننا نقوم بالشكلية ولا نعالج الأسباب الحقيقية المدفونة في النفوس، والتي تتسرب إلى موضوعات أخرى؛ لذلك يجب أن يكون الصلح، ويتم بحقيقته كقول الله تعالى: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ وعندما تتراضى النفوس يعم الخير على الزوجين وعلى المجتمع.

وبعد ذلك يتابع الحق: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ يوضح لنا سبحانه: أنا خالقكم وأعلم طبائعكم وسجاياكم وأعلم أنني عندما أطلب من المرأة أن تتنازل عن شيء من نفقتها كمهرها أو هدية الخطبة الأولى «الشبكة»، أو أن تتنازل له عن ليلتها لينام عند الزوجة الأخرى. وأعلم أن هذا قد يصعب على النفس، وكذلك يصعب على الرجل أن يتنازل عن مقاييسه، إياكم أن يستولي الشح على تصرفاتكم بالنسبة لبعضكم البعض. وجاء الحق في آية وقال:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

وهنا يقول: ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ وهناك فرق بين الحقوق التي قد يتمسك بها أحد الزوجين، والإحسان الذي يتطوع به. ونعرف ما فعله قاض فاضل عندما قال لخصمين: أأحكم بينكم بالعدل أم بما هو خير من العدل؟

فسأل واحد: وهل هناك خير من العدل؟ فقال القاضي: نعم إنه الفضل فالعدل إعطاء الحق فقط، والفضل أن يتنازل الإنسان عن حقه بالتراضي لأخيه.

* * *

الصفة السادسة: لا تتزين إلا لزوجها

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله-:

كلكم تعرفون أن وسائل إدراك الإنسان ثلاث، ومظاهر إدراكه ثلاثة أشياء: يدرك، ثم ينفعل بوجدانه، ثم ينزع بحركة. أي إني إذا رأيت وردة جميلة في بستان، ورؤيتي لهذه الوردة تسمى إدراكًا أدركت أن هناك وردة شكلها جميل (هذا إدراك)، وبعد ذلك تحدث مرحلة ثانية وهي أني أسر بها وأعجب بها، ويستقر حسنها في وجداني أي أحب هذه الوردة وهذا هو (الوجدان)، وبعد ذلك أقول لنفسي: أقطعها وأضعها في البيت في زهرية، وهذه عملية تسمى (نزوع)، أي قمت بحركة لاستولي على الوردة، أي إن كل مظهر من مظاهر النزوع يحتاج إلى أن تدرك أولاً، ثم نجد شيئًا في نفسك ثم تنزع، لكنني عندما هممت بأن أقطع تلك الوردة قال أحد: قف عندك، هذه الوردة في حقل شخص آخر وليست لك. أي إن عمليتي النزوعية، وقف عندها أنني لا أملكها إذن ماذا أفعل، وقد أعجبت بالوردة؟ إما أن تستسمحه وتأخذها، وإما أن تزرع وردًا في بيتك، وإذا لم يكن لديك ورد تشتري أرضًا وتزرع فيها وردًا، ما دام الورد أصبح كيفًا عندك.

إذن فالقانون تدخل عند ماذا؟ عندما رأى أو عندما وجد، أو عندما نزع ليعمل عملاً. أن يدرك فهو حر، وأن يعجب هو بالشيء فهو حر ولكن عندما يتقدم للشيء ليأخذه نقول له: لا . وهنا تدخل القوانين أو يتدخل الدين يقول شخص: إني رأيت فلانًا أحببته، والحب ليس بالعقل فهو قدر. أي إنك عندما رأيته أدركته وأحببته، أي دخل هناك شيء في وجدانك من ناحيته، وبعد ذلك ماذا؟ فأنا أريد أن أعطيه خير الدنيا على أن يكون ملكك لا تأخذ من مال الناس، وتظلم الناس له.

وإذا كنت أنا أبغض شخصًا ما، لك الحق في أن تبغضه، ولكن عندما يأتي أمامك لا تظلمه، إذن التشريع يتدخل متى؟ إنه لا يتدخل في عملية الوجدان، وإنما في عملية النزوع فقط فيقول له: لا، قف هنا. إلا في مسألة واحدة، وهو ما يتعلق بنظر الرجل إلى مفاتن المرأة، يقول له صحيح أنه لا أتدخل في النظر، أو في الوجدان بأن يستقر إعجابك بها، ولكني أتدخل عندما تتقدم ناحيتها، أقول لك: لا.

فالحق الذي خلقنا، وعرف غرائزنا، وعرف عواطفنا، وعرف مشاعرنا، وأحاسيسنا، يقول الآن سأتدخل في هذه المسألة في أول خطوة، ولا أتركك تدرك حتى لا تجد في نفسك، بعد ذلك إن تركتك تدرك وتجد في نفسك. لا أستطيع أن أتدخل في عملية النزوع، لأن هذه عملية صعبة، وخصوصًا فيما يتعلق بالغرائز فرحمة بك، أنا سأتدخل من أول الأمر فأقول لك: لا «بلاش إدراك» لأنك ستتعب نفسك وبعد ذلك تكون بين أمرين:

إما أن تنفلت من القوانين وتؤدي المراد منك حين تعجب بأي شيء، وبذلك يفسد المجتمع ويدنس وتصبح سلالاته كلها سلالات فاسدة، سلالات حرام.

وإما أن يكبت في نفسه، وتتولد له العقد، إذن متى لا يحدث هذا؟ سأتدخل في التشريع من أول الأمر، وأمنعك عن النزوع من أول خطوة، وإلا فستجد في نفسك، وإذا ما وجدت في نفسك، فمن العسير أن أمنعك عن النزوع، لأن كل هذه عمليات عاطفية متوالية، فأنت تنزع في شيء، ومن الممكن أن أمنعك. أما في العمليات العاطفية لا أستطيع أن أمنعك وأعوقك ساعة النزوع، فمن الأفضل لك أن تغض طرفك حتى لا ترى فلا تجد شيئًا في قلبك، وعندما لا تجد شيئًا في قلبك، فلن تحدث عندك عملية النزوع وكذلك قال للمرأة غضي الطرف وهو نفس المعنى. إذن فالتشريع إنما يتدخل من أول مظاهر الشعور فيما يتعلق بهذه المسألة. وبعد ذلك قال: إن المسلمة لا مانع أن

تخرج لأي عمل من أعمالها، ولما قيل للمؤمنين أن يغضوا من أبصارهم، فمعنى ذلك أيضًا؟ أن هناك شيئًا يمكن أن يرى، وقيل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن. ما معنى ذلك أيضًا؟ إن هناك شيئًا ممكنًا أن أراه، والمهم أن المرأة لا تلفت إلى نفسها بالزينة والبهجة لكن المرأة فيها أشياء من الضروري عندما تكون موجودة أو خارجة من منزلهم أن تظهر منها، فقال: أنا أعطي للأمور قدرها ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾(١)، أي بمعنى أن المرأة تتزين بخاتم أو بكحل وأن تتزين بسوار، فإذا كان حرم الزينة فالمكان الذي حرمت الزينة فيه يصبح أحق أن لا يظهر، وبين لنا أن المجتمع قد يوجد فيه رجال ضعاف الإيمان، وطبعًا عندما يرى منظرًا من المناظر التي تروقه وتعجبه يتهيج فإذا ما كان المظهر الذي يراه متبرجًا بالزينة فيقولون: ما دامت متبرجة بالزينة وتبدي محاسنها، فمعنى ذلك إنها تثير الشك، ولكن عندما تكون ماشية في حشمتها وفي وقارها وفي اتزانها لا يجرؤ ضعيف الإيمان أن يفعل شيئًا، وكذلك الله يقول لرسوله ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾(٢) ا.هـ.

هذا، وقد سُئل الإمام الشعراوي - رحمه الله-:

ما حكم الدين في النساء اللاتي تغيرن أشكالهن بالإصباغ ووسائل التجميل؟

---

(١) [النور: ٣١].

(٢) [الأحزاب: ٥٩].

فأجاب:

أننا نرى بعض النساء يقمن بإجراءات لتغيير أشكالهن بالمساحيق أو شد الجلد أو غيرها من الوسائل المعروفة.

والتي تفعل ذلك تنسى أن الجمال إبداع تقاسيم، فإذا بالجمال في حاجب كثيف أو أنف طويل أو بشرة سمراء أو شعر مرسل.

إن الله سبحانه وتعالى كما وزع الأمزجة على العباد وزع أيضًا أسلوب الخلق بما يغطي هذه الأمزجة ويلبي احتياجاتها فنرى فتاة لا يتقدم إليها شاب ليتزوج بها لأنها لا تعجبه، هذا الرفض يحل محله قبول من طرفين آخرين للطرفين المرفوضين.

فالله الذي أنشأ السيال العاطفي هو الذي أبدع خلقه ليوائم هذا السيال مع الخلق.

وقد تحاول امرأة أن تغير من خلق الله فتسبب بذلك فساداً للسيال العاطفي، وقد نشاهد المرأة وقد وضعت على وجهها أصباغًا متعددة الألوان، لتوهم زوجها شكل معين من الجمال، كيف بها حينما يراها وقد غسلت وجهها في الصباح وضاع كل ما خدعته به من ألوان وأصباغ، وكيف بها حين تتقدم بها السن وتكون المساحيق المتوالية على جسمها منذ صدور شبابها قد سدت جميع المسام في الجلد وعاقت عملية التنفس منه، إنما بسوء فعلها قد غيرت خلق الله.

إنها عملية خديعة كبرى لا توهم الآخرين فحسب بغير الواقع وإنما هي توهم النفس بأنها ذات شكل غير ما عليه صاحبتها.

إن الله خلق الناس على أشكالهم لأن هذا يحدث التوازن بين الرجال والنساء وكل من يحاول تغيير شكله رجلاً أو امرأة إنما هو ضد هذا التوازن في

خلق الله، ولن يفيده هذا التغيير قليلاً أو كثيراً، لأن هذا التغيير ضد الفطرة التي خلق الله الناس عليها.

وللمرأة أن تتجمل لزوجها وأن تبدي له زينتها، ولكن بشرط ألا تغير من خلقتها التي خلقها الله عليها.

* * *

الصفة السابعة: راضية بقسمة الله تعالى لها

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال:

«لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه»(١).

والمرأة الجاحدة لنعم الله، الكفور بإحسان الزوج: طلاقها راحة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء إبراهيم ﷺ بأم إسماعيل، وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هناك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟! فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يُضيعنا . ثم رجعت . فانطلق إبراهيم ﷺ، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، فرفع يديه فقال: ﴿**رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ**﴾ حتى بلغ ﴿**يشكرون**﴾. وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء، عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط- فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم

---

(١) **حديث صحيح**: رواه النسائي، وغيره.

أتت المروة، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا. ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس ﷺ: قال النبي ﷺ: «**فذلك سعي الناس بينهما**».

فلما أشرفت على المروة، سمعت صوتًا، فقالت: صه!- تريد نفسها- ثم تسمعت، فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه- أو قال: بجناحه- حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف. وفي رواية: بقدر ما تغرف.

قال ابن عباس ﷺ، قال النبي ﷺ: «**رحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم- أو قال: لو لم تغرف من الماء، لكانت زمزم عينًا معينًا**» قال: فشربت، وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ههنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعًا عن الأرض تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقه من جرهم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جريًا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا، فأخبروهم، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فألفى ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأنس**»، فنزلوا، فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل، يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا- وفي رواية: يصيد لنا- ثم سألها عن عيشهم

وهيئتهم، فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك، اقرئي عليه السلام، وقولي له: يغير عتبة بابه! فلما جاء إسماعيل، كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك، فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك. فطلقها، وتزوج منهم أخرى. فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد. فلم يجده، فدخل على امرأته، فسأل عنه، قالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله تعالى. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: ما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: «**ولم يكن يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه**». قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

وفي رواية: فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد. فقالت امرأته: ألا تنزل فتطعم وتشرب؟ قال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم وشرابنا الماء. قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم. قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «**بركة دعوة إبراهيم صلى الله عليه وسلم**». قال: فإذا جاء زوجك، فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك، فأخبرته. فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنع

كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد. قال: يا إسماعيل! إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعينني. قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن ابني بيتًا هاهنا، وأشار إلى أكمةٍ مرتفعةٍ على ما حولها، فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧][١].

* * *

(١) أخرجه البخاري.

الصفة الثامنة: لا تصوم صوم تطوع إلا بإذن زوجها

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه»[١].

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى- في شرحه لهذا الحديث:

قوله ﷺ: **«لا تصم المرأة وبعلها[٢] شاهد إلا بإذنه»**[٣]هذا محمول على صوم التطوع والمندوب الذي ليس له زمن معين، وهذا النهي للتحريم صرح به أصحابنا، وسببه أن الزوج له حق الاستمتاع بها في كل الأيام، وحقه فيه واجب على الفور فلا يفوته بتطوع ولا بواجب على التراخي. فإن قيل: فينبغي أن يجوز لها الصوم بغير إذنه، فإن أراد الاستمتاع بها كان له ذلك ويفسد صومها، فالجواب أن صومها يمنعه من الاستمتاع في العادة لأنه يهاب انتهاك الصوم بالإفساد.

وقوله ﷺ: «وزوجها شاهد» أي مقيم في البلد، أما إذا كان مسافرًا فلها الصوم لأنه لا يتأتى منه الاستمتاع إذا لم تكن معه»[٤] اهـ.

الصفة: لا تمنع زوجها من نفسها:

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

---

(١) متفق عليه.

(٢) البعل: الزوج.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم بشرح النووي (٧/ ٩٥).

«والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها حتى يرضى عنها»(١).

قال الإمام النووي: «هذا دليل على تحريم امتناعها من فراشه لغير عذر شرعي، وليس الحيض بعذر في الامتناع؛ لأن له حقًّا في الاستمتاع بها فوق الإزار.

ومعنى الحديث: أن اللعنة تستمر عليها حتى تزول المعصية بطلوع الفجر والاستغناء عنها أو بتوبتها ورجوعها إلى الفراش(٢) ا.هـ.

وعن عبد الله بن أبي أوفى ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها، ولو سألها نفسها وهي على قتب(٣)، لم تمنعه نفسها»**(٤).

وعن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال:

«إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح»(٥).

وينبغي على الزوج أن يراعي أحوال زوجته وظروفها حتى لا يضطرها إلى معصيته ومخالفته، وبحسن التفاهم يتم الانسجام، والله ولي التوفيق.

الصفة: حفظ مال زوجها:

فلا تنفق شيئًا من بيته إلا بإذنه.. فعن أبي أمامة الباهلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته عام حجة الوداع:

---

(١) رواه مسلم (١٤٣٦).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٠/٩).

(٣) قتب: رحل صغير.

(٤) حديث صحيح: رواه ابن ماجه.

(٥) متفق عليه.

«لا تنفق امرأة شيئًا من بيت زوجها إلا بإذن زوجها».

قيل: يا رسول الله ولا الطعام؟.

قال: «ذلك أفضل أموالنا»[١].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا:

«لا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها»[٢].

فإن تصدقت بإذن زوجها، فلها الثواب كاملاً من غير أن ينقص من أجر زوجها شيء!

فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال:

«إذا تصدقت المرأة من بيت زوجها كان لها به أجر، وللزوج مثل ذلك وللخازن مثل ذلك، ولا ينقص كل واحد منهم من أجر صاحبه شيئًا، له بما كسب، ولها بما أنفقت»[٣].

هذا، وينبغي عليها أن تقنع بما قسم الله لزوجها من رزق، ولا تحمله فوق طاقته وقدرته حتى لا تدفعه إلى تناول الحرام وهلاك دينه.

قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وكانت عادة النساء في السلف: كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته: إياك وكسب الحرام فإنا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار!

---

(١) حديث حسن: رواه الترمذي.

(٢) حديث صحيح: رواه النسائي، وغيره، وصححه الشيخ / أحمد شاكر.

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

الصفة التاسعة: لا تظهر ما أمر الله تعالى بإخفاءه

يقول الحق سبحانه لرسوله:

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] .

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله تعالى-:

والزينة: هي الأمر الزائد عن الحد في الفطرية؛ لذلك يقولون للمرأة الجميلة بطبيعتها والتي لا تحتاج إلى أن تتزين: غانية[2] يعني:

غنيت بجمالها عن التزين فلا تحتاج إلى كحل في عينيها، ولا أحمر في خديها، لا تحتاج أن تستر قلبها[3] بأسورة، ولا صدرها بعقد.. إلخ.

فإن كانت المرأة دون هذا المستوى احتاجت لشيء من الزينة، لكن العجيب أنهن يُبالغن في هذه الزينة حتى تصبح كاللافتة النيون على كشك خشبي مائل، فترى مسنات يضعن هذا الألوان وهذه المساحيق، فيظهرن في صورة لا تليق؛ لأنه جمال مصطنع وزينة متكلفة يسمونها تطرية، وفيها قال المتنبي، وهو يصف جمال المرأة البدوية وجمال الحضرية:

---

(١) [النور: ٣١].

(٢) الغانية: الجارية الحسناء.

(٣) القلب: سوار المرأة.

حسن الحضارة مجلوب بتطرية   وفي البداوة حسن غير مجلوب[١]

ومن رحمة الله بالنساء أن قال ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ.. ﴾ [النور: ٣١] قال: ﴿ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا.. ﴾ [النور: ٣١] يعني: الأشياء الضرورية، فالمرأة تحتاج لأن تمشي في الشارع، فتظهر عينيها وربما فيها كحل مثلاً، وتظهر يدها وفيها خاتم أو حناء، فلا مانع أن تظهر مثل هذه الزينة الضرورية.

لكن لا يظهر منها القرط مثلاً؛ لأن الخمار يستره ولا (الديكولتيه) أو العقد أو الأسورة أو الدملك ولا الخلخال، فهذه زينة لا ينبغي أن تظهر، إذن: فالشارع أباح الزينة الطبيعية شريطة أن تكون في حدود، وأن تقصر على من جعلت من أجله.

ونلحظ في قوله تعالى: ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. ﴾ [النور: ٣١] المراد تغطية الزينة، فالجارحة التي تحتها من باب أولى، فالزينة تُغطي الجارحة، وقد أمر الله بستر الزينة، فالجارحة من باب أولى.

وقوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ .. ﴾ [النور: ٣١].

الخمر: جمع خمار، وهو غطاء الرأس الذي يسدل ليستر الرقبة والصدر، الجيوب: جميع جيب، وهو الفتحة العليا للثوب ويسمونها (القبة) والمراد أن يستر الخمار فتحة الثوب ومنطقة الصدر، فلا يظهر منها شيء.

والعجيب أن النساء تركن هذا الواجب، بل ومن المفارقات أنهن يلبسن القلادة ويعلقن بها المصحف الشريف، إنه تناقض عجيب يدل على عدم الوعي وعدم الدراية بشرع الله منزل هذا المصحف.

وتأمل دقة التعبير القرآني في قوله تعالى ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ .. ﴾ [النور: ٣١] والضرب هو: الوقع بشدة، فليس المراد أن تضع المرأة الطرحة على رأسها

---

(١) الحضارة: الإقامة في الحضر. والحضر خلاف البادية.

وتتركها هكذا للهواء، إنما عليها أن تحكمها على رأسها وصدرها وتربطها بإحكام.

لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة: رحم الله نساء المهاجرات، لما نزلت الآية لم يكن عندهم خمر، فعمدن إلى المروط فشقوها وصنعوا منها الخمر(١).

إذن: راعى الشارع الحكيم زي المرأة من أعلى، فقال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ..﴾ [النور: ٣١] ومن الأدنى فقال: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ..﴾ [الأحزاب: ٥٩].

ثم يقول تعالى: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ..﴾ [النور: ٣١] أي: أزواجهن؛ لأن الزينة جُعلت من أجلهم ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ..﴾ [النور: ٣١] أبو الزوج، إلا أن يخاف منه الفتنة، فلا تبدي الزوجة زينتها أمامه.

معنى ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ..﴾ [النور: ٣١] أي: النساء اللائي يعملن معها في البيت كالوصيفات والخادمات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ..﴾ [النور: ٣١] والمراد هنا أيضًا ملك اليمين من النساء دون الرجال..

ويشترط في هؤلاء النساء أن يكن مسلمات، فإن كن كافرات كهؤلاء الذين يستقدمونهن من دول أخرى، فلا يجوز للمرأة أن تبدي زينتها أمامهن، وأن تعتبرهن في هذه المسألة كالرجال، لأنهن غير مسلمات وغير مؤتمنات على المسلمة، وربما ذهبت فوصفت ما رأت من سيدتها للرجل الكافر فينشغل بها.

ومن العلماء من يرى أن ملك اليمين لا يخص النساء فقط، إنما الرجال

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٥٨)، (٤٧٥٩)، والمروط: جمع مرط وهو كساء يؤتزر به وتتلفع به المرأة.

أيضًا، فللمرأة أن تبدي زينتها أمامهم، قالوا: لأن هناك استقبالاً عاطفيًا وامتناعًا عاطفيًا في النفس البشرية، فالخادم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ.. ﴾ [الكهف: ٢٠] يعني: إن علموا بكم وعرفوا مكانكم.

والثاني: بمعنى يعلو ويغلب ويقهر، كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف: ٩٧] أي: السد الذي بناه ذو القرنين، فالمعنى: ما استطاعوا أن يعلوه ويرتفعوا عليه.

وهنا ﴿ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ.. ﴾ [النور: ٣١] يعني: يعرفونها ويستبينونها، أو يقدرون على مطلوباتها، فليس لهم علم أو دراية بهذه المسائل.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ.. ﴾ [النور: ٣١].

الحق - تبارك وتعالى- يكشف ألاعيب النساء وحيلهن في جذب الأنظار، فإذا لم يلفتك إليها النظر لفتك الصوت الذي تحدثه بمشيتها كأنها تقول لك: يا بجم اسمع، يا للي ما نتاش شايف اسمع، وفي الماضي كن يلبسن الخلخال الذي يحدث صوتًا أثناء المشي، والآن يجعلن في أسفل الحذاء ما يحدث مثل هذا الصوت أثناء المشي، وأول من استخدم هذه الحيل الراقصات ليجذبن إليهن الأنظار.

ومعلوم أن طريقة مشي المرأة تبدي الكثير من زينتها التي لا يراها الناس، وتسبب كثيرًا من الفتنة؛ لذلك يقول تعالى بعدها وفي ختام هذه المسائل: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

لم يقل الحق تبارك وتعالى: يا من أذنبتم بهذه الذنوب التي سبق الحديث عنها، إنما قال ﴿ جَمِيعًا.. ﴾ [النور: ٣١] فحث الجميع على التوبة؛ ليدل على أن كل ابن آدم خطاء، ومهما كان المسلم متمسكًا ملتزمًا فلا يأمن أن تفوته هفوة

هنا أو هناك، والله- عز وجل- الخـالق والأعلم بمن خلق؛ لذلك فتح لهم باب التوبة وحثهم عليها، وقال لهم: ما عليكم إلا أن تتوبوا، وعلي أنا الباقي .

* * *

الصفة العاشرة: لا تعتدي على جنينها

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله تعلى-:

أراد سبحانه أن يُحدثنا عن الحياة في أصلها، فأمر باستبقاء النسل، ونهى عن قتله فقال تعالى:

﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً ﴾[1].

والخالق سبحانه يحذرنا: إياكم أن تدخلوا مسألة الزرق في حسابكم؛ لأنكم لم تخلقوا أنفسكم، ولم تخلقوا أولادكم ولا ذريتكم.

بل الخالق سبحانه هو الذي خلقكم وخلقهم، وهو الذي استدعاكم واستدعاهم إلى الوجود، وما دام هو سبحانه الذي خلق، وهو الذي استدعى إلى الوجود فهو المتكفل برزق الجميع، فإياك أن تتعدى اختصاصك، وتدخل أنفك في هذه المسألة، وخاصة إذا كانت تتعلق بالأولاد.

وقوله تعالى ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ .. ﴾ [الإسراء: ٣١].

القتل: إزهاق الحياة، وكذلك الموت. ولكن بينهما فرق يجب ملاحظته:

فالقتل: إزهاق الحياة بنقض البنية؛ لأن الإنسان يتكون من بنية بناها الخالق سبحانه وتعالى، وهي أجهزة الجسم، ثم يعطيها الروح فتنشأ فيها الحياة.

فإذا ضرب إنسان إنسانًا آخر على رأسه مثلاً، فقد يتلف مخه فتنتهي حياته، لكن تنتهي بنقض البنية التي بها الحياة، لأن الروح لا تبقى إلا في جسم له مواصفات خاصة، فإذا ما تغيرت هذه الصفات فارقته الروح.

---

(١) [الإسراء: ٣١].

أما الموت: فيبدأ بمفارقة الروح للجسد، ثم تُنقض بنيته بعد ذلك. وتتلف أعضاؤه، فالموت يتم في سلامة الأعضاء.

إذن: المنهي عنه في الآية القتل؛ لأنه من عمل البشر، وليس الموت. وقد أوضح القرآن الكريم هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ..﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فالقتل غير الموت، القتل اعتداء على بنية إنسان آخر وهدم لها. وقوله تعالى: ﴿أَوْلادَكُمْ..﴾ [الإسراء: ٣١].

الأولاد تُطلق على الذكر والأنثى، ولكن المشهور في استقصاء التاريخ أنهم كانوا يئدون البنات خاصة دون الذكور، وفي القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

لأنهم في هذه العصور كانوا يعتبرون الذكور عونًا وعدة في معترك الحياة، وما يملؤها من هجمات بعضهم على بعض، كما يرون فيهم العزوة والامتداد. في حين يعتبرون البنات مصدرًا للعار، خاصة في ظل الفقر والعوز والحاجة، فلربما يستميل البنت ذو غنى إلى شيء من المكروه في عرضها، وبهذا الفهم يؤول المعنى إلى الرزق أيضًا.

وقوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ..﴾ [الإسراء: ٣١].

أي: خوفًا من الفقر، والإملاق: مأخوذة من ملق وتملق، وكلها تعود إلى الافتقار؛ لأن الإنسان لا يتملق إنسانًا إلا إذا كان فقيرًا لما عنده محتاجًا إليه، فيتملقه ليأخذ منه حاجته.

وقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم..﴾ [الإسراء: ٣١].

وفي هذه الآية ملمح لطيف يجب التنبيه إليه وفهمه لنتمكن من الرد على أعداء القرآن الذين يتهمونه بالتناقض.

الحق سبحانه وتعالى يقول هنا: ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ..﴾[الإسراء: ٣١].

أي: خوفًا من الفقر، فالفقر- إذن- لم يأت بعد، بل هو محتمل الحدوث في مستقبل الأيام، فالرزق موجود وميسور، فالذي يقتل أولاده في هذه الحالة غير مشغول برزقه، بل مشغول برزق أولاده في المستقبل؛ لذلك جاء الترتيب هكذا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ..﴾[الإسراء: ٣١] أولاً: لأن المولود يولد ويولد معه رزقه، فلا تنشغلوا بهذه المسألة؛ لأنها ليست من اختصاصكم.

ثم: ﴿وَإِيَّاكُم..﴾[الإسراء: ٣١].

أي: إن رزق هؤلاء الأبناء مقدم على رزقكم أنتم. ويمكن أن يفهم المعنى على أنه: لا تقتلوا أولادكم خوفًا من الفقر، فنحن نرزقكم من خلالهم، ومن أجلهم.

ونهتم بتوضيح هذه المسألة؛ لأن أعداء الدين الذين ينقبون في القرآن عن مأخذ يرون تعارضًا أو تكرارًا بين هذه الآية التي معنا وبين آية أخرى تقول: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ..﴾[الأنعام: ١٥١].

ونقول لهؤلاء: لقد استقبلتم الأسلوب القرآني بغير الملكة العربية في فهمه، فأسلوب القرآن ليس صناعة جامدة، بل هو أسلوب بليغ يحتاج في فهمه وتدبره إلى ذوق وحس لغوي.

وإذا استقبلتم كلام الله استقبالاً سليمًا فلن تجدوا فيه تعارضًا ولا تكرارًا، فليست الأولى أبلغ من الثانية، ولا الثانية أبلغ من الأولى، بل كل آية بليغة في موضوعها؛ لأن الآيتين وإن تشابهتا في النظرة العجلى لكن بينهما فرق في المعنى كبير، فآية الإسراء تقول: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم..﴾[الإسراء: ٣١].

وقد أوضحنا الحكمة من هذا الترتيب: نرزقهم وإياكم.

أما في آية الأنعام: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ..﴾ [الأنعام: ١٥١].

فلا بد أن نلاحظ أن للآية صدراً وعجزاً، ولا يصح أن تفهم أحدهما دون الآخر، بل لا بد أن تجمع في فهم الآية بين صدرها وعجزها، وسوف يستقيم لك المعنى ويخرجك من أي إشكال.

وما حدث من هؤلاء أنهم نظروا إلى عجزي الآيتين، وأغفلوا صدريهما، ولو كان الصدر واحداً في الآيتين لكان لهم حق فيما ذهبوا إليه، ولكن صدري الآيتين مختلفان:

الأولى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ..﴾ [الإسراء: ٣١].

والأخرى: ﴿مِنْ إِمْلاَقٍ..﴾ [الأنعام: ١٥١].

والفرق واضح بين التعبيرين: فالأول: الفقر غير موجود؛ لأن الخشية من الشيء دليل أنه لم يحدث، ولكنه متوقع في المستقبل، وصاحبه ليس مشغولاً برزقه هو، بل برزق من يأتي من أولاده.

أما التعبير الثاني: ﴿مِنْ إِمْلاَقٍ..﴾ [الأنعام: ١٥١].

فالفقر موجود وحاصل فعلاً، والإنسان هنا مشغول برزقه هو لا برزق المستقبل، فناسب هنا أن يقدم الآباء في الرزق عن الأبناء.

وما دام الصدر مختلفًا، فلا بد أن يختلف العجز، فأين التعارض إذن؟ وهناك ملحظ آخر في الآية الكريمة، وهو أن النهي مخاطب به الجمع: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ..﴾ [الإسراء: ٣١].

فالفاعل جمع، والمفعول به جمع، وسبق أن قلنا: إن الجمع إذا قوبل بالجمع تقتضي القسمة آحاداً، فالمعنى: لا يقتل كل واحد منكم ولده. كما يقول المعلم للتلاميذ: أخرجوا كتبكم. والمقصود أن يخرج كل تلميذ كتابه.

فإن قال قائل: إن الآية تنهي أن يقتل الأب ولده خوفًا من الفقر، لكنها لا تمنع أن يقتل الأب ولد غيره مجاملة له، وهو الآخر يقتل ولد غيره مجاملة له.

نقول: لا.. لأن معنى الآية ألا يقتل كل الآباء كل الأولاد، فينسحب المعنى على أولادي وأولاد غيري، وهذا هو المراد بمقابلة الجمع بالجمع. أما لو قلنا: إن المعنى: تجاملني وتقتل لي ابني، وأجاملك وأقتل لك ابنك، فهذا لا يستقيم؛ لأن المقابلة هنا ليست مقابلة جمع بجمع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٣١].

خطئًا مثل خطأ، وهو الإثم والذنب العظيم. وتأتي بالكسر وبالفتح كما نقول: خذوا حذركم، وخذوا حَذَركم.

وكلمة: ﴿خِطْئًا..﴾ [الإسراء: ٣١].

الخاء والطاء والهمزة تدل على عدم موافقة الصواب، لكن مرة يكون عدم موافقة الصواب لأنك لم تعرف الصواب، ومرة أخرى لم توافق الصواب لأنك عرفت الصواب، ولكنك تجاوزته.

فالمعلم حينما يصوب للتلاميذ أخطاءهم أثناء العام الدراسي نجده يوضح للتلميذ ما أخطأ فيه، ثم يصوب له هذا الخطأ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن أعلم تلميذه بالقاعدة التي يسير عليها، ولكن التلميذ قد يغفل عن هذه القاعدة فيقع في الخطأ.

وهنا لا مانع أن نصوب له خطأه ونرشده؛ لأنه ما يزال في زمن الدرس والتعلم والترويض والتدريب.

لكن الأمر يختلف إن كانت هذه الأسئلة في امتحان آخر العام، فالمعلم يبين الخطأ، ولكنه لا يصححه، بل يقدره بالدرجات التي تحسب على التلميذ،

وتنتهي المسألة بالنجاح لمن أصاب، وبالفشل لمن أخطأ؛ لأن آخر العام أصبح لديه قواعد ملزمة، عليه أن يسير عليها.

وكلمة (خطئًا أو خطأ) مأخوذة من خطا خطوة، وتعني الانتقال بالحركة، فإذا كان الصواب هو الشيء الثابت الذي استقر عليه وتعارف الناس عليه، ثم تجاوزته وانتقلت عنه إلى غيره، فهذا هو الخطأ أي: الخطوة التي جعلتك تتجاوز الصواب.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ..﴾ [البقرة: ١٦٨].

لأنه ينقلكم عن الشيء الثابت المستقر في شريعة الله.

والشيء الثابت هنا هو أن الخالق سبحانه خلق الإنسان وكرمه ليكون خليفة له في الأرض ليعمرها، ويقيم فيها بمنهج الخالق سبحانه، فكيف يستخلفك الخالق سبحانه، وتأتي أنت لتقطع هذا الاستخلاف بما تحدثه من قتل الأولاد، وهم بذور الحياة في المستقبل؟

حتى لو أخذنا بقول من ذهب إلى أن (أولادكم) المراد بها البنون دون البنات، وسلمنا معه جدلاً أنك تميت البنات، وتبقى على الذكور، فما الحال إذا كبر هؤلاء الذكور وطلبوا الزواج؟! وكيف يستمر النسل بذكر دون أنثى؟!

إذن: هذا فهم لا يستقيم مع الآية الكريمة، لأن النهي هنا عن قتل الأولاد، وهم البنون والبنات معًا.

وقد وصف الحق سبحانه الخطأ هنا بأنه كبير، فقال: ﴿خِطْئًا كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٣١].

ذلك لأنه خطأ من جوانب متعددة:

أولها: أنك بالقتل هدمت بنيان الله، ولا يهدم بنيان الله إلا الله.

ثانيها: أنك قطعت سلسلة التناسل في الأرض، وقضيت على الخلافة التي استخلفها الله في الأرض.

ثالثها: أنك تعديت على غريزة العطف والحنان؛ لأن ولدك بعض منك، وقتله يجردك من كل معاني الأبوة والرحمة، بل والإنسانية.

وهكذا وضع الحق سبحانه لنا ما يضمن بقاء النسل واستمرار خلافة الإنسان لله في أرضه، بأن نهى كل والد أن يقتل ولده، ونهى كل الآباء أن يقتلوا كل الأولاد ا.هـ.

فتوى للإمام الأكبر الشيخ/ جاد الحق علي جاد الحق- شيخ الأزهر- بشأن الإجهاض:

قال - رحمه الله- بعد نظره في كلام أئمة المذاهب:

نستخلص من العرض السابق المبادئ الآتية:-

١- فقهاء المذاهب جميعًا على أن إسقاط الجنين (دون عذر بعد نفخ الروح فيه) محظور شرعًا، ومعاقب عليه قانونًا.

٢- التعقيم لمنع الإنجاب نهائيًا - دون مسوغ شرعي- محرم شرعًا.

٣- الالتجاء إلى وقف الحمل للعيوب الوراثية جائز.

٤- يجوز إسقاط الحمل- ولو نفخت فيه الروح- في حالة إنقاذ الأم من خطر محقق وبناء على طلبها، وبعد تقرير الطبيب المختص أن بقاء الحمل في بطنها خطر على حياتها أو عند ولادتها.

هذا وقد أكد هذا مجمع البحوث الإسلامية في الجلسة رقم (٧) من الدورة رقم (٣٠) والرقم العام للمحضر ٢٢١ بتاريخ ١٩ من شوال سنة ١٤١٤ هـ الموافق ٣١/ ٣ / ١٩٩٤م حيث قرر:

(أنه يمتنع إسقاط الحمل مطلقًا إلا إذا كان هناك سبب طبي تقتضيه المحافظة على حياة الأم؛ لأنها أصله وحياتها متحققة، وقد استقرت حياتها، ولها حظ مستقل في الحياة، كما أن لها وعليها حقوقًا، فلا يضحى بالأم في سبيل جنين لم تستقل حياته بعد، بل هو في الجملة كعضو من أعضائها).

وهذا القرار اختيار للراجح في مذهب الإمام مالك الذي منع الإجهاض مطلقًا.

وبعد أن جرى في هذا المحضر مناقشة وضع الحمل، وأنه محترم في كل الأطوار أي منذ تمام التلقيح.

لما كان ذلك:

وبهذا الاعتبار- أي متى استقر الجنين بتمام التلقيح في الرحم- امتنع إجهاضه بأية وسيلة من الوسائل المؤدية إلى إسقاطه من بطن أمه قبل تمام دورته الرحمية إلا إذا دعت الضرورة لهذا الإجهاض؛ حفظًا لحياة الأم، ودرءًا للخطر عنها، كما إذا كانت المرأة الحامل عسرة الولادة، وقرر الأطباء المتخصصون أن بقاء الحمل ضار بها، فعندئذ يباح الإجهاض، بل إنه يصير واجبًا حتمًا إذا كان يتوقف عليه حياة الأم عملاً بقاعدة (يزال الضرر الأشد بالضرر الأخف)[1]، وبعبارة أخرى إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضررًا بارتكاب أخفهما، ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة أوردها الفقهاء.

ولا شك أنه إذا دار الأمر بين موت الحامل بسبب الحمل وبين هذا الحمل وإسقاطه، كان الأولى بقاء الأم؛ لأنها الأصل، ولا يضحى بها في سبيل إنقاذ الجنين لاسيما وحياة الأم مستقرة، ولها وعليها حقوق، وهو بعد لم تستقل

(١) الأشباه والنظائر لابن نجيم الحنفي المصري في القاعدة الخامسة، وإتحاف الأبصار والبصائر بترتيب الأشباه والنظائر في الحظر والإباحة.

حياته، بل هو في الجملة كعضو من أعضائها وقد أباح الفقهاء قطع العضو المتآكل، أو الجزء المريض بمرض لا شفاء منه حماية لباقي الجسم..

وإذا كان ذلك، وكان الإجهاض بعد نفخ الروح قتلاً للنفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق لم تكن العيوب التي تكتشف بالجنين مبررًا- شرعًا- لإجهاضه أيًّا كانت درجة هذه العيوب، من حيث إمكان علاجها طبيًّا أو جراحيًّا أو عدم إمكان ذلك لأي سبب كان متى أخذ في الاعتبار أن التطور العلمي التجريبي دل على أن بعض الأمراض والعيوب قد تبدو في وقت مستعصية على العلاج ثم يستظهر لها العلاج والإصلاح، وسبحان الله الذي علم الإنسان ما لم يعلم بل يعلمه بقدر درجة استعداده ووسائله.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[١].

وإذا كانت الأمراض والعيوب وراثية أمكن- لمنع انتشارها في الذرية- الالتجاء إلى وقف الحمل مؤقتًا أو نهائيًّا حسب الأحوال دون حاجة للإجهاض.

أما اكتشاف العيوب- المسئول عنها في الصور المطروحة بالسؤال- بالجنين قبل نفخ الروح فيه فإنه قد تقدم بيان أقوال الفقهاء في الإجهاض في هذه المرحلة والرأي فيها، كما تقدم الرأي الذي انتهى إليه مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف من اختيار مذهب الإمام مالك بمنع الإجهاض مطلقًا على نحو ما سبق تأصيله.

والله- سبحانه وتعالى - أعلم. اهـ[٢].

---

(١) [الإسراء: ٨٥].

(٢) «بحوث وفتاوى إسلامية في قضايا معاصرة» لفضيلته (٥/ ٩٨-١٠١).

من فتاوى الإمام الشعراوي- رحمه الله- بشأن طفل الأنابيب والتعقيم:

سُئل - رحمه الله-:

هل ما يحدث بخصوص أطفال الأنابيب خروج عن شريعة الله، وتحد لإرادته؟

فأجاب:

ما الخروج على شريعة الله في هذا؟ وما الذي فعله هؤلاء العلماء؟ إنهم يأخذون بويضة المرأة وحيوان الإخصاب من الرجل، ويهيئون مناخًا مناسبًا ومرحليًّا، لوجود عطب عند الزوجة، مما لا يسمح لها بالحمل في تلك المرحلة، ثم يعيدون الأمور بعد ذلك إلى طبيعتها.

فما الذي اخترعوه من عندهم؟ ولو كان الأمر تحديًا لقلنا لهم: هاتوا بويضة وحيوانًا منويًّا من عندكم.

وهذه المحاولات وجدت أساسًا لحل مشكلات مرضية عند بعض السيدات، فتحاول أن تقلد المثال الصالح الذي أعطاه الله لنا، فنجعل للأنابيب البيئة، ودرجة الحرارة والرطوبة، وكل شيء فيها مماثلاً لرحم الأم الطبيعي الموجودة في الأصل.

إذن أنا آخذ مصنوعًا لله لأضعه في بيئة على وفق مصنوع لله، فأنا استلهم من الله، فأين التحدي هنا؟

ولكن يأتي الكلام إذا أخذنا بويضة المرأة لحيوان منوي لغير الزوج، ففي هذه الحالة لمن ينسب الطفل؟ وفيما عدا ذلك فلا شيء مطلقًا[1].

وسُئل: ما حكم الدين في أولاد «أنابيب الاختبار»؟.

(١) هذه عملية محفوفة بالمخاطر، من يضمن الضمائر اليوم؟ أصبحت للبيع!!

فـأجاب: لا خطأ في ذلـك، ما دام الميكروب يؤخـذ من زوج ليـوضع في رحم زوجته، لأسباب يراها الطب وأهل الاختصاص.

ولكن الخطأ ينشأ: إذا كـان مطلق ميكروب تضـعه في رحم المرأة.. هذا لا يجوز شرعًا!!

التعقيم وربط الأنابيب:

وسُئل: ما حكم الدين في التعقيم وربط الأنابيب؟

فأجـاب: حرام حرام بالإجـماع، لأي سبب حتى ولو خـاف الجراح انفـجار الرحـم.. ذلك لأن علم الطبـيب غيـر علم الله، والمرأة ليـست آلة أو ميكانيكا والأطباء لا يعرفون متى سيرزقها الله العافية.

والذي يجترئ عليها سيحوجه الله إليهم (إلى النسل) ويزيل الله كل من معه فيحتاج للنسل مرة أخرى.

* * *

الصفة الحادية عشرة: ترضع ولدها من لبنها

قال الحق- سبحانه -:-

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1] .

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله-:

انظر إلى عظمة الإسلام ها هو ذا الحق سبحانه يتكلم عن إرضاع الوالدات لأولادهن بعد عملية الطلاق، فالطلاق يورث الشقاق بين الرجل والمرأة، والحق سبحانه وتعالى ينظر للمسألة نظرة الرحيم العليم بعباده، فيريد أن يحمي الثمرة التي نتجت من الزواج قبل أن يحدث الشقاق بين الأبوين، فيبلغنا: لا تجعلوا شقاقكم وخلافكم وطلاقكم مصدر تعاسة للطفل البريء الرضيع.

وهذا كلام عن المطلقات اللاتي تركن بيوت أزوجهن، لأن الله يقول بعد ذلك: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وما دامت الآية تحدثت عن «رزقهن وكسوتهن» فذلك يعني أن المرأة ووليدها بعيدة عن الرجل، لأنها لو كانت معه لكان رزق الوليد وكسوته أمرًا مفروغًا منه. والحق سبحانه يفرض هنا حقًا للرضيع، وأمًا لم تكن تستحقه لولا الرضاع. وبعض الناس

---

(١) [البقرة: ٢٣٣].

فهموا خطأ أن الرزق والكسوة للزوجات عمومًا ونقول لهم: لا إن الرزق والكسوة هنا للمطلقات اللاتي يرضعن فقط.

ويريد الحق سبحانه أن يجعل هذا الحق أمرًا مفروغًا منه، فشرع حق الطفل في أن يتكفله والده بالرزق والكسوة حتى يكون الأمر معلومًا لديه حال الطلاق.

وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ نلحظ فيه أنه لم يأت بصيغة الأمر فلم يقل: يا والدات أرضعن، لأن الأمر عرضة لأن يطاع وأن يعصي، لكن الله أظهر المسألة في أسلوب خبري على أنها أمر واقع طبيعي ولا يخالف.

ويقول الحق: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ ولنتأمل عظمة الأداء القرآني في قوله: «وعلى المولود له» إنه لم يقل: «وعلى الوالد» وجاء بـ «المولود له» ليكلفه بالتبعات في الرزق والكسوة، لأن مسئولية الإنفاق على المولود هي مسئولية الوالد وليست مسئولية الأم، وهي قد حملت وولدت وأرضعت والولد ينسب للأب في النهاية يقول الشاعر:

فإنما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللآباء أبناء

وما دام المولود منسوبًا للرجل الأب، فعلى الأب رزقه وكسوته هو وعليه أيضًا رزق وكسوة أمه التي ترضعه بالمعروف المتعارف عليه بما لا يسبب إجحافًا وظلمًا للأب في كثرة الإنفاق، ويقول الحق ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هنا الحديث عن الأم والأب. فلا يصح أن ترهق المطلقة والد الرضيع بما هو فوق طاقته، وعليها أن تكتفي بالمعقول من النفقة.

ويتابع الحق: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ ولا زال الحق يُذكر الأب بأن المولود له هو، وعليه ألا يضر والدة الطفل بمنع الإنفاق على ابنه، وألا يتركها تتكفف الناس من أجل رزقه وكسوته، وفي الوقت نفسه يذكر

الأم: لا تجعلي رضيعك مصدر إضرار لأبيه بكثرة الإلحاح في طلب الرزق والكسوة.

إنه عز وجل يضع لنا الإطار الدقيق الذي يكفل للطفل حقوقه، فهناك فرق بين رضيع ينعم بدفء الحياة بين أبوين متعاشرين، ووجوده بين أبوين غير متعاشرين.

والحق سبحانه وتعالى يعطينا لفتة أخرى هي أن والد المولود قد يموت فإذا ما مات الوالد فمن الذي ينفق على الوليد الذي في رعاية أمه المطلقة؟ هنا يأتينا قول الحق بالجواب السريع: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾.

إن الحق يقرر مسئولية الإنفاق على من يرث والد الرضيع، صحيح أن الرضيع سيرث في والده، لكن رعاية الوليد اليتيم هي مسئولية من يرث الوصاية وتكون له الولاية على أموال الأب إن مات. وهكذا يضمن الله عز وجل حق الرضيع عند المولود له وهو أبوه إذا كان حيًّا، وعند من يرث الأب إذا توفي.

وبذلك يكون الله عز وجل قد شرع لصيانة أسلوب حياة الطفل في حال وجود أبويه، وشرع له في حال طلاق أبويه وأبوه حي، وشرع له في حال طلاق أبويه ووفاة أبيه. ويتابع الحق: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

انظر إلى الرحمة في الإسلام؛ فطلاق الرجل لزوجته لا يعني أن ما كان بينهما قد انتهى، ويضيع الأولاد ويشقون بسبب الطلاق، فقوله تعالى: ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ دليل على أن هناك قضية مشتركة ما زالت بين الطرفين وهي ما يتصل برعاية الأولاد، وهذه القضية المشتركة لا بد أن يلاحظ فيها حق الأولاد في عاطفة الأمومة، وحقهم في عاطفة الأبوة، حتى ينشأ الولد وهو غير محروم من حنان الأم أو الأب، وإن اختلفا حتى الطلاق.

إن عليهما أن يلتقيا بالتشاور والتراضي في مسألة تربية الأولاد حتى يشعروا بحنان الأبوين، ويكبر الأولاد دون آلام نفسية، ويفهمون أن أمهم تقدر ظروفهم، وكذلك والدهم وبرغم وجود الشقاق والخلاف بينهما فقد اتفقا على مصلحة الأولاد بتراضٍ وتشاور.

إن ما يحدث في كثير من حالات الطلاق من تجاهل للأولاد بعد الطلاق هي مسألة خطيرة؛ لأنها تترك رواسب وآثارًا سلبية عميقة في نفوس الأولاد، ويترتب عليها شقاؤهم وربما تشريدهم في الحياة. وما ذنب أولاد كان الكبار هم السبب المباشر في مجيئهم للحياة؟ أليس من الأفضل أن يوفر الآباء لهم الظروف النفسية والحياتية التي تكفل لهم النشأة الكريمة؟ إن منهج الله أمامنا فلماذا لا نطبقه لنسعد به وتسعد الأجيال القادمة؟

والحق سبحانه وتعالى قال في أول الآية: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ لكن ماذا يكون الحال إن نشأت ظروف تقلل من فترة الرضاعة عن العامين، أو نشأت ظروف خاصة جعلت فترة الرضاعة أطول من العامين؟ يقول الحق: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

إنه جل وعلا يبين لنا أن الفصال أي الفطام يجب أن يكون عن تراضٍ وتشاور الوالدين ولا جناح عليهما في ذلك. ويقول الحق: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾، و «أن تسترضعوا أولادكم» أي أن تأتوا للطفل بمرضعة، فإن أردتم ذلك فلا لوم عليكم في ذلك. إن المطلق حين يوكل إلى الأم أن ترضع وليدها فالطفل يأخذ من حنان الأم الموجود لديها بالفطرة، لكن هب أن الأم ليست لديها القدرة على الإرضاع أو أن ظروفها لا تسعفها على أن ترضعه لضعف في صحتها أو قوتها، عند ذلك فالوالد مطالب أن يأتي لابنه بمرضعة، وهذه المرضعة التي ترضع الوليد تحتاج إلى أن يعطيها الأب ما يسخيها ويجعلها تقبل على إرضاع الولد بأمانة، والإشراف عليه بصدق.

ويختم الحق هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ إن الحق يحذر أن يأخذ أحد أحكامه ويدعى بظاهر الأمر تطبيقها، لكنه غير حريص على روح هذه الأحكام، مثال ذلك الأب الذي يريد أن يدلس على المجتمع، فعندما يرى الأب مرضعة ابنه أمام الناس فهو يدعى أنه ينفق عليها، ويعطيها أجرها كاملاً، ويقابلها بالحفاوة والتكريم بينما الواقع يخالف ذلك.

إن الله يحذر من يفعل ذلك: أنت لا تعامل المجتمع وإنما تعامل الله ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

عقاب من تمنع ولدها لبنها لغير عذر شرعي:

عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«بينا أنا نائم إذ أتاني رجلان، فأخذا بضبعي، فأتيا بي جبلاً وعرًا، فقالا: اصعد، فقلت: إني لا أطيقه، فقالا: إنا سنسهله لك».

فصعدت، حتى إذا كنت في سواء الجبل، إذا بأصوات شديدة، قلت: ما هذه الأصوات؟ قالوا: هذا عواء أهل النار ثم انطلق بي، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم، مشققة أشداقهم، تسيل أشداقهم دمًا. قال: قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يفطرون قبل تحلة صومهم. فقال: خابت اليهود والنصارى.

ثم انطلق بي، فإذا أنا بقوم أشد شيء انتفاخًا، وأنتنه ريحًا، وأسوأه منظرًا.

فقلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزانون والزواني.

ثم انطلق بي، فإذا أنا بنساء تنهش ثديهن الحيات.

قلت: ما بال هؤلاء؟ قال: هؤلاء يمنعن أولادهن ألبانهن.

ثم انطلق بي، فإذا أنا بالغلمان يلعبون بين نهرين.

قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذراري المؤمنين.

ثم شرف شرفًا، فإذا أنا بنفر ثلاثة يشربون من خمر لهم.

قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء جعفر وزيد، وابن رواحة.

ثم شرفني شرفًا آخر، فإذا أنا بنفر ثلاثة.

قلت من هؤلاء؟ قال هؤلاء إبراهيم وموسى وعيسى، وهم ينتظرونك صلى الله عليهم أجمعين. ثم انطلقنا فإذا نحن برجال أحسن شيء وجهًا، وأحسنه لبوسًا، وأطيبه ريحًا، كأن وجوههم القراطيس. قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الصديقون والشهداء والصالحون.

ثم انطلقنا فإذا نحن بموتى أشد شيء انتفاخًا، وأنتنه ريحًا قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء موتى الكفار.

ثم انطلقنا فإذا نحن نرى دخانًا ونسمع عواءً.

قلت: ما هذا؟

قال: هذه جهنم فدعها.

ثم انطلقنا، فإذا نحن برجال نيام تحت ظلال الشجر. قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء موتى المسلمين»[1].

* * *

(١) حديث صحيح: أخرجه ابن حبان (١٨٠٠)، والحاكم (١/ ٤٣٠) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

الصفة الثانية عشرة: الاقتصاد في المعيشة

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله- عقب هذه الآية:

﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

والمأكل والمشرب من الأمور المباحة لأن فيها مقومات الحياة، وكل واشرب على قدر مقومات الحياة ولا تسرف، فقد أحل الله لك الأكثر وحرم عليك الأقل، فلا تتجاوز الأكثر الذي أحل لك إلى ما حرم الله؛ لأن هذا إسراف على النفس، بدليل أنه لو لم تجد إلا الميتة، فهي حلال لك بشرط ألا تسرف. ولا يصح أن تنقل الأشياء من تحليل إلى تحريم؛ لأن الله جعل لك في الحلال ما يغنيك عن الحرام، فإذا لم يوجد ما يغنيك، فالحق يحل لك أن تأخذ على قدر ما يحفظ عليك حياتك، والمسرفون هم المتجاوزون الحدود. ولا سرف في حل، إنما السرف يكن في الشيء المحرم، ولذلك جاء في الأثر:

«لو أنفقت مثل أحد ذهبًا في حل ما اعتبرت مسرفًا، ولو أنفقت درهمًا واحدًا في محرم لاعتبرت مسرفًا».

ولذلك يطلب منك رسول الله ﷺ أن تعطي كل نعمة حقها بشرط ألا يؤدي بك ذلك إلى البطر.

* * *

الصفة الثالثة عشرة: تهتم بتربية أولادها

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«كلكم راعٍ ومسئول عن رعيته، الإمام راع، ومسئول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسئول عن رعيته»[١].

قال الإمام الشعراوي- رحمه الله- عن أهمية تربية الطفل في حضن أمه:

نذهب بعيدًا؟ إننا عندما نتبع كيفية النشأة الجماعية للأطفال في إسرائيل فالبحوث العلمية تؤكد على أن الأطفال يعيشون في بؤس رهيب لدرجة أن التبول اللاإرادي ينتشر بينهم حتى سن الشباب.

وكيف يغيب عن بالنا أن الطفل يظل حتى تصل سنه إلى عامين أو أكثر وهو يطلب ألا يشاركه في أمه أحد، حتى وإن كان أخًا له فهو يغار منه فما بالك بأطفال متعددين تقوم امرأة ليست أمهم برعايتهم؟ ولا يغني عن حنان الأم حنان مائة مربية؛ فليس للمربيات جميعًا قلب الأم التي ولدت الطفل، فالحنان الذي تعطيه الأم ليس حنانًا شكليًا ولا وظيفيًا، ولكنه طبيعة حياة خلقها الله لتعطي العطاء الصحيح، لذلك لا بد من إعطاء الطفل فترة يشعر فيها بأن أمه التي ولدته له وحده، ولا يشاركه فيها أحد حتى لو كان أخًا له، وتمر عليه فترة بعد أن يخرج من مهد الطفولة الأولى إلى الشارع ليجد حركة الحياة، ويجد القائمين على حركة الحياة هم الرجال وآباء أمثاله من الأطفال فيحب بعد ذلك أن ينسب إلى أب له كيان معروف في المجتمع الخارجي.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

فمن مقومات تكوين الطفل أن يشعر أن له أمًّا لا يشاركه فيها أحد، وأن له أبًا لا يشاركه فيه أحد. وإن شاركه فيهما أحد فهم إخوته ويضمهم ويشملهم جميعًا حنان الأم ورعاية الأب. لقد اعترف أهل العلم بتربية الأطفال أن احتياج الطفل لأمه هو احتياج هام وأساسي للتربية لمدة عامين وبضعة من الشهور، والحق تبارك وتعالى حين أنزل على رسوله قبل أربعة عشر قرنًا من الآن؛ القول الحكيم الصادق بين هذه الحقيقة واضحة في أجلي صورها:

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

إن الأم هي الحاضنة الطبيعية للطفل كما أرادها الحق. إذن، فالحق يريد أن يحمى اللبنة الأولى في تكوين المجتمع وهي الأسرة في البناء العقدي من أن تتأثر بالشرك، ويريد أن يحفظ للأسرة كيانًا سليمًا.

* * *

الصفة الرابعة عشرة: القيام على رعاية زوجها وخدمته

وفي «الصحيحين» أن فاطمة رضي الله عنها أتت النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقى في يديها من الرحى، وتسأله خادمًا فلم تجده، فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرته.

قال علي: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال: «**مكانكما**»، فجاء فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على بطني، فقال: «**ألا أدلكما على ما هو خير لكما مما سألتما، إذا أخذتما مضاجعكما فسبحا الله ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وكبرا أربعًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم**»(١). قال علي: فما تركتها بعد، قيل: ولا ليلة صفين؟ قال ولا ليلة صفين.

وصح عن أسماء(٢) أنها قالت: كنت أخدم الزبير(٣) خدمة البيت كله، وكان له فرس، وكنت أسوسه، وكنت أحتش له، وأقوم عليه(٤).

وصح عنها أنها كانت تعلف فرسه، وتسقي الماء، وتخرز الدلو، وتعجن، وتنقل النوى على رأسها من أرض له على ثلثي فرسخ(٥).

فاختلف الفقهاء في ذلك، فأوجب طائفة من السلف والخلف خدمتها له في مصالح البيت، وقال أبو ثور: عليها أن تخدم زوجها في كل شيء، ومنعت طائفة وجوب خدمته عليها في شيء، وممن ذهب إلى ذلك مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأهل الظاهر، قالوا: لأن عقد النكاح إنما اقتضى الاستمتاع، لا

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) هي: أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها

(٣) هو الزبير بن العوام رضي الله عنه

(٤) صحيح: أخرجه أحمد.

(٥) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

الاستخدام وبذل المنافع، قالوا: والأحاديث المذكورة إنما تدل على التطوع ومكارم الأخلاق، فأين الوجوب منها؟

واحتج من أوجب الخدمة، بأن هذا هو المعروف عند من خاطبهم الله سبحانه بكلامه، وأما ترفيه المرأة، وخدمة الزوج، وكنسه، وطحنه، وعجنه، وغسيله، وفرشه، وقيامه بخدمة البيت، فمن المنكر، والله تعالى يقول:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال سبحانه: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤].

وإذا لم تخدمه المرأة، بل يكون هو الخادم لها، فهي القوامة عليه.

وأيضًا: فإن المهر في مقابلة البُضع، وكل من الزوجين يقضي وطره من صاحبه، فإنما أوجب الله سبحانه نفقتها وكسوتها ومسكنها في مقابلة استمتاعه بها وخدمتها، وما جرت به عادة الأزواج.

وأيضًا: فإن العقود المطلقة إنما تنزل على العرف، والعرف خدمة المرأة، وقيامها بمصالح البيت الداخلة، وقولهم: إن خدمة فاطمة وأسماء كانت تبرعًا وإحسانًا يرده أن فاطمة كانت تشتكي ما تلقى من الخدمة، فلم يقل لعلي: لا خدمة عليها، وإنما هي عليك، وهو ﷺ لا يحابي في الحكم أحدًا، ولما رأى أسماء والعلف على رأسها، والزبير معه، لم يقل له: لا خدمة عليها، وإن هذا ظلم لها، بل أقره على استخدامها، وأقر سائر أصحابه على استخدام أزواجهم مع علمه بأن منهن الكارهة والراضية، هذا أمر لا ريب فيه.

ولا يصح التفريق بين شريفة ودنيئة، وفقيرة وغنية، فهذه أشرف نساء العالمين، كانت تخدم زوجها، وجاءته تشكو إليه الخدمة، فلم يشكها، وقد سمى النبي ﷺ في «الحديث الصحيح» المرأة عانية، فقال:

«اتقوا الله في النساء، فإنهن عوان عندكم». والعاني: الأسير، ومرتبة

الأسير خدمة من هو تحت يده، ولا ريب أن النكاح نوع من الرق، كما قال بعض السلف: النكاح رق، فلينظر أحدكم عند من يرق كريمته. ولا يخفي على المنصف الراجح من المذهبين، والأقوى من الدليلين» اهـ[(١)].

قلت: ولا مانع من قيام الزوج ببعض مهام البيت في أوقات فراغه أسوة بنبيه ﷺ:

فقد كان هديه ﷺ في بيته مع أزواجه أحسن الهدى وأتمه وأكمله، فقد كان يقضي عامة وقته الذي في بيته في مهنة أهله، ومساعدتهم في أعمالهم، رفقًا بهم، ورحمة وشفقة عليهم:

فعن الأسود بن يزيد، قال:

سألت عائشة ﵂ ما كان النبي ﷺ يصنع في البيت؟

قالتْ: كان في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج[(٢)].

وعن عمرة قالت: قيل لعائشة: ماذا كان يفعل رسول الله ﷺ في بيته؟ قالت:

«كان بشرًا من البشر؛ يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه»[(٣)].

وهذا من كمال خلقه، وحسن تواضعه، فصلوات ربي وسلامه عليه.

قال الإمام الغزالي- رحمه الله تعالى-:

«فيجب على الزوج أن يعلم زوجته: أحكام الصلاة وما يقضي منها في الحيض وما لا يقضي، فإنه أُمر أن يقيها النار بقوله تعالى:

---

(١) «زاد المعاد» (٥/ ١٨١-١٨٣).

(٢) رواه البخاري.

(٣) صحيح: رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» وصححه الألباني في «مختصر الشمائل» (٢٩٣).

﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

فعليه أن يلقنها اعتقاد أهل السنة، ويزيل عن قلبها كل بدعة إن استمعت إليها، ويخوفها في الله إن تساهلت في أمر الدين، ويعلمها من أحكام الحيض والاستحاضة ما تحتاج إليه وعلم الاستحاضة يطول؛ فأما الذي لا بد من إرشاد النساء إليه في أمر الحيض: بيان الصلوات التي تقضيها، فإنها مهما انقطع دمها قُبيل المغرب بمقدار ركعة فعليها قضاء الظهر والعصر، وإذا انقطع قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء، وهذا أقل ما يراعيه النساء، فإن كان الرجل قائمًا بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء، وإن قصر علم الرجل ولكن ناب عنها في السؤال فأخبرها بجواب المفتي فليس لها الخروج، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك ويعصي الرجل بمنعها، ومهما تعلمت ما هو من الفرائض عليها فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذكر ولا إلى تعلم فضل إلا برضاه، ومهما أهملت المرأة حُكمًا من أحكام الحيض والاستحاضة ولم يعلمها الزوج حرج الزوج معها وشاركها في الإثم»[(١)].

❋ ❋ ❋

(١) «الإحياء» (٢/ ٤٨).

الصفة الخامسة عشرة: الإحداد على الزوج

قال تعالى:-

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(١).

قال الإمام الشعراوي -رحمه الله-:

والعدة - كما عرفنا - هي الفترة الزمنية التي شرعها الله بعد زواج انتهى بطلاق أو بوفاة الزوج. والعدة إما أن تكون بعد طلاق، وإما بعد وفاة زوج، فإن كانت العدة بعد طلاق فمدتها ثلاثة قروء، والقرء- كما عرفنا - هو الحيضة أو الطهر، فإن كانت المطلقة صغيرة لم تحض بعد أو كانت كبيرة تعدت سن الحيض فالعدة تنقلب من القروء إلى الأشهر وتصبح «ثلاثة أشهر».

وعرفنا أن من حق الزوج أن يراجع زوجته بينه وبين نفسه دون تدخل الزوجة أو ولي أمرها، له ذلك في أثناء فترة العدة في الطلاق الرجعي، فإن انتهت عدتها فقد سقط حقه في مراجعة الزوجة بنفسه، وله أن يراجعها، ولكن بمهر وعقد جديدين ما دام قد بقي له حق أي لم تستنفد مرات الطلاق.

وقد قلنا: إن تعدت الطلقات اثنتين وأصبحت هناك طلقة ثالثة فلا بد من زوج آخر يتزوجها بالطريقة الطبيعية لا بقصد أن يحللها للزوج الأول. وأما عدة المتوفي عنها زوجها فقد عرفنا أن القرآن ينص على أنها تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشراً، هذا إن لم تكن حاملاً، فإن كانت حاملاً فعدتها أبعد الأجلين، فإن كان الأجل الأبعد هو أربعة أشهر وعشراً فتلك عدتها، وإن كان الأجل

(١) [البقرة: ٢٣٤].

الأبعد هو الحمل فعدتها أن ينتهي الحمل. لكن أليس من الجائز أن يموت زوجها وهي في الشهر التاسع من الحمل فتلد قبل أن يدفن؟ وهل يعني ذلك أن عدتها انتهت؟ لا، إنها تنتهي بأبعد الأجلين وهو في هذه الحالة مرور أربعة أشهر وعشراً، وإن قال بعض الفقهاء: إن عدة الحامل بوضع الحمل.

لكن إذا لم يكن زوجها متوفي عنها فعدتها أن تضع حملها، وإن شاءت أن تتزوج بعد ذلك فلها ذلك ولو بعد لحظة. وبعض الناس يفسرون الحكمة من جعل عدة المتوفي عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً، فيقولون: لأنها إن كانت حاملاً بذلك فسيظهر حملها عندما يتحرك بعد ثلاثة أشهر، وإن كانت حاملاً بأنثى فستتحرك بعد أربعة أشهر ونعطيه مهلة عشر ليالٍ.

ونقول لهم: جزاكم الله خيراً على تفسيركم، لكن العدة هنا ليست لاستبراء الرحم؛ لأنها لو كانت لاستبراء الرحم لانتهت عدة المرأة بمجرد ولادتها. ولو كان الأمر للتأكد من وجود حمل أو عدمه، لكانت عدتها ثلاث حيضات إن كانت من ذوات الحيض، وإن كانت من غير ذوات الحيض لصغر أو لكبر سن لكانت عدتها ثلاثة أشهر. لكن الله اختصها بأربعة أشهر وعشر وفاءً لحق زوجها عليها وإكرامًا لحياتهما الزوجية.

إذن فالله عز وجل جعل المتوفي عنها زوجها تتربص أقصى مدة يمكن أن تصبر عليها المرأة . فالمرأة ساعة تكون متوفى عنها زوجها لا تخرج من بيتها ولا تتزين ولا تلقى أحداً وفاءً للزوج، فإذا انتهت عدتها أي مضت عليها الأربعة الأشهر والعشرة، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ وهو يعني أن تتزين في بيتها وتخرج دون إبداء زينة وأن يتقدم لها من يريد خطبتها. وقوله تعالى: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ والمقصود بهذه المدة أربعة أشهر وعشر ليال.

وهنا لفتة تشريعية إيمانية تدل على استطراق كل حكم شرعي في جميع المكلفين وإن لم يكن الحكم ماسًّا لهم؛ فالمتوفي عنها زوجها تربصت أربعة أشهر

وعشراً وبلغتها في مدة العـدة، وكان من حكم الله عليها ألا تتزين وألا تكتحل وألا تخرج من بيـتهـا وفاءً لحق زوجهـا فإذا بلغت الأجل وانتـهى قال: ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ ولم يقل: فلا جناح عليهن.

لقد وجه الخطاب هنا للرجال؛ لأن كل مؤمن له ولاية على كل مؤمنة، فإذا رأى في سلوكها أو أسلوب عنايتـها بنفسها ما ينافي العـدة فله أن يتدخل. مثلاً إذا رآها تتزين قال لهـا أو أرسل إليها من يقول لهـا: لماذا تتزينين؟ إن قول الله: ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يجعل لـلرجال قوامـة على المتوفي عنهـا زوجهـا، فلا يقولون: لا دخل لنـا؟ لأن الحكم الإيماني حكم مستطرق فـي كل مؤمن وعلى كل مؤمن. فالحق سبحانه وتعالى:

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

إن قوله الحق: «تـواصوا» لا يعني أن قومًـا خُصـوا بأنهم يُوصون غـيرهم وقومًا آخرين يُوصيهم غـيرهم، بل كل واحد منا موصٍ في وقت؛ وموصى من غيره في وقت آخر، هذا هو معنى «وتواصوا».

فإذا رأيت في غـيرك ضعـفًا في أي ناحيـة من نواحي أحكام الله، فلك أن توصيـه، وكذلك إن رأى غيـرك فيك ضعـفًا في أي ناحيـة من النواحي فله أن يوصيك، وعندما نتواصى جميعًا لا يبقى لمؤمن بيننا خطأ ظاهر.

إذن فالآية لا تخص بالوصـاية جماعة دون أخرى إنما الـكل يتواصون، لأن الأغيـار البشرية تتناوب الناس أجـمعين. فأنت في فـترة ضعـفي رقيب علي، فتـوصيني. وأنا في فتـرة ضعفك رقـيب عليك، فأوصيك. ولذلك جـاء قول الحق: ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ إنه سـبحـانه لم يوجـه الخطاب للنسـاء، ولكن خـاطب به المؤمنين ولم يخص بالخطاب أوليـاء أمور النسـاء فحـسب وإنما ترك الحكم للجميع حـتى لا يقول أحد: لا علاقة لي بالمرأة التي توفي عنهـا زوجها

ولتفعل ما تشاء. إن لها أن تتزين بالمتعارف عليه إسلاميًّا في الزينة، ولها أن تتجمل في حدود ما أذن الله لها فيه.

ويختتم الحق هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾أي والله أعلم بما في نفسها وبما في نيتها. وهب أنها فعلت أي فعل على غير مرأى من أحد فلا تعتقد أن المجتمع وإن لم يشهد منها ذلك أن المسألة انتهت، لا، إن الله عليم بما تفعل وإن لم يطلع عليها أحد من الناس.

إن الحق سبحانه وتعالى قد حمى بكل التشريعات السابقة حق الزوج حتى تنتهي العدة، وحق المتوفي عنها زوجها في أثناء العدة، وحمى أيضًا بكل التشريعات كرامة المرأة. وجعل المرأة حرمًا لا يقترب منه أحد يخدش حجابها، إن عليها عدة محسوبة في هذا الوقت لرجل آخر، فلا يحق لأحد أن يقترب منها.

لماذا؟ لأن المرأة خاصة إذا كانت مطلقة قد تتملكها رغبة في أن تثأر لنفسها ولكرامتها، وربما تعجلت التزوج، وربما كانت مسائل الافتراق أو الخلاف ناشئة عن اندساس رغبة راغب فيها، وبمجرد أن يتم طلاقها وتعيش فترة العدة فقد يحوم حولها الراغبون فيها، أو تستشرف هي من ناحيتها من تراه صالحًا كزوج لها، ولذلك يفرض الحق سياجًا من الزمن ويجعل العدة كمنطقة حرام ليحمي المرأة حماية موضوعية لا شكلية.

* * *

القول الجامع في آداب المرأة

قال الإمام الغزالي في «الإحياء» (٢/ ٥٩، ٦٠) ما مختصره:

«والقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويل: أن تكون قاعدة في قعر بيتها لا يكثر صعودها واطلاعها، قليلة الكلام لجيرانها، تحفظ بعلها في غيبته، وتطلب مسرته في جميع أمورها، ولا تخونه في نفسها وماله، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، همها صلاح شأنها وتدبير بيتها، مقبلة على صلاتها وصيامها، وإذا استأذن صديق بعلها على الباب وليس البعل حاضراً لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام غيرة على نفسها وبعلها، وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله، وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها، متنظفة في نفسها، مستعدة في الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء، مشفقة على أولادها، حافظة للستر عليهم، قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج.

ومن آدابها: أن لا تتفاخر على الزوج بجمالها ولا تزدري زوجها لقبحه، فقد روي أن الأصمعي قال:

دخلت البادية فإذا أنا بامرأة من أحسن الناس وجهًا تحت رجل من أقبح الناس وجهًا، فقلت لها:

يا هذه أترضين لنفسك أن تكوني تحت مثله؟

فقالت: يا هذا اسكت فقد أسأت في قولك، لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه فجعلني ثوابه، أو لعلى أسأت فيما بيني وبين خالقي فجعله عقوبتي أفلا أرضى بما رضي الله لي؟! فأسكتتني.

ومن آداب المرأة: ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها، ولا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال.

ومما يجب عليها من حقوق النكاح: إذا مات عنها زوجها أن لا تحد عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر، وتتجنب الطيب والزينة في هذه المدة، قالت زينب بنت أبي سلمة:

دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب، فدعت بطيب فيه صفر خلوق أو غيره، فدهنت به جارية، ثم مست بعارضيها، ثم قال:

والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»[١]، ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدة، وليس لها الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا لضرورة.

ومن آدابها: أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها، فقد ثبت عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها أنها قالت:

تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال ولا مملوك، ولا شيء غير فرسه وناضحه فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه وأدق النوي لناضحه وأعلفه وأستقي الماء وأخرز غربه وأعجن، وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ حتى أرسل إلي أبو بكر بجارية فكفتني سياسة الفرس فكأنما أعتقتني[٢].

❋ ❋ ❋

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم. والناضح: البعير الذي يحمل عليه الماء.

العلاج الشرعي للشقاق بين الزوجين

إذا تعقدت الأمور بين الزوجين، وتفاقم الخلاف بينهما، ما الحل؟

يقول الحق - سبحانه -:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾(١).

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله-:

وقوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ يعني أن الشقاق لم يقع بعد، إنما تخافون أن يقع الشقاق، وما هو «الشقاق»؟ الشقاق مادته من الشق، وشق: أي أبعد شيئًا عن شيء، شققت اللوح: أي أبعدت نصفيه عن بعضهما، إذن فكلمة «شقاق بينهما» تدل على أنهما التحما بالزواج وصارا شيئًا واحدًا، فأي شئ يبعد بين الاثنين يكون «شقاقًا» إذ بالزواج والمعاشرة يكون الرجل قد التحم بزوجه هذا ما قاله الله:

﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١].

ويتأكد هذا المعنى في آية أخرى:

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وهذا يعني أن المرأة مظروفة في الرجل والرجل مظروف فيها. فالرجل ساتر عليها وهي ساترة عليه، فإذا تعداهما الأمر، يقول الحق: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ من الذين يخافون؟.. أهو ولي الأمر أم القرابة القريبة من أولياء أمورها وأموره؟ أي الناس الذين يهمهم هذه المسألة.

(١) [النساء: ٣٥].

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾

إنهم البيئة والمجال العائلي، إذن فلا ندع المسائل إلى أن يحدث الشقاق، كأن الإسلام والقرآن ينبهنا إلى أن كل أناس في محيط الأسرة يجب أن يكونوا يقظين إلى الحالات النفسية التي تعترض هذه الأسرة، سواءً أكان أبًا أم أخًا أم قريبًا عليه أن يكون متنبهًا لأحوال الأسرة ولا يترك الأمور حتى يحدث الشقاق بدليل أنه قال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ .. فالشقاق لم يحدث، ويجب ألا تترك المسألة إلى أن يحدث الشقاق ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا ﴾ وهذا القول هو لولي الأمر العام أيضًا إذا كانت عيونه يقظة إلى أن يشرف على علاقات كل البيوت، ولكن هذا أمر غير وارد في ضوء مسئوليات ولي الأمر في العصر الحديث. إذن فلابد أن الذي سيتيسر له تطبيق هذا الأمر هم البارزون من الأهل هنا وهناك، وعلى كل من لهم وجاهة في الأسرة أن يلاحظوا الخط البياني للأسرة، يقولون: نرى كذا وكذا.

ونأخذ حكمًا من هنا وحكمًا من هناك وننظر المسألة التي ستؤدي إلى عاصفة قبل أن تحدث العاصفة؛ فالمصلحة انتقلت إلى الزوجين إلى واحد من أهل الزوج وواحد من أهل الزوجة، فهؤلاء ليس بينهما مسألة ظاهرة بأدلتها، ولم تتبلور المشكلة بعد، وليس في صدر أي منهما حكم مسبق، ويجوز أن يكون بين الزوجين أشياء، إنما الحكم من أهل الزوج والحكم من أهل الزوجة ليس في صدر أي منهما شيء، وما دام الاثنان ستوكل إليهما مهمة الحكم. فلابد أن يتفقا على ما يحدث بحيث إذا رأى الاثنان أنه لا صلح إلا بأن تطلق، فهما يحكمان بالطلاق، والناس قد تفهم أن الحكم هم أناس يصلحون بين الزوجين فإن لم يعجبهم الحكم بقى الزوجان على الشقاق، لا . فنحن نختار حكمًا من هنا وحكمًا من هناك.

إن ما يقوله الحكمان لا بد أن ننفذه، فقد حصرت هذه المسألة في الحكمين

فقال: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾. فكأن المهمة الأساسية هي الإصلاح وعلى الحكمين أن يدخلا بنية الإصلاح، فإن لم يوفق الله بينهما فكأن الحكمين قد دخلا بألا يصلحا.

إن على كل حكم أن يخاف على نفسه ويحاول أن يخلص في سبيل الوصول إلى الإصلاح؛ لأنه إن لم يخلص فستنتقل المسألة إلى فضيحة له. فالذي خلق الجميع: الزوج والزوجة والحكم من أهل الزوج والحكم من أهل الزوجة قال: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾فليذهب الاثنان تحت هذه القضية، ويصرا بإخلاص على التوفيق بينهما؛ لأن الله حين يطلق قضية كونية، فكل واحد يسوس نفسه وحركته في دائرة هذه القضية. وحين يطلق الله قضية عامة فهو العليم الخبير، ومثال ذلك قوله:

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[الصافات: ١٧٣].

إنه سبحانه قال ذلك، فليحرص كل جندي على أن يكون جنديًا لله؛ لأنه إن انهزم فسنقول له: أنت لم تكن جنديًا لله، فيخاف من هذه. إذن فوضع القضية الكونية في إطار عقدي كي يجند الإنسان كل ملكاته في إنجاح المهمة، وعندما يقول الله: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾فإياك أن تغتر بحزم الحكمين، وبذكاء الحكمين، فهذه أسباب. ونؤكد دائمًا: إياك أن تغتر بالأسباب؛ لأن كل شيء من المسبب الأعلى، ولنلحظ دقة القول الحكيم: ﴿يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ فسبحانه لم يقل: إن يريدا إصلاحًا يوفقا بينهما. بل احتفظ سبحانه لنفسه بفضل التوفيق بين الزوجين.

ويذيل سبحانه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾أي بأحوال الزوج، وبأحوال الزوجة، وبأحوال الحكم من أهله، وبأحوال الحكم من أهلها، فهم محوطون بعلمه. وعلى كل واحد أن يحرص على تصرفه؛ لأنه مسئول عن كل حركة من الحركات التي تكتنف هذه القضية؛ فربنا عليم وخبير.

وما الرفق بين «عليم» و«خبير»؟. فالعلم قد تأخذه من علم غيرك إنما الخبرة فهي لذاتك.

* * *

الباب الرابع

فتاوى مهمة للزوجين

أجاب عنها:

الإمام الشعراوي - رحمه الله -

وسائل منع الحمل والإجهاض الغير شرعي:

سُئل الإمام- رحمه الله - عن وسائل منع الحمل والإجهاض الغير شرعي:

فأجاب:

«إن عملية الإجهاض غير الشرعي حرام قطعًا ولا داعي للاقتراب منها، وهذه جريمة يرتكبها الأطباء حديثو التخرج - عن غير قصد- وللطبيب عذره في ذلك إذ أنه يرى من واجبه الإنساني أن يجيب ملهوفة إلى طلبها ويخفف عنها أتراحها وهذه هي مهمته حقًّا الإنسانية النبيلة في إزالة المتاعب والمصاعب من النفوس الملتاعة، ومن ثم فإنه يبدو إنسانًا رحيمًا عطوفًا في غير مقتضى لذلك حتى أن هذه الرقة والعاطفة تسبب ازدياد الطين بلة وتفاقم من شدة الخطر، ثم قال الشيخ الشعراوي: دعوها تحترق، نحن نريد أن نطهر المجتمع من أمثال هذه القاذورات» ا. هـ.

وعن وسائل منع الحمل، قال:

إنها حلال مباحة بشرط أن تكون بقصد المحافظة على صحة الأم من عواصف مرض أو ويلات سقم بعيدًا عن مسألة الرزق، لأن الذين يتخذون من وسائل منع الحمل سببًا لتقليل حجوم عائلتهم، لا يعتمدون بذلك على الله، وبهذا يتصدع صرح إيمانهم في أعظم لبناته.

ثم قال: ممنوع استعمال أية وسيلة لمنع الحمل عدا (العازل) فإنه لا بأس فيه ولا ضرر منه، ولأنه لا يوافق على إدخال مادة كيماوية داخل جسم الأنثى.

الإسلام وعمل المرأة:

وسُئل: ما رأى فضيلتكم في خروج المرأة للعمل؟ وهل يبيح لها الإسلام أن تترك منزلها وأولادها وتمارس أحد الأعمال في الخارج؟

فأجاب: المرأة عندما تخرج من البيت للعمل، تعود مرهقة وتستقبل في المنزل زوجًا مرهقًا وأطفالاً مشتتين فتعاني من عذابات كثيرة.. عذابات الاغتراب، وعدم الانسجام مع الزوج وعدم القدرة على تربية الأبناء بالقدر الكافي من الحنان.

إن ثبات الحقيقة العلمية التي أوردها القرآن الكريم رضاعة الطفل من أمه هي تنمية له واستثمار في صحة المجتمع نفسه بتنشئة أطفال مشبعين بالحنان وبالمواد التي تبني أجسامهم بصحة وعافية. هذه الحقيقة العلمية التي اكتشوفها أخيراً هي التي دعت الحكومات إلى منح النساء إجازات لرعاية الأبناء.

وثبات الحقيقة العلمية التي تؤكد زيادة نسبة اضطراب المرأة عصبيًّا عندما لا تجد من يرعى ابنها في حضانة تمنحه مثلما تمنحه الأم .. ثبات تلك الحقيقة يؤكد أن رعاية الأم تفوق بالتأكيد أي رعاية أخرى.. وهذه الرعاية ليست أمرًا مفروضًا على الأم، بل هو أمر غرزي ترتوي به الأم عطاء لأبنائها كما يرتوي الأبناء أخذًا.

وثبات الحقيقة العلمية أن حنان الأم يعطي الأبناء ثقة بالنفس وصحبة الآباء تجعل الأبناء ينشأون على محبة الأسرة. تلك الحقيقة ثبتت في النظام الأسري للإسلام وافتقدها الغرب في هذه الأيام عندما رأى زيادة في أعداد المنحرفين بين شبابه.

وليس معنى ذلك أن الإسلام يحرم عمل المرأة. ولكن الإسلام يضع الأسس التي تسير عليها حياة الأفراد بانسجام واطمئنان.

فإذا كانت المرأة هي عائلة لأسرتها أو أن ظروف الحياة تفرض عليها العمل مشاركة للزوج فلتعلم أن ذلك- رغم أنه قد يفيد الأسرة في عاجل الأمر- يجعل الأسرة تدفع ثمنه انتقاصًا من راحتها واطمئنانها.

* * *

المرأة بين البيت والعمل

وسُئل: هل خروج المرأة للعمل يتعارض مع وظيفتها الأساسية وهي أن تكون ربة بيت. وما رأي فضيلتكم في ذلك؟

فأجاب: إن قيام الرجل بأنواع مطلوبة لحركة الحياة لا يقلل من قيمة المرأة التي عليها مهام كبيرة في أن يكون البيت منسجمًا وهادئًا يسكن فيه الرجل وينشأ فيه الأبناء.

وليس قيام المرأة بتربية الأبناء أو إدارة أمور المنزل بما يجعله سكنًا للزوج.. ليس هذا العمل هينًا.. لأن ذلك العمل تكريم للمرأة كوعاء للحياة.. إنها تحمل الطفل وترضعه وتربيه وتغذيه بالحنان والطعام.. وتدير أمور البيت ليكون مكانًا صالحًا لحياة الأسرة كلها.

وإذا كانت المرأة قد خرجت إلى العمل في العصر الحديث فلنا أن نلحظ أن طاقتها على إدارة بيتها تقل.. وأن رعايتها لأبنائها تقل وأن توترها يزداد وإحساسها بالذنب تجاه الأسرة يتغلب على مشاعرها.. ثم متاعب العمل مع متاعب البيت في آن واحد .. مما يجعلها تشكو من الإرهاق وتبدد سعادتها مع الانسجام المفروض أن تحققه مع أسرتها.. فهي في العمل مشغولة بالأسرة.

ومع الأسرة مشغولة بالعمل.. مما يفقد المرأة استقرارها النفسي.

إن العلم المعاصر قد عاد مرة أخرى للحديث عن ضرورة أن تكون المرأة ربة بيت ومتعلمة.. ولا يعني أن وظيفتها كربة بيت لا تحتاج إلى علم.. لا.. إنها تحتاج إلى علم كامل يشتمل الآن على تخصصات كثيرة في فروع العلم المعاصر.. وتكفي مهمة واحدة تنقسم الآن إلى علوم عديدة وهي التربية.

وإذا كان خروج المرأة إلى العمل لحاجة في المجتمع.. فعلينا أن نعرف أن

مثل هذا الخروج للعمل يبدد الكثير من طاقة المرأة في إدارة أمور البيت، ويفقد البيت معنى السكن. ولنا أن نقدر تضحية المرأة بخروجها إلى العمل لمساعدة المجتمع في اجتياز أزماته.. مع ضرورة الالتفات إلى أن المرأة التي حباها الله بزوج قادر على أن يجعلها تختص بمسئوليات تربية الأبناء.. هذه المرأة عليها أن تقبل على ذلك الأمر براحة وليس ذلك تقليلاً من شأن المرأة.

ولكنه تكريم لمهمة أساسية في المجتمع وهي تنشئة الأبناء بعيدًا عن ويلات افتقاد الأم في زحام العمل.

حكم قص المرأة لشعر رأسها:

وسُئل- رحمه الله-:

شاعت في عصرنا الحاضر ظاهرة تقصير النساء لشعرهن وأصبحنا نرى الواحدة تسير في الشارع حليقة الشعر مثل الرجل تمامًا فضلاً عن سفورها وخروجها متبرجة فما حكم الدين في هذه الظاهرة؟

فأجاب:

ينبغي على كل امرأة أن تعلم أن تشبهها بالرجال حرام وذلك لقول الرسول ﷺ: «**لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال**».

وكون المرأة تحلق رأسها فهو حرام لأنه تشبه بالرجال ولأن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك فعن سيدنا علي رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن تحلق المرأة رأسها.

وفضلاً عن أن هذا الفعل فيه تشبه بالرجال فهو خروج على طبيعة الأنثى وظهور بمظهر رديء يؤدي إلى نفور الرجال من المرأة وتبرج نهى الله عنه.

ولكن إذا ما ظهر في رأسها ما يحتم الحلق مثل ظهور تقرحات في جلدة الرأس أو غير ذلك فتلك ضرورة تبيح الحلق.

وقد سئل الإمام أحمد رضي الله عنه عن المرأة تعجز عن معالجة شعرها- أي العناية به ورعايته أتأخذه؟ يعني تقصر، أو تحلقه- لأي شئ تأخذه؟

فقيل له: لا تقدر على الدهن وما يصلح الشعر فقال: «إذا كان لضرورة فأرجو ألا يكون به بأس».

وهكذا يتضح أن حلق المرأة لشعرها بالصورة التي نراها الآن حرام حرام إلا لضرورة مرضية مع التزامها بتغطيته.

ملابس المرأة:

سألت إحدى الفتيات الإمام الشعراوي:

أنا فتاة مسلمة أؤدي الصلاة والتزم بالدين غير أنني لا أرتدي الحجاب وأرى أنه مقيد للحرية وقد يعيق الفتاة عن سرعة الزواج؟

فأجاب:

على الفتاة التي تزعم أن الدين يحجر عليها في لباسها وفي زينتها وفي حياتها أن تعلم جيداً أنه كيف أراد الدين أن يؤمن شيخوختها في الهرم وعند سن اليأس إذ أن أول صدمة تقع للمرأة عند سن اليأس وفي هذه الأوقات الحرجة عندما يخبو جمالها نراها محتاجة إلى عطف زوجها وحنانه وبره وهي ضعيفة مسكينة كثيرة التفكير في المصير المؤلم بعد كبرها.

فعلى كل فتاة أن تعلم أنها لن تظل فاتنة ساحرة طيلة عمرها فإذا ما ذبلت تلك الزهرة بتقدم العمر وفقدان جمالها هجرها من كان بالأمس يتغزل فيها أو يجري وراءها.

فالذي منعك أيتها الفتاة من السفور أراد أن يحافظ عليك فبمقدار ما أغوت الفتاة رجالاً بمقدار ما زهد فيها رجال وبمقدار ما رغب فيها أناس بمقدار ما رغب عنها أكثر منهم وبمقدار ما استمالت من نفوس فإن الله يذل آخر أيامها في الدنيا بأن ينصرف الكل عنها انصرافًا مزريًا محتقراً.

إذن فالله تعالى فرض على الفتاة الحجاب حتى يحفظها في صغرها كما يحفظها بفضل التزامها به أيضًا في كبرها.

* * *

فهرس كتاب

صفات الزوج الصالح والزوجة الصالحة

مقدمـة ٣

الباب الأول: مدخل مهم إلى موضوع الكتاب ٩

من أهداف الزواج في الإسلام ١٠

العفة .. تاج المؤمنين ١٥

الأولاد بقدر الله تعالى ٢٠

قوامة الرجل صيانة للمرأة ٢٢

صلاح الآباء ينفع الأبناء ٢٦

القصة الأولى: قصة موسى مع الخضر عليهما السلام ٢٦

القصة الثانية: قصة بقرة بني إسرائيل ٣٠

دور المرأة المسلمة في المجتمع ٤٣

الغاية من الولد عند الصالحين ٥٥

الأمر الأول: أن يكون عبداً لله وحده ٥٥

الأمر الثاني: حمل المنهج ٦٦

الأمر الثالث: لينفعه بعد موته ٩٣

الأمر الرابع: نيل الثواب ١٠١

المرأة المسلمة والغربية ١٠٦

الباب الثاني: صفات الزوج الصالح........................ ١٠٩

الصفة الأولى: حسن الاختيار........................ ١١٠

الأول: أهل الشرك........................ ١١٢

الصنف الثاني: أهل الزنا........................ ١٢١

الصفة الثانية: يأمر أهله بالصلاة........................ ١٢٣

الصفة الثالثة: لا يقرب زوجته وهي حائض........................ ١٢٩

الصفة الرابعة: إتيان الزوجة في مكان الولد........................ ١٣٤

الصفة الخامسة: أن يطعم نفسه وأهله حلالاً........................ ١٣٧

الصفة السادسة: لا يهجر زوجته أكثر من أربعة أشهر........................ ١٣٨

الصفة السابعة: لا يلجأ إلى السحرة والعرافين........................ ١٤٣

الصفة الثامنة: اتباع هدي الإسلام في علاج نشوز الزوجة........................ ١٤٦

الصفة التاسعة: المعاشرة بالمعروف........................ ١٥٠

الصفة العاشرة: إرواء عاطفتها وإعفافها........................ ١٥٤

الصفة الحادية عشرة: لا يهضم حق زوجته........................ ١٥٩

١- المهر........................ ١٥٩

٢- النفقة والسكنى........................ ١٦١

سبب وجوب النفقة........................ ١٦٢

الصفة الثانية عشرة: العدل بين أزواجه لما أباح الإسلام التعدد، أمر بالعدل ١٦٤

الصفة الثالثة عشرة: التسريح بإحسان عند الطلاق........................ ١٧٣

الصفة الرابعة عشرة: لا يخطب المرأة في عدتها........................ ١٨٠

الصفة الخامسة عشرة: تعلمه أحكام الطلاق ١٨٥
أحكام الطلاق قبل الدخول ٢٠٥
الصفة السادسة عشرة: بر الوالدين وصلة الرحم ٢١٢
الباب الثالث: صفات الزوجة الصالحة ٣٠٠
الصفة الأولى: قانتة حافظة بالغيب بما حفظ الله ٣٠١
الصفة الثانية: احترام الزوج وتوقيره ٣٠٦
الصفة الثالثة: مطيعة لزوجها ٣٠٩
نصيحة لفتاة الإسلام ٣١١
الصفة الرابعة: لا تخرج إلا بإذنه ٣١٢
الضرورة بقدرها ٣١٥
مهمة المجتمع ٣١٦
ثقافة ربة البيت ٣١٧
الصفة الخامسة: اتباع هدي الإسلام في علاج نشوز الزوج ٣١٩
الصفة السادسة: لا تتزين إلا لزوجها ٣٢٦
الصفة السابعة: راضية بقسمة الله تعالى لها ٣٣١
الصفة الثامنة: لا تصوم صوم تطوع إلا بإذن زوجها ٣٣٥
الصفة التاسعة: لا تظهر ما أمر الله تعالى بإخفاءه ٣٣٨
الصفة العاشرة: لا تعتدي على جنينها ٣٤٣
الصفة الحادية عشرة: ترضع ولدها من لبنها ٣٥٤
الصفة الثانية عشرة: الاقتصاد في المعيشة ٣٦٠

الصفة الثالثة عشرة: تهتم بتربية أولادها ٣٦١
الصفة الرابعة عشرة: القيام على رعاية زوجها وخدمته ٣٦٣
الصفة الخامسة عشرة: الإحداد على الزوج ٣٦٧
القول الجامع في آداب المرأة ٣٧١
العلاج الشرعي للشقاق بين الزوجين ٣٧٣
الباب الرابع: فتاوى مهمة للزوجين ٣٧٧
وسائل منع الحمل والإجهاض الغير شرعي ٣٧٨
الإسلام وعمل المرأة ٣٧٨
المرأة بين البيت والعمل ٣٨٠
ملابس المرأة ٣٨٢
الفهرس ٣٨٥

* * *